ضوء المعالي

شرح بدء الأمالي

ومعه مختصر شرح البكري على بدء الأمالي

تأليف

العلامة الشيخ علي بن محمد القاري

المتوفى ١٠١٤هـ

تحقيق وتعليق

خلدون علي زين الدين

دار البيروتي


ضوء المعالي
شرح بدء الأمالي



تأليف

العلامة الشيخ علي بن محمد القاري

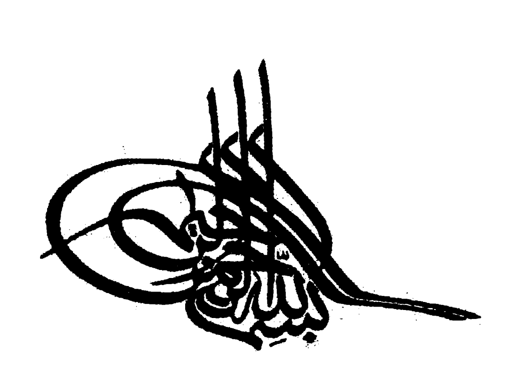
المتوفى ١٠١٤ هـ

ومعه مختصر شرح البكري على بدء الأمالي

تحقيق وتعليق

خلدون علي زين الدين

دار البيروتي



الطبعة الثانية

1438هـ - 2017 م




ARAPÇA YAYINLAR

Büyük Raşitpaşa Cad Yümni iş merkezi
NO : 22\22 Veznecıler Beyazıt İstanbul

TEL : 00905356502249

Email : beyruti.kitab@gmail.com






المقدمة

الحمد لله المتحقق بالربوبية، المتفرد بأوصاف الألوهية، المتقدس المنزه عن كل نقص ومعية، جلّ عن الشبيه والمثال، وتعالى عن التغير والزوال، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

والصلاة والسلام على محمد الهادي، شفيع الأمة يوم التنادي، اختاره الحق من بين الخلق، فنالت الأمة بفضله قصب السبق، أصلي وأسلم عليه صلاة لا تنقطع إلى يوم القيامة والدين. آمين.

وبعد...

فإن منظومة "بدء الأمالي" للإمام العلامة سراج الدين علي بن عثمان الأوشي ـ تغمده الله برحمته ـ حظيت بعناية العلماء والمشايخ شرحاً وتعليقاً، لما حوته من غزارة في العلم، وجزالة في النظم، وقوة في المعاني، فنالت بذلك حقها من التدريس والتعليم.

وكان من أبرز من شرحها العلامة الإمام ملا علي القاري، والإمام أبو القاسم البكري، والعلامة محمد بن سليمان الحلبي الريحاوي، والعلامة الشهاب أحمد بن إبراهيم الدقدوسي، وغيرهم...

وقد طلبت مني مكتبة الشامي في اسطنبول مشكورة قراءة المنظومة مع شرحها للإمام الملا علي القاري، والتعليق عليها، فرأيت أن النسخ الموجودة قد أدت المهمة، ووفت بالغرض، ولكني وجدت من المفيد إضافة ما هو جديد لخدمة الكتاب، وهو شرح العلامة أبي القاسم البكري، وهو يطبع لأول مرة.

فقمت بقراءة كتاب الهداية للإمام أبي القاسم البكري رحمه الله تعالى، وهو قد شرح فيه منظومة بدء الأمالي، ووقعت فيه على ثلاثة نسخ؛ نسخة كاملة للكتاب، وأخرتين مختصرتين عن الأصل، وبعد مطالعة النسخة الكاملة والمختصرة ومقابلتها، مال الرأي إلى طباعة النسخة المختصرة لشرح البكري على المنظومة.

ومن ثم أحببت أن أجمع الكتابين في كتاب واحد، فجعلت كتاب "ضوء المعالي" هو الأصل، وذيلته بمختصر شرح البكري، علّ الله سبحانه وتعالى يجعل فيه النفع، إنه على ما يشاء قدير.

عملي في الكتاب:

١ ـ قمت بتخريج الآيات والأحاديث الواردة في الكتاب من الصحاح فإن لم أجدها فأعزوها إلى مظانها من كتب الحديث.

٢ ـ قمت بتحقيق بعض المسائل المشكلة.

٣ ـ شرحت الألفاظ الغريبة، معتمداً على معاجم اللغة العربية.

٤ ـ ترجمت للأعلام الواردة أسماؤهم في الكتاب.

٥ ـ قمت بتعريف الاصطلاحات العقدية والأصولية.

٦ ـ ترجمت بإيجاز للناظم والعلامة ملا علي القاري، والإمام البكري.

الإمام ملا علي القاري

اسمه ونسبه:

أبو الحسن، نور الدين علي بن سلطان محمد القاري، الهروي، المكي، المعروف بملا علي القاري.

اسم أبيه: سلطان محمد.

حياته العلمية:

ولد في هراة، وتعلم القرآن الكريم وحفظه، وتلقى مبادئ العلوم وحضر حلقات العلماء في بلاده، وصلى بالناس إماماً فلقب بالقاري.

وفي مرحلة شبابه انتقل إلى مكة المكرمة، وذلك بعد وقوع فتنة السلطان إسماعيل الصفوي، ودخلة مكة ما بين عامي ٩٥٢ ـ ٩٧٣ هـ، وأخذ العلم عن علمائها، ومنهم: الأستاذ أبي الحسن البكري، والسيد زكريا الحسيني، والشهاب أحمد بن حجر الهيثمي، والشيخ أحمد المصري، والشيخ قطب الدين المكي، وغيرهم.

وفي حوالي سنة ١٠٠٣ هـ، بدأ تأليف الرسائل والكتب، وبلغت مؤلفاته نحو: (٣٠٠) مؤلف.

ومن أبرز كتبه: الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، والإعلام لفضائل بيت الله الحرام، والأنباء بأن العصا من سنن الأنبياء، وأنوار القرآن وأسرار الفرقان في التفسير، وبداية السالك في نهاية المسالك في شرح المناسك، وبهجة الإنسان ومهجة الحيوان، وبيان فعل الخير إذا دخل مكة من حجّ عن الغير، وشرح الفقه الأكبر، وفتح باب العناية شرح النقاية في الفقه، وضوء المعالي شرح بدء الأمالي.

وفاته: توفي رحمه في شوال سنة (١٠١٤ هـ)، ودفن بالمعلاة مقبرة مكة المكرمة آنذاك[1].

---

(١) ترجم للإمام رحمه الله ترجمة موسعة الشيخ وهبي سليمان الغاوجي في تعليقه على شرح الفقه الأكبر للإمام ملا علي القاري: (١٥ وما بعدها).

ترجمة الإمام الأوشي

اسمه ونسبه: أبو محمد سراج الدين، علي بن عثمان بن محمد بن سليمان، التيمي الأوشي، الفرغاني، الحنفي.

نسبته: الأوشي، نسبة إلى «أُوش» من بلاد فرغانة.

من تصانيفه:

- نصاب الأخبار لتذكرة الأخيار اختصر به كتابه: غرر الأخبار ودرر الأشعار في ألفاظ الحديث النوي.

- الفتاوى السراجية.

- يواقيت الأخبار.

- ومنظومة بدء الأمالي.

توفي رحمه الله سنة (٥٦٩ هـ)[١]. وفي الأعلام: "توفي بعد (٥٦٩ هـ)[٢].

ترجمة الإمام البكري

اسمه وكنيته: رضي الدين أبو القاسم بن حسين البكري.

ذكر له حاجي خليفة في كشف الظنون شرحاً على منظومة بدء الأمالي، وقال: (وشرحها الإمام رضي الدين، أبو القاسم بن حسين البكري)[٣].

وفاته: توفي رحمه الله في حدود سنة (١١٢١ هـ).

نسخ الكتاب:

منه نسخة مختصرة برقم: (٣١٠٨)، من ورقة: ٤ ـ ٢٨، تاريخ النسخ: ١١٧٩ هـ.

ونسخة كاملة برقم: (٢٩٢٦)، من ورقة: ١١ ـ ٥٣، تاريخ النسخ: ١١٢١ هـ.

---

(١) ينظر: الجواهر المضية: (٣/ ٥٨٣).

(٢) ينظر: الأعلام: (٤/ ٣١٠)، وذكر الزركلي مصادره في الترجمة وهي: التيمورية: (٢/ ٣٣٣)، والعباسية: (٢/ ٥٢)، والآثار الخطية: (١/ ٢٠٥)، ودار الكتب: (١/ ١٥٨).

(٣) ينظر: كشف الظنون: (٢/ ١٣٤٩).



مقدمة الشارح

الحمد لله الذي وجب وجود ذاته، وثبت وُجودُه وشهودُ صفاته، وظهورُ أفعاله الحميدة في صحائف[1] مصنوعاته. والصَّلاةُ والسَّلامُ على زبدة[2] مخلوقاته، وعُمدة موجوداته، وعلى آله وأصحابه وأتباعه في حركاته وسكناته.

أمَّا بعد.

فيقول المُلتجئُ إلى حَرَم ربِّه الباري عليُّ بن سلطان محمد القاري: لمَّا شرعتُ في شرح الفقه الأكبر، للإمام الأعظم، والهُمام الأقدم، كان في نيَّتي وطَويَّتي[3] أن يكون مختصراً بحيث يرتفع به المبتدي ويقتنع به المنتهي، ثمَّ انجرَّ الكلام إلى الكلام حتَّى خرج عن نظام المرام، فسنح[4] ببالي وخيالي أن أضع شرحاً موجزاً على قصيدة «بدء الأمالي»، ليكون مفيداً للأداني[5] والأعالي، ويصير موجِباً لترقِّ

---

(١) الصَّحائف جمع صحيفة، وصَحَفَ أصل صحيح يدل على انبساط في الشيء وسَعَةٍ. يقال: إن الصحيف وجه الأرض والمراد: جميع المخلوقات المنبسطة في الكون على اتساعه، الدالة على وجود الخالق سبحانه. لسان العرب: (٩/ ١٨٦) مادة صَحَفَ. معجم مقاييس اللغة مادة صَحَفَ.

(٢) الزُّبْدُ: زُبْد اللَّبَنِ: خلاصته. لسان العرب: (٣/ ١٩٢) مادة: زبد.

(٣) الطوية: الضمير والسريرة، يقال: طوى فلان أمراً أي أسَرَّهُ في نفسه ولم يُخبر به. لسان العرب: (١٥/ ١٨)، مادة: طوى.

(٤) سنح، أي: عرض ببالي. لسان العرب: (٢/ ٤٩٠) مادة: سنح.

(٥) دَنىٰ يَدني: إذا قصر عما أراد أي ضَعُفَ. المحيط في اللغة: (٢/ ٣٦٠). والمراد بالأداني هنا: ضعاف العلم.

حالي، وسبباً لحسن مآلي، وسمَّيتُه بـ «ضوء المعالي».

فأقول: قال النَّاظم، وهو الشَّيخ العلامة أبو الحسن سراج الدِّين عليُّ بن عثمان الأُوْشي، سقى الله ثراه، وطيَّب مضجعه ومثواه:

الحمد لله حقَّ حمده والصلاة على محمدٍ خير عبده، وبعد:

فهذا الشرح منسوبٌ إلى بيان قصيدة الشيخ الإمام، أقضى القضاة، القاضي سراج الدين علي بن عثمان الأوشي نوَّرَ الله قبره، ممَّا شرحه الإمام رضي الدين أبو القاسم بن الحسين البكري رحمة الله عليه.

أراد بالعبد نفسه، أي: عبد الله، وصف نفسه بالعبوديَّة اعترافاً للحقِّ بالرُّبوبيَّة، وتشريفاً لها بهذه النِّعمة الجليَّة، وتكريماً لها بهذه الصِّفة العليَّة، كما قال القائل:

لا تَدْعُني إلا بيا عبدَها فإنَّه أشرفُ أسمائي[(١)]

والأمالي: جمع الإملاء، واللآلئ: جمع اللُّؤلؤ. و«التَّوحيد» متعلِّق بـ «يقول» لا بـ «بدء» ولا بمقدَّر كما قيل، أي: لأجل توحيدٍ عظيمٍ لربٍّ كريم، وهو إثبات الوَحدانيَّة للذَّات الصَّمدانيَّة[(٢)].

والمعنى: أقول في ابتداء أنواع الإملاء، لإظهار توحيد ربِّ السَّماء، بمنظوم مشتمِل على مسالك الثَّناء، كنظم اللآلئ في الضياء والصَّفاء.

اعلم أنَّ الواجب على العبد أولاً أن يُقِرَّ بلسانِه، ويُصدِّقَ بقلبه بوحدانية الله تعالى أنَّه واحدٌ لا شريك له، لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبيَاء: 22] ولأنه لو كانا اثنين: إمّا أنْ يكونا قادرَين ـ مخالفين أو موافقين ـ أو عاجزين، [أو يكون أحدهما قادراً والآخر عاجزاً][(1)].

لا وَجْهَ إلى الأول؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى التَّمَانُع [أي التنازعُ والتدافع، والتَّمَانُع دليلُ حُدوثِهما معاً، أو دليلُ حُدوث أحدهما دون الآخر][(2)] وذلك فَسَادٌ مَحضٌ.

---

(١) البيت لأبي العباس المرسي ينظر: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: (٢/ ١٩٣).

(٢) الصَمَد: الباقي بعد فناء خلقه، وقيل: الذي انتهى في سُؤدده، والذي يُقصد في الحوائج، فالذات الصمدانية: هي الذات المستغنية عن كل شيء المفتقر إليها كل شيء.

وهي إشارة إلى نفي الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال عن الله سبحانه. ينظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى: (١٣٤)، تفسير الرازي: (٧/ ٣٠٤)، لسان العرب: (٣/ ٢٥٨). مادة: حَمَدَ.

---

(1) سقط من (م).

(2) سقط من (م).

أدلة توحيد الباري

فاعلم أنَّ أدلَّة التَّوحيد مشحون بها القرآنُ لأهل العرفان، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البَقَرَة: ١٦٣]، وقال سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمَّد: ١٩]. وقد جُعلت كلمة التَّوحيد مفيدةً لنفي ما سواه في الأُلوهيَّة، وعدم غيره في استحقاق العبوديَّة، مع اعتراف جميع الكفَّار بتوحيد الرُّبوبيَّة[1] حيث قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

ولا وجهَ إلى الثاني؛ لأنَّ المُوافَقَةَ لا تَخلُ، إمَّا أن تكون اختيارياً أو اضطرارياً، فإنْ كان الثاني يلزم العجزُ، وإنْ كان الأول لا تَخلُ، إما أن تكون المُخالفةُ ممكناً أو لا، فإن لم تكن ممكناً فيكون في ذلك الاختيار اضطراراً، وإن كان ممكناً يلزم منه جواز العجز.

---

(١) أشكلت هذه المسألة على كثير من الناس فمنهم من رفضها ومنهم من عممها وغير ذلك ويمكن الإجمال فيها بالقول: إن أول من خرج بهذا التقسيم هو ابن تيمية رحمه الله فقد قسم التوحيد إلى قسمين: توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية.
وذكر أن مشركي العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد كما أخبر الله تعالى عنه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].
ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة الله في خلق العالم، بل كانوا يعتقدون أنها تماثيل قوم صالحين اتخذوهم شفعاء لهم عند الله، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم وفي ذلك يقول سبحانه على لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزُّمَر: ٣] هذا ملخص مراد ابن تيمية. ينظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية: (٥/ ٢٣٤).
والتوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية الذي يتضمن توحيد الربوبية.
لأن الشرك في العبادة يقتضي عدم توحيد الربوبية فلذا يجب: تصحيح عقيدة المشركين والرجوع بهم إلى الأدلة التي تثبت وجود الله وتفرده بالربوبية، وإثبات أنَّ أية عبادة لغيره شرك بالله تعالى وكفر بحق إفراده بالعبودية الذي يستلزم التشكيك في تفرده بالربوبية وخصائصها في الخلق والرزق والنفع والضرر...
ينظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز: (١/ ١٥)، العقيدة الإسلامية لحبنكة: (١٥٥).

﴿وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وزعمت المجوس(١) والثنويَّة(٢): أنَّ الصَّانع اثنان: أحدهما خالق الخير، والآخر خالق الشَّرِّ ورُدَّ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرّعد: ١٦]، وأمَّا قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] فمن باب الاكتفاء(٣)، أو من طريق الأدب

ولا وجه إلى الثالث والرابع لثبوت العجز، وإذا تعذَّرَ إثبات إلهين اثنين ثَبَتَ أنَّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [النِّسَاء: 171].

فالإيمان: هو تصديقٌ بالجنان وإقرارٌ باللسان، فلا يَنفعُ التصديق دون الإقرار إلا الأخرس، ولا الإقرار دون التصديق إلا المنافق في الدنيا، فمَن أقرَّ ولم يُصدِّق بقلبه فهو منافق، لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المَائدة: 41] الآية، إلا أنَّه يرتفع عنه السيف ظاهراً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أمرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»(1) وهو كافرٌ حقيقةً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّسَاء: 145].

---

(١) المجوس: وهم أصحاب عقيدة باطلة تثبت إلٰهين: إله النور: يصدر عنه الخير والنعم، وإلٰه الظلام: يصدر عنه الشر والألم. وقد تولّد العالَم منهما فاتخذوا النار معبوداً لهم. ينظر: التبصير في الدين للإسفراييني: (١٤٢)، المواقف للإيجي: (٢/٦١٦).

(٢) الثنوية: هم الذين قالوا بأن الآلهة اثنان أزليان وهما النور والظلمة، وخالفوا المجوس بذلك وزعموا أن لهما تأثيراً فالنور يفعل الخير، والظلمة تفعل الشر. ينظر الملل والنحل: (١١٥).

(٣) الاكتفاء: هو أن يحذف الشاعر من البيت شيئاً يُستغنى عن ذكره بدلالة العقل عليه. والمراد هنا: اكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لأن الكلام وقع في الخير الذي يسوقه إلى المؤمنين وهو الذي أنكرته الكفرة، والتقدير: بيدك الخير والشر كما اكتفى بذكر الحَرِّ عن ذكر البرد في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النّحل: ٨١]... أي: والبرد. ينظر: مغني اللبيب: (١/ ٣٥)، البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكة الميداني: (١/ ٥٠١).

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة، برقم: (25). ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله برقم: (133).

في مقام الثَّناء، ومنه قوله عليه السلام: «الخيرُ كلُّه بيديك، والشَّرُّ ليس إليك»(١) أي: لا يُنسب إليك الشَّرُّ تعظيماً(٢)، كما لا يقال: خالق الكلب والخنزير تكريماً، وإلَّا فكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤]. و﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ٧٨].

وقال بعضهم(٣): أحدهما الظُّلمة والآخَر النُّور. وفسادُه أظهر من الشَّمس؛ لأنَّهما عَرَضان مفتقران إلى مُوجدهما كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعَام: ١]، فهما مجعولان له سبحانه، مسخَّران لأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسرَاء: ١٢].

فثَبَتَ أنَّ الإيمان: هو الإقرار والتصديق، مَثَلُهُ كالزّرنيخ والنَّورة(1) إذا اجتمعا يحلق الشعر وإلا فلا.

وقالت الكراميَّة: الإيمان: هو الإقرار المجرَّد، وقال جَهْم(2) و الصالحي(3) من القدرية: هو التصديق، وقال الشافعي وأهل الحديث والمعتزلة: الإيمان هو التصديق والإقرار والعمل.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم: (٧٧١).
(٢) أضاف إليه محاسن الأمور دون مساوئها على جهة الأدب، وذهب العلماء في تأويل قوله: «والشر ليس إليك» إلى خمسة أقوال منها: لا يتقرب به إليك. ينظر: شرح النووي على مسلم: (٣/ ٣٠١).
(٣) هم الثنوية والمجوس.

---

(1) حجران من الكلس يُضاف بعضهما إلى الآخر فيُزال بهما الشعر مباشرة. ينظر: المصباح المنير: (373) مادة: نور.
(2) أبو محرز جهم بن صفوان، الراسبي مولاهم، السمرقندي، متكلم، أسٌّ في الضلالة، وإليه تنسب الفرقة الجهمية توفي سنة (128هـ). معجم الفرق الإسلامية: (85).
(3) صالح بن عمر الصالحي، إليه تنسب الفرقة الصالحية من الخوارج، وهو من الذين قالوا بالقدر والإرجاء، قال الصالحي: الإيمان هو المعرفة على الإطلاق. ينظر: الملل والنحل: (62).

ودليلُ التَّمانُع[١] في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] قطعيٌّ إجماعيٌّ لا ظنّي إقناعي كما توهَّم بعضهم[٢] على ما بيَّناه في محلّه الأليق به[٣].

ولنا قول أبي حنيفة رحمه الله: إنَّ الإيمان في اللغة هو التصديق، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: 17] أي بمصدِّق، إلا أنَّ التصديق لمَّا كان أمراً باطناً لا يمكن بناء الأحكام عليه، أوجب الشرع الإقرار أمارة على التصديق، فعُلِمَ بذلك أنَّ الإيمان لا يزيد ولا يَنقصُ.

وقالت الخوارج: كلُّ طاعة إيمان وكل معصية كفر، وإذا اجتمعت الطاعة والمعصية يكون العبد متَّصفاً بالكفر؛ لأنه أغلب من الإيمان.

وهذا قبيح؛ لأنه لو كان المؤمن كافراً بمعصيته لَمَا سُمِّي العاصي مؤمناً، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8] [1].

---

(١) التمانع: هو أنه لو كان للعالم صانعان لحصل خلاف بينهما، مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه. فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما. والأول ممتنع. لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، ويستلزم عجز كل منهما والعاجز لا يكون إلٰهاً وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإلٰه القادر والآخر عاجز لا يصلح إلٰهاً. انظر: حز الغلاصم (٣١)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٨٠).

(٢) الحجة الإقناعية: أي الظنيَّة، وسمِّي الدليل الظني إقناعياً؛ لأنه يَقْنَع به من لا يحتمل كلفة البرهان. النبراس: (٢٢٩).

وأراد بقوله «بعضهم»: أبو نصر الفارابي الحكيم، وتبعه التفتازاني ودلَّل على كلامه في شرح العقائد: (٦٢)، وانتصر علاء الدين البخاري لشيخه التفتازاني وقد ذكر نصَّ كلامه ابن أبي الشريف في المسامرة: (١٢١ وما بعدها).

والمحققون على أنَّ الدليل الذي يفيده لفظ الآية قطعي.

ينظر: النبراس (٢٢٣)، شرح الفقه الأكبر للقاري: (٣١)، تحفة المريد: (١٥٤).

(٣) شرح الفقه الأكبر (٣١).

---

(1) خلاصة المسألة: ذهب أهل السنة والجماعة في تعريف الإيمان إلى مذهبين:

=

وزعم الطَّبائعيُّون[١] أنَّ الصَّانع أربعة: الحرارة، والبرودة، والرُّطوبة، واليبوسة. وزعم الأفلاكيُّون أنَّه سبعة: زُحَل، والمشتري، والمرِّيخ، والزُّهرة، وعُطارِد، والشَّمس، والقمر. وبطلانُهما ظاهر عقلاً ونقلاً. وعبدةُ الأصنام مع أنَّهم الجُهلاء أقرب إلى معرفة الرَّبِّ من هؤلاء الذين يزعمون أنَّهم الحكماء، فإنَّهم يعترفون بربوبيَّته سبحانه، وإنَّما يعبدون الآلهة ليقرِّبوهم إليه تعالى، وليكونوا لهم شفعاء لديه.

وأمَّا التَّوحيدُ الصِّرف[٢] الذي يقول به الوُجوديَّةُ[٣] والحُلُوليَّةُ[٤] والاتِّحاديَّةُ[٥] من أنَّ الحقَّ هو الوجودُ المطلَق، فشرٌّ من كفر الثنوية.

والحاصل: أنَّ توحيد أهل الإيمان هو تصديقٌ بالجَنان، وإقرارٌ باللِّسان على أنَّه تعالى أحدٌ في ذاته، واحد في صفاته، وخالق لمصنوعاته[٦] كما أشار إليه بقوله:

---

(١) هم جماعة من الفلاسفة قالوا بأن طبيعةَ كلِّ شيءٍ مستقلةٌ وحدها ولها تأثيرٌ بنفسها، وأنكروا أي أثر لقدرة الله عزَّ وجلَّ في المسببات، وقالوا بعدم وجود الله أصلاً، وأن هذا الكون خُلق صدفة. ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: (١/ ١٢٢).

(٢) الصِّرف: الخالص والغير ممزوج بشيء. لسان العرب: (٩/ ١٨٩) مادة صَرَفَ.

(٣) الوجودية: جماعة من الفلاسفة قالوا بأن العالم هو صور الحق سبحانه وأن من عبد شيئاً فإنما عبد الله تعالى. نعمة الذريعة: (١/ ٣٢).

(٤) الحلولية: هم القائلون بحلول الإله في الإنسان والطبيعة حتى يلتصق بهما ويتوحد معهما، وتصبح كل الأمور مقدسة متساوية.

(٥) الاتحادية: جماعة من الفلاسفة يعتقدون أن الله حلَّ في مخلوقاته واتحد معها، وأنه في كل مكان، وجعلوا كل شيء عابداً ومعبوداً. ينظر: معارج القبول: (١/ ٣٧).

(٦) قال ابن جزي في التَّسهيل: اعلم أنَّ وصف الله تعالى بالواحد الأحد له ثلاثة معان، كلُّها صحيحة في حقِّه تعالى: الأوَّل: أنَّه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعدد. والثاني: أنَّه واحد =

= الأول: مذهب جمهور المحققين من الأشاعرة والماتريدية: أن الإيمان هو التصديق، والإقرار فيه شرطٌ لإجراء الأحكام في الدنيا.

والثاني: مذهب بعض الأشاعرة وهو قول الإمام الأعظم أبو حنيفة: أنَّ الإيمان هو التصديق والإقرار.

ينظر: النبراس: (540)، شرح الفقه الأكبر: (143)، تحفة المريد: (116 وما بعدها).

=

إلَـــهُ الـــخَـــلْـــقِ مَـــوْلانـــا قَـــدِيـــمٌ وَمَـــوْصُـــوفٌ بـــأَوْصـــافِ الـــكَـــمَـــالِ(١)

المراد بـ«الإله» المعبود بالحقِّ، وبـ«الخلق» المخلوق، وهو ما سوى الله سبحانه وتعالى. و«المَوْلى»: هو السَّيِّد والنَّاصر والمربِّي والمتولِّي الأمر. و«القديم»: ما لم يُسبَق بالعدم، وما ثبت قِدَمه استحال عدمه. فهو متضمِّن لِنَعْت البقاء، فهو الأوَّلُ بلا

إلـــهُ الـــخَـــلْـــقِ مـــولانـــا قـــديـــمٌ ومـــوصـــوفٌ بـــأوصـــافِ الـــكـــمـــالِ

واعلم أنَّ الصانع قديمٌ؛ لأنه لو كان حادثاً لافتَقَرَ إلى مُحدِث، وكذا الثاني والثالث فيلزم التسلسل وهو باطل(1)؛ لِمَا فيه من إبطال الصانع.

= لا نظير له ولا شريك له، كما تقول: فلان واحد في عصره، أي: لا نظير له. والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعَّض. أقول: هذا بالنسبة إلى وحدانية الذات، أما وحدانية الصفات فهي تنفي: أ ـ الكم المتصل بالصفات: وهو التعدد في صفاته تعالى من جنس واحد كقدرتين وإرداتين. ب ـ الكم المنفصل فيها: وهو أن يكون لغير الله صفة تشبه صفته تعالى وذلك كأن يكون لزيد قدرة يوجد بها ويعدم بها كقدرة الله تعالى.

وقوله: (خالق لمصنوعاته) فيه إشارة إلى وحدة الأفعال التي تنفي الكم المنفصل فيها، وذلك كأن يكون لغير الله فعل من أفعال الخلق والإيجاد وإنما ينسب الفعل إلى العبد كسباً واختياراً.

(١) قبل الدخول في الموضوع لا بد من تلخيص الكلام حول صفات الله تعالى.

صفات الله تعالى هي ستة أقسام:

١ـ الصفة النفسية: وهي الوجود.

٢ـ الصفات السلبية: وهي ما كان مدلولها سلب صفة لا تليق به سبحانه وهي خمس: الوحدانية، القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، قيامه تعالى بنفسه.

٣ـ صفات المعاني: والمراد بها كل صفة قائمة بذاته، وهي سبع: القدرة، الإرادة، العلم، الحياة، السمع، البصر، الكلام.

٤ـ الصفات المعنوية: هي الأحكام التي تترتب على ثبوت صفات المعاني. ككونه قادراً.

(1) التسلسل: أن يفرض أن المخلوقات كلها متولدة بعضها عن بعض إلى ما لا نهاية، بحيث يكون كل واحد معلولاً لما قبله وعلة لما بعده، دون أن تتصل هذه السلسلة أخيراً بعلة واجبة الوجود. العقيدة الإسلامية للخن: (136)

ابتداء والآخِرُ بلا انتهاء، والظَّاهرُ بالصِّفات والباطن بالذَّات[١]، وهو مولانا نِعْم المولى ونِعْم النَّصير، ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير[٢]، وهو متَّصف بأوصاف الكمال من نعوت الجلال وصفات الجمال[٣] الذَّاتيَّة والأفعاليَّة[٤]، والثُّبوتيَّة والسَّلبيَّة[٥]، فهو كما أنَّه موصوف بأوصاف الكمال منزَّه عن سمات النُّقصان والزَّوال.

ومعنى القديم: أولٌ لا أوائل له، وأنَّه موصوف بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام.

وأنكرت الفلاسفة ذلك وزعموا أنَّ الله تعالى لا يُوصفُ بما يُوصفُ به العبد[1]، وقالت المعتزلة: إنّ الله تعالى موصوف بهذه الصفات لكنها غير قائمة بذاته.

= ٥ـ صفات الأفعال: وهي ما ورد في القرآن وصف الخالق بها: كالرزق.
٦ـ الصفات الجامعة: كالعزة والجلال والجمال.
ينظر: العقيدة الإسلامية للخن: (١٢٣)، شرح الصاوي: (١٩٦).

(١) (الظاهر بالصفات) أي أن آثار صفات الله المشَاهَدَة تُظْهر لنا وجوده. فهذا الكون يدل على قدرة الصانع وإرادته وغيرهما من الصفات.
(الباطن بالذات) أي أنَّ عقولنا لا تدرك حقيقة ذاته سبحانه.

(٢) هذا يسمى في اللغة اقتباساً وهو: أن يضم المتكلم إلى كلامه شيئاً من القرآن أو الحديث على وجه لا يُشعر بأنه منهما، نحو قول الحريري: أنا أنبئكم بتأويله، وأميِّز صحيح القول من عليله ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (١/ ١٢٩).

(٣) ـ صفات الجلال: الصفات الدَّالَّة على البطش والقهر، نحو: العزيز والقهَّار والمنتقم ومنشؤها النقمة.
ـ صفات الجمال: الصفات الدَّالَّة على البسط، نحو: الرَّحمن والرؤوف، ومنشؤها الرَّحمة.

(٤) صفات الذات وصفات الأفعال سيأتي الكلام عنها عند قول الناظم (صفات الذات والأفعال طراً).

(٥) الصفات الثبوتية: هي الصفات الدالة على تمام المعنى وكماله، فقوة الله قوة كاملة تامة،

---

(1) فاعلم أنَّ كبار فلاسفة اليونانيين قد أخذوا الحكمة النظرية والعملية من الكتب المُنزَّلة ومن بعض أنبياء بني إسرائيل، فالفلاسفة اليونانيون كلُّهم يُقرُّون بوحدانية الله تعالى وبحقيقة الكتب المنزَّلة وبحقيقة الأنبياء عليهم السلام، ومع ذلك لم يؤمن أحدٌ منهم ولم يدخل في دين موسى عليه السلام، بل كانوا من المشركين الذين اتخذوا الأصنام آلهة، فكانوا يقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. شرح الفقه الأكبر. (هامش ب)

ثمَّ الخَلْق من صفات الأفعال، وهي قديمة عندنا، فإنَّه سبحانه كان خالقاً قبل أن يخلق الخلق، خلافاً للأشاعرة[1]، فما قال شارحٌ من أنَّ «مَن قال: إنَّه لم يكن خالقاً قبل أن يَخلُق الخلق فقد كَفَر» نشأ من جهله بتحقيق المسألة.

الله هو الحي المدبر المقدر

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السَّجدَة: ٥] وقال: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمٰن: ٧٨] أي: ذي العظمة والرَّحمة.

لنا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: 65] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التّحريم: 2] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: 120] ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185] يريدون أن يبدلوا كلام الله تعالى، وإنه لو لم تكن هذه الصفات قائمة بذات الله تعالى لكان إطلاق هذه الأسامي عليه بطريق المجاز لا بطريق الحقيقة وهذا لا يجوز.

هـو الـحـيُّ الـمـدَبِّـرُ كُـلَّ أمـرٍ   هـو الـحَـقُّ الـمـقَـدِّرُ ذو الـجـلالِ

واعلم أنَّ الصانع حيٌّ بحياةٍ أزلية لا بروح؛ لأنَّ الروح جِسمٌ لطيفٌ نفّاذٌ في مسالك البدن، حاملٌ للقوى إلى الأعضاء.

= وهي غير صفات المعاني، والصفات السلبية: نسبة للسلب أي النفي إذ مدلول كل واحد منها سلب أمر لا يليق به سبحانه الوحدانية والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وقيامه بالنفس.
ينظر تبصرة الأدلة للنسفي (١/ ٢٦١)، وشرح الخريدة البهية في علم التوحيد للدردير (٥٤).

(١) الأشعرية: إحدى فرقتي أهل السنة والجماعة، أتباع الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المنتهي نسبه إلى سيدنا أبي موسى الأشعري، كان تلميذاً لأبي علي الجبائي المعتزلي، وتركه بسبب مسألة وجوب الأصلح على الله عز وجل. توفي (٣٢٤هـ). ينظر: معجم الفرق الإسلامية: (٣٥).

قال أهل السُّنَّة: الحياة من صفات الذَّات، وهي صفة حقيقيَّةٌ[١] قائمة بالذَّات، تقتضي صحَّةَ وجود الصِّفات، من العلم والإرادة والقدرة ونحوها، لِمَن قامت به.

وقالت المعتزلة[٢]: هي عدم امتناع العلم والقدرة.

ثُمَّ (المدبِّر): هو العالم بعواقب الأمور. و(الحقُّ): هو الثَّابتُ، وهو من أسمائه سبحانه. و(المقدِّر): موجِدُ الأشياء على قدر مخصوص، وقيل: الموجد

والله تعالى ليس بجسم، والصفة الحادثة ممتنعٌ قيامها بذات الله؛ لأنَّ صفاته صفات كمال فيلزم من قيام الصفة الحادثة بذاته نقصان الذات ـ تعالى الله علواً كبيراً ـ ولقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البَقَرَة: 255][1] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفُرقان: 58] خلافاً للفلاسفة والمعتزلة كما مرّ.

وأنَّه مدبِّرٌ كلَّ أمرٍ بلا قلب ـ أي عالم بعواقب الأمور ـ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ[2] ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يُونس: 31][3] ولقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البَقَرَة: 77].

---

(١) يطلق على صفات المعاني تسميات أخرى، فيقال: الصِّفات الذَّاتيَّة، والصِّفات الوجوديَّة، والصِّفات الثُّبوتيَّة، والصِّفات الحقيقيَّة، فيكون المراد بقوله: «وهي صفة حقيقية» أنَّها من صفات المعاني، والله أعلم.

(٢) المعتزلة: فرقة إسلامية أتباع واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري رحمه الله بسبب الخلاف حول مرتكب الكبيرة.

ويقوم مذهبهم على أصول خمسة: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ينظر: معجم الفرق الإسلامية: (٢٢٧).

---

(1) القيوم: أي الدائم. ويقال: القائم بتدبير أمر الخلق في أسبابهم ورزقهم. (هامش ب)

(2) يعني من يَقدِر أن يدبر بين الخلق وينظر في تدبير الخلائق، ويقال: من يرسل الملائكة بالأمر. (هامش ب)

(3) أي يفعل ذلك كلّه؛ لأنَّ الأصنام لم يكن لهم قدرة في هذه الأشياء، فقل: أفلا تتقون من الشرك فتوحدونه وتطيعون الله الذي يملك هو ذلك. (هامش ب).

الذي يصحُّ منه الفعل والتَّركُ. و«كلَّ أمر» مفعول «المدبِّر»، ومفعول «المقدِّر» محذوف تقديره: «كل أمر» بقرينة ما تقدَّم، فكلُّ شيء من خير وشرٍّ، ونَفْع وضُرٍّ، وحُلْو ومرٍّ، بقضائه وقدره في الأزل(١)، فلا يتبدَّل ولا يتغيَّر. وفيه إشارة إلى دخول أفعال العباد في مخلوقاته ردّاً على المعتزلة(٢).

وأنَّه حقٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون: 116] خلافاً للدهرية.

وأنَّه مُقدرٌ: أي الخالق الذي يُقدِّر الأمور بالقلة والكثرة بلا آلة، لقوله تعالى: وهو ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 102] وأصل الخلق: سرُّ الله في خَلقِه[1] لم يَطَّلِع عليه ملكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل، والحذر كلُّ الحذر من ذلك فِكراً ووَسوَسَة، فإنَّ الله تعالى طَوَى عِلْمَ الخلق عن أنامِه، ونهاهم عن مَرَامه[2] حيث قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23] خلافاً للملاحدة فإنَّهم يَصِفونه بالآلة ـ تعالى الله علوّاً كبيراً ـ، وأنَّه ذو الجلال بذاته وصفاته لا بعبادةِ عابدٍ ولا بتوحيد موحِّدٍ.

---

(١) القضاء: هو علم الله في الأزل بالأشياء كلها على ما ستكون عليه في المستقبل، والقدر: إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقاً لعلمه الأزلي المتعلق بها. ينظر: كبرى اليقينيات الكونية: (١٧١).

(٢) ينظر: المجموع المحيط بالتكليف للقاضي عبد الجبار: (٢١٠). المسائل الخلافية بين الأشاعرة والماتريدية: (الروضة البهية: ١٠٨).

---

(1) وهو مما تفرد به الباري سبحانه، فلا يشاركه فيه أحد من خلقه، يقدر ما يشاء ويخلق ما يشاء كيف يشاء وبأي وقت شاء فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

(2) المرام: المطلب. والمراد: النهي عن طلب معرفة ما يفعله سبحانه وتعالى. ينظر: القاموس المحيط: (1441) مادة: روم.

الإرادة والمشيئة تغايران الرضا والمحبَّة

الإرادة(١) من صفات الذَّات، تقتضي ترجيح أحد الجائزَيْن من التَّرك والفِعْل بالوقوعِ(٢)، وترادفُها المشيئة، والرِّضا والمحبَّةُ سواءٌ، هذا مذهب أكثر أهل السُّنَّة. وقالت المعتزلة وبعض الأشاعرة: الرِّضا والمحبَّةُ نفس الإرادة والمشيئة(٣).

مـريـدُ الـخـيـرِ والـشَّـرِّ الـقـبـيـحِ ولـكـنْ لـيـس يَـرْضَـى بـالـمُـحَـالِ

واعلم أنَّ الصانع خالقُ الخير والشر ومريدُهما، وليس براضٍ بالشر لحكمة بليغة، وأنَّ العبد غيرُ مجبور في إتيانهما[1] بل مختار، فلا يجري في مُلكِه قليلُ وكثيرُ خيرٍ وشرٍّ إلا بمشيئته، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30] والقضاء والمشيئة ليسا بحجة لفعل العبد.

والقدرية أنكروا قضاء الله تعالى، ويرون الخير والشرَّ مِن أنفسهم فضَلُّوا به، [والجبرية اعتمدوا على القضاء، ورأوا الخير والشر مِن الله تعالى، وتركوا فعل العبودية فضَلُّوا به][2].

---

(١) الإرادة: صفة قديمة زائدة على الذَّات تقتضي تخصيص الحوادث بوجه دون وجه ووقت دون وقت. ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: (١/ ٣٩)، شرح العقائد النسفية: (٨٥).

(٢) بيان المسألة: أن القدرة صفة يصح بها الفعل والترك فنسبتها إلى هذين الجائزين على السواء، وكذا نسبتها إلى الأوقات، فإن صدر بها الفعل في وقت والترك في وقت لزم الترجيح بلا مرجِّح، فلا بد من صفة أخرى ترجح أحد الجائزين في أحد الأوقات وهي الإرادة. النبراس: (٣٠٠).

(٣) ينظر: تبصرة الأدلة: (٢/ ٢٨٢).

---

(1) أي فعل الخير والشر. (هامش ب)

(2) سقط من (ب).

واختصَّت المعتزلة بقولهم: إنَّ الخير من الله والشَّرَّ من العبد. ونقول: نعم يظهر من العبد بحسب كسبه، لكن بخَلْق الله سبحانه فيه، فالكلُّ منه.

ثمَّ «القبيح» بالجرِّ[١] صفة كاشفة للشَّرِّ، وتسميتُه شرَّاً وقبيحاً بالنِّسبة إلى تعلُّقه بنا وضرره لنا، لا بالنِّسبة إلى صدوره منه سبحانه، وهذا أحد معاني حديث «والشَّرُّ ليس إليك».

ثمَّ القُبح والحُسْن يعرفان بالشَّرع، وعند المعتزلة بالعقل[٢].

قلنا للفريقين: قولُكم يؤدّي إلى إسقاط الرجاء والخوف؛ لأنَّ مَن لم يرجُ على خير فعَلَه، ولم يَخَف مِن سوءٍ فعله فهو كافرٌ، لقوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: 53] و﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: 87] وفي زوال الخوف إسقاط العبودية وتفويت الربوبية، وهذا أشدُّ كفراً من الأول.

ولهما: لو أراد الله معصية العاصي وكفر الكافر ثُمَّ عذَابه عليهما كان ذلك منه جَوراً، وبذلك يُسمُّوننا أهل الجَور، ويُسمُّون أنفسهم أهل العدل.

قلنا للفريقين: الثواب والعقاب على إتيان الفعل المخلوق لا على أصل الخلق.

---

(١) لأنها جاءت صفة للشر.

(٢) قالت المعتزلة: القبيح: ما ليس للقادر عليه العالم بحاله أن يفعله، وهو يشمل الحرام أو هو الواقع على صفة توجب الذم.

والحسن ما للقادر عليه العالم بحاله أن يفعله وهو يشمل الواجب والمندوب والمباح، أو هو الواقع على صفة توجب المدح.

فالتعريفان يرجعان إلى تحكيم العقل.

وأما أهل السنة فقالوا: البيح ما نهي عنه شرعاع والحسن ما لم يُنْه عنه شرعاً. ينظر: المسائل الخلافية بين الأشاعرة والماتريدية: (نظم الفرائد وجمع الفوائد): (٢١٦)، شرح البدخشي على البيضاوي: (١/ ٦٧).

و«المُحال» بضمِّ الميم: ما لا يمكن في العقل تقديرُ وجوده في الخارج، وقيل: المحال والمستحيل: ما تقتضي ذاتُه عدَمَه، والمراد به هنا: ما كان بعيداً عن الصَّواب عند أولي الألباب، كالكفر والمعصية، فإنَّه سبحانه مريدٌ لهما غيرُ راضٍ بهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزُّمَر: ٧]. ولمَّا كانت عبارة النَّاظم بـ «مريد الخير والشَّرِّ» مَظِنَّة[1] تُوهِم رضاه بهما استدرك.

وممَّا يدلُّ لاستعمال المحال على غير المَرضيِّ من الخصال[2] قول من قال[3]:

تعصي الإلَه وأنتَ تُظهِرُ حُبَّه ... هذا مُحالٌ في الفِعال بديعُ

لو كان حبُّكَ صادقاً لأَطَعْتَهُ ... إنَّ المحِبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

....

....

---

(١) مَظِنَّة: أي مكان الظن وموضعه. ينظر: لسان العرب: (١٣/ ٢٧٢) مادة: ظنن.

(٢) (الخصال): وفي نسخ أخرى الفعال.

(٣) اختُلف في قائل هذه الأبيات على عدة أناس والأرجح أنها لمحمود الورّاق.

وإليك خلاصة هذا البحث:

الإرادة والمشيئة غير الرضا والمحبة، وهو ما ذهب إليه أكثر أهل السنة والجماعة.

فالإرادة والمشيئة: تتعلق بالممكن على وفق ما ستوجد عليه في المستقبل سواء أكان ذلك خيراً أم شراً، مأموراً به أم منهياً عنه وهذا التعلق لا يوجب شيئاً من القسر والجبر لأفعال العباد.

والمحبة والرضا: قبول الشيء والإثابة عليه، ولا يتعلقان إلا بالشيء المستحسن.

فأحب الله لنا الإيمان والطاعة ورضيه لنا، وكره منا الكفر والفسوق ولم يأمرنا به، إلا أنه سبحانه قد أراده ممن وقع منه.

ينظر: العقيدة الإسلامية للخن: (١٩٥).

صفاته تعالى
قائمة بذاته

أطلق النَّاظم صفات الله، فشملت صفات الذَّاتِ وصفات الأفعال، فهي ليست عينَ الذَّات ولا غيرَها، كما هو مذهب أهل السُّنَّة، ومذهبُ الحكماء أنَّ الصِّفات عينُ الذَّات، ومذهبُ المعتزلة أنَّها غيرها كذا ذكره ابن جماعة[١]، والمشهورُ عن

صِـفَـاتُ اللهِ لـيـسـتْ عَـيـنَ ذاتٍ ولا غَـيـراً سِـواهُ ذا انـفـصـالِ

واعلم أنَّ صفات الله تعالى قائمةٌ بذاته لا هو ولا غيره.

وقالت المعتزلة: هي ذاته، وقالت الكرامية: هي غيره؛ لأنَّها حادثةٌ، وبين القدم والحادث تناقض، وحجة المعتزلة: أنَّه لو ثبتَت هذه الصفات وراء الذات لَزِم القول بالقدماء، وفيه إبطال التوحيد[1].

قلنا: لمَّا أُطلِقت الصفات المشتقة على الذات بطريق الحقيقة وَجَبَ القول بأنَّها قائمة بذات الله تعالى، والقول بالقدماء إنَّما يَلْزَم إن كانت هذه الصفات أغيار الذات، ونحن نُنكِر ذلك فصار كالواحد من العشرة، لا يكون عشرةً ولا غيرَ عشرةٍ؛ لأنه يلزم من وجودها وجوده ومن عدمها عدمه.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد، عز الدين الكناني، الحموي ثم المصري، الشافعي، الشهير بابن جماعة، عالم بالأصول والجدل واللغة والبيان، من كتبه: درج المعاني شرح بدء الأمالي، الكوكب الوقاد في شرح الاعتقاد، توفي بالقاهرة سنة (٨١٩ هـ). ينظر: شذرات الذهب (٧/ ١٣٩).

---

(1) في (ب) (إبطال الصفات).

المعتزلة نفيُ الصِّفات بالكلِّيَّة، حيث زعموا أنَّ صفاته عين ذاته، بمعنى: أنَّ ذاته تسمَّى باعتبار التَّعلُّق بالمعلومات عالماً، وبالمقدورات قادراً إلى غير ذلك[1]، نظراً إلى أنَّ في إثباتها إبطالاً للتَّوحيد، للزوم تعدُّد القدماء.

والضَّمير في «سواه» عائد إلى الذَّات، وذُكِرَ مراعاةً للأدب وتنزيهاً للرَّبِّ، و«سواه» بدل من «غير» للتَّوكيد.

وقوله: «ذا انفصال» مشيرٌ إلى أنَّ المراد بالغيريَّة الغيريَّة الاصطلاحيَّة، وهو الذي يمكن انفصاله عن الذَّات، لا الغيريَّة اللُّغويَّة بظهور التَّغاير بين الذَّات والصِّفات.

أمَّا كونها ليست عين الذَّات فلأنَّ الصِّفة ليست عين الموصوف، وأمَّا أنَّها ليست غيرها؛ فلأنَّ صفاته تعالى لا تنفكُّ عن ذاته أزلاً وأبداً، بخلاف صفات مخلوقاتِه[2].

---

(١) اعلم أنَّ الحكماء والمعتزلة والصوفية وكثير من المحقِّقين ذهبوا إلى القول بأنَّ الصِّفات عين الذَّات، ينظر: المسامرة: (١٤٠)، تحفة المريد: (١٩٢).

(٢) ينظر: نهاية الإقدام: (٦٧)، المواقف: (١/ ٣٦٥).

صفات الذات وصفات الأفعال

اعلم أنَّ صفات الذَّات ما يلزم من نَفْيه نَقيضُه، وصفاتِ الأفعال ما لا يلزم من نفيه نقضيه[١].

والفرق بين الذَّات والصِّفة: أنَّ الذَّات كلُّ ما يمكن أن يُتصوَّر بالاستقلال، بخلاف الصِّفة فإنَّها كلُّ ما لا يمكن تصوُّره إلا تَبَعاً.

والتَّحقيق: أنَّ من قال: «الصِّفات غير الذَّات» نظر إلى أنَّ الصِّفة قائمة بالذَّات وتقدُّمُ الذَّات من الضَّروريَّات، ومن قال: «الصِّفاتُ عينُ الذَّات» نظر إلى أنَّ الذَّات

صــفــاتُ الــذَّاتِ والأفــعــالِ طُــرّاً   قــديــمــاتٌ مــصــونــاتُ الــزَّوالِ

صفات ذاته كالجلالة والكبرياء والقدرة والعلم والسمع والبصر، وصفات فعله كالتَّخليق والتَّرزيق والتَّكوين كلُّ ذلك قديمة قائمة بذات الله تعالى.

وقالت الأشعريَّة[1]: صفات ذاته قديمة قائمة بذاته، وصفات فعله حادثة؛ لأنَّ التَّخليقَ حادث عندهم فصار عين المخلوق.

قلنا: إنَّ الكاتب كاتب وإن لم يكتب، وكذلك الله تعالى خالق وإن لم يخلق، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: 24] وَصَفَ ذاته بالخالقيَّة، وذاته

(١) مثلاً الحياة من صفات الذات: فلو نُفِيت الحياة يلزم الموت.
والتخليق من صفات الأفعال: فلو نفيت صفة التخليق لا يلزم أنه غير خالق. وهذا مذهب الأشاعرة.
ومذهب الماتريدية: أن صفات الذات: كل وصف وصف به ولا يجوز أن يوصف بضده.
وصفات الأفعال: كل ما يجوز أن يوصف به وبضده. ينظر شرح الفقه الأكبر للقاري: (٤٢).

(1) ينظر: تحفة المريد: (210)، شرح الخريدة البهية: (99).

غير منفكَّة عن الصِّفات، ومَن قال: «لا عين ولا غير» نظر إلى أنَّها لو كانت عيناً لكانت ذاتاً، ولو كانت غيراً لزم التَّركيب، وهو من المحالات. والله أعلم بحقيقة الحالات، والعجزُ عن دَرْك الإدراك إدراكٌ[1].

صفات الذات قديمة بالإجماع

ثمَّ صفات الذَّات[2]: الحياةُ، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسَّمع، والبصر، قديمة بالإجماع.

وأمَّا الفعليَّةُ وهي التَّكوين المعبَّرُ عنه بخَلْق الأشياء ورَزق[3] الأحياء، والإبداع والإنشاء، والإحياء والإفناء، والإنبات والإنماء وأمثال ذلك، ففي كونها قديمة نزاع: فمذهبُ أئمَّتِنا الحنفيَّة أنَّها قديمة، ومذهبُ الأشاعرة والمعتزلة أنَّها حادثة[4] وقيل: المنازعةُ في القضيَّة لفظيَّةٌ لا حقيقيَّة.

وقوله: «طُرًّا» بضمِّ الطَّاء وتشديد الرَّاء، أي: كافة، ونصبه على الحال من الضَّمير المستكن في «قديمات».

قديمة وكلامه قديم، فلو كان التَّخليق حادثاً لم يكن الله موصوفاً به في الأزل فيكون كذباً، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) ينظر: شرح العقائد النسفية: (٧٩) وما بعدها.

(٢) وهي عين صفات المعاني.

(٣) رَزق الأحياء: بفتح الراء وتسكين الزاي، والمقصود: إيصال الرِّزق إليهم.

(٤) صفات الأفعال راجعة إلى صفة واحدة وهي التكوين. ولها أسماء بحسب متعلقاتها فإن تعلقت بالرزق فترزيق وبالحياة فإحياء. . .

مذهب الأشاعرة: إن صفة التكوين معنى إضافي حادث راجع إلى القدرة والإرادة.

مذهب الماتريدية: إن التكوين صفة ثامنة، فالقدرة صفة مصححة لصدور المقدور، والإرادة صفة مرجحة لصدوره، والتكوين صفة مؤثرة. ينظر: النبراس: (٣٣٢) وما بعدها.

ومعنى «مصونات الزَّوال» أي: محفوظات من الزَّوال عن الذَّات الموصوف بها، أو من الزَّوال بمعنى الفناء والعدم، فإذا ثبت قدمه استحال عدمه، فالمعنى: أنَّ جميع صفاته صمديَّة أزليَّة أبديَّة[1].



---

(١) ينظر: تبصرة الأدلة: (١/ ٢٦٢).

جواز إطلاق لفظ «شيء» عليه تعالى

«نسمِّي» صيغة متكلِّم معلوم، لا غائب مجهول كما في بعض النُّسخ، إذ يردُّه نصبُ قوله: «وذاتاً». و«الأشياء» معرفة، ويستقيم الوزن بنقل[١] حركة الهمزة، وفي نسخة «كأشياء» منكَّرة، وفي أخرى «كشيء» وهي ليست بشيء.

نُـسـمّـي اللهَ شـيـئـاً لا كـالاشـيـا   وذاتـاً عـن جـهـاتِ الـسِّـتِّ خـالِـي

اعلم أنَّ اللهَ تعالى شيءٌ؛ لأنَّ الشيء اسمٌ لموجودٍ، والله تعالى موجود لا كالموجودات؛ لأنَّ الموجود اسمٌ مشتركٌ بين الواجب والممكن، فلا تلزم الشركةُ بين الخالق والمخلوق خلافاً لأبي علي[1].

(شيئاً لا كالأشيا) لأنَّ الأشياءَ مصنوعٌ، واللهُ تعالى صانعٌ منزَّهٌ عن ذلك، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 19] ـ أي الله شيءٌ أكبرُ ـ وقال ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: 35] ـ أي من غيرِ ربٍّ ـ وذاته منزَّه من الجهات؛ لأنَّ مَن كان بجهةٍ مِن الشيء لا بدَّ وأن يكون بينهما مسافةٌ مقدرةٌ يتصور أن يكون أزيد من ذلك أو أنقص، فلا بدَّ مِن مخصِّص لذلك القدر، ثُمَّ لا تُمدح الفوقية إذ الحارس

---

(١) النقل هو: أن يكون آخر الكلمة ساكناً غير حرف مدٍّ ولين، ويأتي بعده همزة قطع في أول الكلمة الثانية، فتنقل حركة الهمز إلى الساكن قبله ويحذف الهمز. مثال: «قد أفلح» ينظر: التبصرة في القراءات السبع للقرطبي (٩٢).

---

(1) عند الفلاسفة وجود الواجب مخالف لوجود الممكن في الحقيقة واشتراكهما في مفهوم الكون اشتراك معروضين في لازم خارجي غير مقوم، وهو في الممكن زائد على الماهية عقلاً وفي الواجب نفس الماهية بمعنى أنه لا ماهية للواجب سوى الوجود المجرد عن مقارنة الماهية بخلاف الإنسان فإنه له ماهية هو الحيوان. شرح المقاصد: (1/ 61).

نحن معشرَ أهل السُّنَّة نسمِّي الله تعالى شيئاً[١]، إلا أنَّه ليس كسائر الأشياء ذاتاً وصفة، بناءً على أنَّ الشَّيء بمعنى الموجود، فهو أولى بإطلاقه عليه؛ لأنَّه سبحانه واجب الوجود وغيرُه ممكن أو ممتنع الشُّهود[٢].

وممَّا يدلُّ على جواز إطلاقه عليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وأمَّا إذا قيل: الشَّيء مصدر شاء، فإن أريد به معنى الفاعلية وهو المريدية، فيجوز إطلاقه على الله كما سبق، وإن أريد به معنى المفعولية فلا[٣]؛ كقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزُّمَر: ٦٢].

فوق السلطان من حيث الصورة، والسلطان فوقَه من حيث القهر، وهو المراد من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18] ورفع الأيدي إلى السماء وقت الدعاء تعبدٌ، كوضع الجبهة على الأرض في السجود، والتوجه إلى الكعبة في الصلاة.

وزعمت المجسِّمة والمشبِّهة أنَّه على العرش، حجتهم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5]، وزعمت المعتزلة والقدرية أنَّه في كل مكان، حجتهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: 84].

قلنا: معنى الآية الأولى: هو الاستيلاء كقول الشاعر:

قد استوى بشرٌ على العراقِ ... من غير سيفٍ ودمٍ مهْراق

ومعنى الآية الثانية: هو ظهور آثار الألوهية فيهما، وهي أمره وحكمه؛ لأنَّ قولهم أقبح من قول المشبِّهة، لأنَّه يؤدي إلى أنَّ الله تعالى في أجواف السباع والهوام والحشرات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) يطلق الشَّيء على الموجود، وفي ذلك يقول اللَّقاني رحمه الله في الجوهرة: «وعندنا الشَّيءُ هو الموجود»، فباعتبار تميُّز الموجود في الخارج عمَّا عداه يسمَّى شيئاً، وباعتبار تحقُّقه في الخارج يسمَّى موجوداً، والشَّيئيَّةُ هي تميُّزه في الخارج عمَّا عداه، والوجودُ هو تقرُّره في الخارج بحيث يمكن رؤيته. ينظر: تحفة المريد: (٤٦١).

(٢) أي: غيره ممكن كذواتنا، أو ممتنع كشريكه. و«الشُّهود» تنازعه كلٌّ من ممكن وممتنع، تقول: غيره ممكن الشُّهود أو ممتنع الشُّهود. وسيأتي الكلام عن مفهوم التنازع.

(٣) أي بمعنى المصنوع أو المخلوق.

وفي المسألة خلاف الجهمية[1] حيث قالوا: إنَّه سبحانه لا يوصف بأنَّه شيء، ولا بكلِّ ما يشاركه المخلوق في إطلاقه.

ثمَّ قوله: «وذاتاً» أي: ونسمِّيه ذاتاً لا كسائر الذَّوات، كما أشار إليه بقوله: «عن جهات السِّتِّ خالي» لأنَّ حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق والذَّوات، كما أنَّ صفاته مخالفة لسائر الصِّفات.

والدَّليلُ على جواز إطلاق الذَّات عليه بعد الإجماع قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام: «لا تتفكَّروا في ذات الله»[2].

ثمَّ اعلم أنَّ ما ورد الشَّرع بإطلاقه على الله سبحانه: إن كان مشتركاً بينه وبين غيره وجب عند إطلاقه نفيُ المماثلة فيه كالشَّيء والذَّات، بخلاف ما لم يرد الشَّرع بإطلاقه، فلا يقال: «جسم لا كالأجسام» مثلاً، خلافاً للكرَّامية[3] في تجويزهم ذلك.

....

---

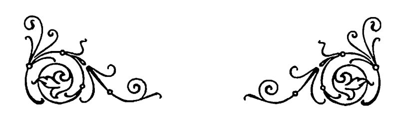
(١) الجهمية: فرقة إسلامية من غلاة المرجئة والمجبرة القائلين بالجبر والإرجاء، أتباع أبي محرز جهم بن صفوان، قالوا: بعدم الإرادة للإنسان والاختيار والاستطاعة وإنما هو مجبور على الأفعال والله هو الفاعل الحقيقي وقالوا بفناء الجنة والنار، وبأن صفات اللهِ حادثة. معجم الفرق الإسلامية: (٨٥).

(٢) (لا تتفكروا في ذات الله) (لم أجده بهذا اللفظ) مداره على ابن عباس وابن عمر، أما رواية ابن عباس موقوفة وهي «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله». وروي بلفظ «تفكروا في كل شيء ولا تتفكروا في الله»، وروي «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله»، ورواه ابن عمر مرفوعاً «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله». ينظر: فتح الباري: (١٣/ ٣٨٣)، الجامع الصغير: (٦٢٣). العظمة لأبي الشيخ: (٤)، الأسماء والصفات: (٢/ ٤٢٣). الإبانة الكبرى: (٥/ ٣٨٣)، حلية الأولياء: (٦/ ٦٧).

(٣) الكرَّامية: هم أتباع محمد بن كرام الذي دعا إلى تجسيم الذات الإلهية ووصَفَها بالثِّقل، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الانفطار: ١] أنها انفطرت من ثِقَل الرحمن عليها. تعالى الله عن ذلكِ علواً كبيراً. ينظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٠٢).

والجهاتُ السِّتُّ: فوق وتحت ويمين ويسار وأمام وخلف. وقوله: «عن جهات السِّتِّ» متعلِّق بـ «خالي»، وهو خبر مبتدأ مقدَّر، والجملة صفة «ذاتاً»[1].

وفيه ردٌّ على المعتزلة والقدرية[2] أنَّ الله في كلِّ مكان[3]، وعلى المشبِّهة[4] والكرَّاميَّة أنَّه على العرش سبحانه وتعالى وهو ربُّ العرش العظيم، أي: خالقه وحامله، فإنَّه قيُّوم العُلويَّات والسُّفليَّات.



....

(١) ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد: (١٣)، أصول الدين للغزنوي: (٦٩).

(٢) القدرية: هو لقب المعتزلة سمُّوا بذلك لنفيهم قضاء الله وقدره في معاصي العباد، وإضافة خلقها إلى فاعلها. البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان لأبي الفضل السكسكي (٢٧ و١٧٦).

(٣) قوله: «فيه رد على المعتزلة القائلين أن الله في كل مكان» لا يستقيم تماماً عند المعتزلة، إذ أنهم قالوا: «الله في كل مكان» أي أنه سبحانه وتعالى مدبر الأمر كل مكان، أو أن تدبيره موجود في كل مكان، وهو مذهب جمهورهم.
وقالت طائفة منهم: «الله لا في مكان» بل هو على ما لم يزل عليه.
وانفرد حسين النجار منهم فقال: «إنه في كل مكان على الحقيقة».
ينظر: مقالات الإسلاميين: (١٥٧).

(٤) المشبهة: وهي فرقة ضالة، سميت بذلك لأن منهم من يُشبِّه ذات الباري بذات غيره ومنهم من يشبِّه صفاته بصفات غيره. الفرق بين الفرق (٢١٤).

الاسم أهو عين المسمىٰ أم غيره

إثبات همزة «الاسم» لحن ولو ضرورة، كما صرَّحوا بهِ في قوله «كلُّ سرٍّ جاوزَ الاثنينِ شَاع»(١).

و«البصيرة» نورٌ في القلب يُدرِك به الأشياء(٢). والمراد بأهلها أهلُ السُّنَّة. و«خير» بالجرِّ صفة أو بدل، ويجوز رفعه ونصبه.

وليسَ الاسمُ غَيراً للمُسَمَّى لدى أهلِ البصيرةِ خَيْرِ آلِ[1]

اعلم أنَّ الاسم والمسمى واحد عندنا.

---

(١) شطر بيت من الرمل وهو:

كل علم ليس في القرطاس ضاع كل سر جاوز الاثنين شاع

ينظر: سر صناعة الإعراب: (١/ ٣٤١)

(٢) ذهب بعض الباحثين إلى أن قوله: «الأشياء» فيه نظر؛ لأن الإطلاق يعم الأمور المدركة بالبصر ـ وهي المحسوسات ـ والمدركة بالقلب وهي ـ المعنويات ـ فالبصيرة يدرك بها ما لا يدرك بالبصر، وعليه فقد ألزم المصنف تقييد «الأشياء» بالمعنوية.

ولا يُسلَّم هذا؛ لأن العبد لمَّا قذف الله في قلبه البصيرة فإنه يرى حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأي العين، وهذا معنى قول بعض العارفين «البصيرة ما خلصك من الحيرة إما بإيمان وإما بعيان» فأصبحت هذه الأمور بالنسبة إليه محسوسة والله أعلم. ينظر: مدارج السالكين: «١/ ١٢٣».

---

(1) واختار بعضهم تنوين «آلٍ» وقال: التنوين فيه يدل على المضاف إليه، أي آل محمد صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: ليس الاسم غير المسمَّى عند أهل السُّنَّة، بل هو عينه. كما قاله شارحوه، فلو قال: «وإنَّ الاسم عينٌ للمسمَّى» لكن أظهر وأسمى[١].

ثمَّ المسألة اختلف فيها على مذاهب:

أحدها: إنَّ الاسم عين المسمَّى والتَّسمية، وهو بعيد جداً[٢].

وثانيها: إنَّه غيرهما، وهو المنقول عن الجهميَّة والكرَّاميَّة والمعتزلة، وقال ابن جماعة: وهو الحقُّ. ولعلَّه نظر إلى ظهور الفرق في الاستعمالات اللُّغويَّة والعرفية.

وثالثها: إنَّه عينُ المسمَّى وغيرُ التَّسمية، وهو المصحَّح، ودليله قوله سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] أي: ذاته.

وقالت الجهمية والكرّامية والمعتزلة: إنَّ الاسمَ غير المسمَّى والتسمية غير المسمَّى بلا خلاف، قالوا: لو كانا واحداً لَمَا صحَّ إضافة الاسم إلى المسمى نحو اسم ربك، وقال ﷺ[1]: «إنَّ الله تعالى تسعاً وتسعين اسماً فمن أحصاها فله الجنة». والإحصاء إنَّما يكون للأسماء لا للذات، فلو كان واحداً لوجب القول بتعدد المسمَّى، ولأنَّ الناس يقولون: إنا نعبد الله، والعبادة لذاته لا لاسمه، حتى لو عَبَدَ اسمه لا ذاته يكفر، ولأنه إذا قال: سُكَّرٌ أو عَسَلٌ، لا يَجد فمُه حلاوتَهما، وكذا لو قال: نارٌ، لا يحترِق لسانُه، فعُلم أنَّ الاسم غير المسمى.

---

(١) ربما قيل: إن قوله: «فلو قال... أظهر وأسمى» ليس كذلك لأمرين:
الأول: أنه لا بد من قطع همزة: «الاسم» إذ لا يستقيم الوزن إلا كذلك.
الثاني: أن عبارة الناظم فيها إشارة إلى القولين: نفي الغيرية، وإثبات العينية بين الاسم والمسمى. أما عبارة المصنف فليس فيها إلا إثبات العينية، فكانت قاصرة. والله أعلم.
ينظر: جامع اللآلي شرح بدء الأمالي لمحمد كنعان: (٧٧).

(٢) وجه البعد: أنَّ الاسم لا يطلق على التَّسمية اتِّفاقاً.

---

(1) أخرجه البخاري كتاب الشهادات، باب من انتظر حتى يدفن، برقم: (2736). ومسلم في كتاب الدعوات، باب في أسماء الله تعالى، برقم: (6986).

ورابعها: لا عين ولا غير، قال ابن جماعة: ـ وكان عين التَّحقيق ـ سُمع من مشايخنا مَن يقول: عجبتُ من العقلاء كيف اختلفوا في هذه المسألة. قلتُ: وقد نبَّه الإمام الرَّازيُّ[1] والآمديُّ[2] على أنَّه لا يظهر في هذه المسألة ما يصلُح محلًّا لنزاع العلماء، وقد أوضح العلَّامة البيضاويُّ[3] في أوَّل تفسيره هذا المعنى، وقد سبقه حُجَّة الإسلام[4] في المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى[5].

قلنا: قال الله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مَريَم: 12] فالله خاطبه بهذا الاسم مع أنَّ الخطاب للذات لا للاسم، وقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الحِجر: 98] فالتسبيح والتنزيه إنما يكون للذات لا لاسمه، وكذا لو قال: زينب طالق، تطلق ذاتها لا اسمها، فدل أنَّ الاسم والمسمى واحد والله أعلم.

---

(١) أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين، فخرُ الدِّين الرَّازي، الشَّافعي المفسِّر المتكلِّم، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، نسبته إلى الريِّ، ولد فيها سنة (٥٤٤)، وتوفي رحمه الله سنة (٦٠٦)هـ، من كتبه: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن الكريم، المعروف بتفسير الرازي. شذرات الذهب (٥/ ٢١).

(٢) أبو الحسين، علي بن محمد بن سالم التَّغلبي، سيف الدِّين الآمدي، أصوليٌّ باحث، توفي بدمشق سنة (٦٣١)هـ، من كتبه: الإحكام في أصول الأحكام. الأعلام (٤/ ٣٣٢).

(٣) عبد الله بن عمر بن علي، ناصر الدِّين الشِّيرازي البيضاوي، قاضي القضاة، الإمام العلامة، المفسِّر الفقيه، توفي سنة (٦٨٥)هـ، من تصانيفه: أنوار التنزيل وأسرار التأويل في تفسير القرآن العظيم. انظر الأعلام (٤/ ١١٠). بغية الوعاة (٢/ ٥٠).

(٤) زين الدِّين حجَّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطُّوسي الشَّافعي، أحد الأعلام، فيلسوف متصوِّف، نسبته إلى صناعة الغزل ـ عند من يقول بتشديد الياء ـ حيث كان أبوه يغزل ويبيع، أو إلى غزالة من قرى طوس عند من قال بتخفيف الياء، توفي رحمه الله سنة (٥٠٥)هـ، له نحو مائتي مصنف، منها: المقصد الأسنى شرح الأسماء الحسنى، وإحياء علوم الدين. الأعلام (٧/ ٢٢)، شذرات الذهب (٤/ ٦٠).

(٥) قال البيضاوي: الاسم إن أريد به اللفظ فغير المسمى، وإن أريد به ذات الشيء فهو المسمى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى، وقوله: «تبارك اسم ربك» و«سبح اسم ربك» المراد به اللفظ؛ لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الأدب. تفسير البيضاوي: (١/ ٢)، المقصد الأسنى: (٣٨).

«ما» هنا نافية، وكذا «إن» وهي زائدة لتأكيد النَّفي، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦][١].

والجوهر: هو الجزء المتحيِّزُ الذي لا يتجزَّأ[٢]. والجسمُ: هو المتحيِّز المركَّب من جزأين فصاعداً، وهو يقبل القسمة[٣].

ومـــا إنْ جَـــوْهَـــرٌ رَبِّـــي وجِـــسْـــمٌ ولا كُـــلٌّ وبَـــعْـــضٌ ذو اشْـــتِـــمـــالِ

واعلم أنَّ الله ليس بجوهرٍ خلافاً للنصارى والمجوس؛ لأنَّ الجوهر محدودٌ

(١) «ما» نافية ولكنها لم تعمل عمل «ليس» لاقترانها بـ: «إن» ولعدم تقدم اسمها على خبرها والخبر هنا هو «جوهر» والمبتدأ هو «ربي» وتقدير الكلام: «وما ربي جوهو وجسم». للاستزادة ينظر: شرح ابن عقيل: (١/ ٣٠٠).

(٢) الجوهر عند الفلاسفة: كل متحيز، والمتحيِّز هو ما أخذت ذاتُه قدرها من الفراغ، والحيز: هو الفراغ الموهوم.

أما الجوهر عند المتكلمين وهو الجوهر الفرد فهو: الموجود المتحيز بالذات، غير تابع لغيره، وهو المقصود بالتعريف فخرج به الواجب وهو الرب سبحانه لانتفاء التحيز عنه لوجوب وجوده، ولأن الجوهر هنا متناه، وهو من علامات الحدوث والرب قديم.

هذا وقد عرَّف بعضهم الجوهر بالموجود الغنيِّ عن الموضع. وهو بهذا الاعتبار يصح إطلاقه على الله تعالى، لكنَّه يتوقَّف على إذن الشَّارع، ولم يرد.

(٣) وعند البعض لا بد من ثلاثة أجزاء لتحقق الأبعاد الثلاثة، «الطول ـ العرض ـ العمق» وعند البعض من ثمانية أجزاء لتحقق الأبعاد على زوايا قائمة، وهو ليس نزاعاً لفظياً بل هو نزاع في أن المعنى الذي وضع لفظ الجسم له، هل يكفي فيه التركيب من جزأين؟

احتج الأولون وهم الأشاعرة القائلون بأن الجسم ما ركب من جزئين فصاعداً بأنه يقال لأحد الجسمين إذا زيد عليه جزء واحد: إنه أجسم من الآخر، فلولا أن مجرَّد التركيب كاف في الجسمية لما صار بمجرد زيادة الجزء أزيد في الجسمية وفيه نظر؛ لأن «أفعل» من الجسامة بمعنى الضخامة وعظيم المقدار، والكلام في الجسم الذي هو اسم لا صفة.

ينظر: شرح العقائد النسفية: (٥٢)، البداية في أصول الدين: (١٩)، النبراس: (١٨٠).

والكلُّ: اسم لجملة مركَّبة من جزأين فأكثر من أجزاء محصورة[١]. والبعضُ: اسم لجزء يتركَّب الكلُّ منه ومن غيره[٢].

فأشار المصنِّف في هذا البيت إلى بعض الصِّفات السَّلبيَّة، وهو أنَّ الله ليس بجوهر، ولا جسم، ولا كلٍّ، ولا بعض مشتمل بالكلِّ ـ أي: داخل فيه ـ، إذ هو ليس بمشتمل بمكان ولا زمان ولا بشيء من المكوَّنات بحال، إذ المذكورات على واجب الوجود محال؛ لحدوثها وافتقارها إلى بارئها[٣].

والله تعالى منزه عن أنْ يحده المقدار، وهو في اللغة:[1] عبارة عن الأصل، يقال: ثوب جوهري إذا كان جيد الأصل، وفلانٌ جوهرٌ شريفٌ أي أصل عالٍ.

والفرق بين الجوهر والعَرَض: الجوهر: ما يقوم بنفسه، والعرض: ما يقوم بغيره.

وإنه[2] ليس بجسم أيضاً؛ لأنَّ الجسم هو الأجزاء المركبة، والله تعالى منزَّه عن وصف التركُّب، وكذلك لا يوصف بالكلِّ والبعض؛ لأنَّ الكلَّ اسمٌ مركبٌ مِن جوهرين فصاعداً، والبعض اسم جزءٍ من المركب، والتركُّب والتَّجزُّؤ محال على الله تعالى.

وعلى كل فلا يصح إطلاق لفظ الجسم على الله سبحانه، لأن الجسم مركب متحيز وذلك أمارة الحدوث. ينظر: شرح العقائد النسفية (٧٠).

(١) ينظر: التعريفات: (٦٠) ضوابط المعرفة: (٣٤ ـ ٣٨).

(٢) ينظر التعريفات: (١٤).

(٣) قال الصابوني في البداية: «ومن زعم أنه أطلق هذه الأسامي على الله تعالى لا لهذه المعاني، فهو باطل؛ لأن إطلاق الاسم في غير ما وضع له لا يجوز إلا بطريق المجاز، وشرطه أن يكون بين محل الحقيقة والمجاز نوع مشابهة، ولا مشابهة بين الله وبني خلقه بوجه من الوجوه، فلا يجوز إطلاق هذه الأسامي في حق الله تعالى لا حقيقة ولا مجازاً» البداية: (٢١) وينظر: النبراس: (٢٤٧).

---

(1) أي الجوهر.

(2) أي الحق تبارك وتعالى.

مطلب
في إثبات الجزء الذي لا يتجزأ

الأذهان: جمع ذهن، وهو الفِطنة، والمراد به هنا العقل. و«الحقُّ» الثابت. و«الكون» الوجود.

وقالت المشبِّهة والكرَّاميِّة: هو جسمٌ لا كالأجسام، كما يقال: شيء لا كالأشياء.

قلنا: الله تعالى منزَّه من الشبه؛ لأنَّ الجسم اسمٌ لذات الصورة مشتقٌّ من الجسامة وهي الضخامة، يقال: هذا أجسم من ذلك أي أعظم جسماً منه، وفلان جسيم أي عظيم الجثة.

وزعمت اليهود وكثير من الروافض أنَّه متركِّب متبعِّض.

قلنا: كلُّ جُزءٍ منه إما أن يكون موصوفاً بصفات الكمال، فيكون كلُّ جزء حياً قادراً سميعاً بصيراً، فيكون كلُّ جزء إلهاً، فيكون القول بآلهة كثيرة، ويقع بين الأجزاء تمانع، فيفسد القول بها كما يفسد بإلهين. وإما أن يكون غير موصوف بصفات الكمال فيكون موصوفاً بأضدادها وذلك من أمارات الحدوث وهو محال.

وفــي الأذهــانِ حــقٌّ كــونُ جــزءٍ بـلا وصـفِ الـتـجـزّي يـا ابـنَ خـالـي

اعلم أنَّ الجزء الذي لا يتجزأ وجوده وتصوره حقٌّ عند عامَّة العقلاء.

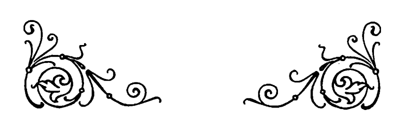
وقالت الدهريَّة والثنويَّة والنظاميَّة من المعتزلة: لا تصور له، بل كلُّ جزءٍ قابل للتجزئة إلى ما لا يتناهى، وأما الهواء فإنه ليس بجوهر ولا عَرَض، بل هو جسمٌ لطيفٌ، وقالت المعتزلة: هو مكان الأجسام، وقالت الأشعريَّة: إنَّه ريحٌ ساكن.

قلنا: هو ليس بريح؛ لأنَّ الريح تُحرك الهوى حتى يُسمعَ صوتٌ مِن هبوبها، وهي جسمٌ لطيفٌ أيضاً عندنا.

واعلم أنَّ هذا البيت في بعض المتون الصَّحيحة موجود هنا، وفي بعضها متأخِّر عن هذا المحلِّ، ومضمونُه مستفاد من سابقه.

والحاصل أنَّ المتكلِّمين من أهل السُّنَّة ذهبوا إلى إثبات وجود الجزء الذي لا يتجزَّأ في الخارج، وإن لم يُرَ عادةً إلَّا بانضمامه إلى غيره، وعبَّروا عنه بالنُّقطة، وقالوا: إنَّها شيءٌ ذو وَضْع غير منقسم، فإن كانت مشتملةً بذاتها فهي الجزء، وإلَّا كان محلُّها غيرَ منقسم، وإلَّا لزم انقسامُ الحالِّ بانقسامه فيلزم الجزء. وذهب الفلاسفة وبعض المعتزلة إلى امتناع وجود الجزء الذي لا يتجزَّأ.

وهذا من جملة الفوائد وليس من ضروريات العقائد(١).



وأما الكلام عن الروح فقد نهى عنه بعض المتقدمين، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85] الآية ومَن قال: إن الروح أمر الله [لا](1) يكفر؛ لأنَّ الروح مِن أمر الله وليس عين الروح [من](2) أمر الله، فالأمر صفة الله وصفته ليس بمخلوق، ثم الأرواح ستَّةٌ: نفسانيٌّ وهو حواسٌّ خمس: وهي تخرج إذا نام، وحيوانيٌّ: وهو إذا خرج مات، ثُمَّ اختلف أهل السنة والجماعة في أرواح الحيوانات، قال بعضهم: ليس لهم أرواح لكن لهم حياةٌ وحسٌّ تُميِّزُ بها الضَّارَّ والنَّافع، وقال بعضهم: لهم أرواح لا كأرواح بني آدم. فهذا هو المختار والله تعالى أعلم.

---

(١) للتوسع في ذلك ينظر: شرح العقائد النسفية: (٥٣ ـ ٥٤)، النبراس: (١٨٥).

---

(1) سقط من (ب).

(2) سقط من(ب).

القول في القرآن الكريم

«ما» هنا بمعنى ليس. و«القرآن» يطلَق ويراد به القراءة(١)، ويراد به المُصحف، ويراد به المقروء، وهو المراد هنا، فإنَّه: الكلام النَّفسيُّ القائم بذاته سبحانه(٢). و«كلامُ الرَّبِّ» فاعل «تعالى» أي: تعظَّم وتقدَّس كلامُ الحقِّ عن أن يكون من جنس مقول الخلق، وهو الحروف والأصوات التي هي مخلوقة، فيكون مخلوقاً.

وما القرآنُ مخلوقاً، تعالى كلامُ الرَّبّ عن جنسِ المقالِ

اعلم أنَّ القرآن كلام الله تعالى المُنزَّل على الرسول صلى الله عليه وسلم، المَكتوب في المصاحف، المقروّء بالألسنة، المحفوظ في الصدور غيرُ حالٍّ فيها. والحروف المنطوقة عباراتٌ دالةٌ على كلامه، وكذلك المكتوب والمقروّء والمحفوظ دالٌّ على كلامه، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين.

صفته أزليٌّ وكلامه أزليٌّ، ومن قال: كلامه مخلوق فقد كفر، ومن قال: إنَّ العبارات والأصوات والحروف الدّالة عليه مخلوقة لا يكفر.

---

(١) ينظر: لسان العرب: (١/١٢٨) مادة: «قرأ».

(٢) توهم بعضهم عبارة المؤلف: «ويراد به المقروء، وهو المراد هنا، فإنه الكلام النفسي...». وقال: «فيه نظر، لأن القرآن إذا أطلق وأريد به المقروء، فهو مخلوق...» والحق أن مراد المؤلف بـ: «المقروء» إنما هو الكلام النفسي، وعبر عن ذلك بتتمة كلامه، ويؤيد ذلك ما جاء في تحفة المريد في شرح «ونزه القرآن أي كلامه».

قال الشارح: «أي كلامه» تفسير للقرآن، فالمراد منه هنا كلامه تعالى، ولما كان الأكثر إطلاق القرآن على اللفظ المقروء، دفع توهم ذلك بتفسيره بكلامه تعالى، فالقرآن يطلق على كل من النفسي واللفظي، والأكثر إطلاقه على اللفظي. تحفة المريد: (٢٢٤).

ومراد الشارح هنا الكلام النفسي إذ صرح هو بذلك.

وفي الكلام إشارة إلى أنَّه يقال: «كلام الله غير مخلوق» ولا يقال: «القرآن غير مخلوق» لئلا يسبق إلى الفهم أنَّ المؤلَّف من الأصوات والحروف قديم، كما نقل عن بعض الحنابلة[١].

واتَّفق المسلمون على إطلاق لفظ المتكلِّم على الله، لكنَّهم اختلفوا في معناه:

وقالت المعتزلة: إنَّ القرآن مخلوق وعَنَوا به الحروف المنظومة والأصوات، وقالوا: هي كلام الله تعالى حالٌّ فيها.

وقال أهل السنة والجماعة: القراءة بالعربية قرآن، وبالسريانية إنجيل، وبالعبرانية توراة، وبالقبطية زبور، وكلٌّ ذلك دالٌّ على كلامه غيرُ حالٍّ فيها، يعني أنه يُتلى باللغات المختلفة مع أنَّ كلَّها واحدٌ،[1] كما يسمى بالعربية (الله تعالى)، وبالفارسية (خُدا).

وقالت الأشعريَّة والكرامية: ما في المصحف ليس عبارةٌ عن كلامه وإنما هو حكايةٌ عنه،[2] وعن هذا جوّزوا إحراق المصحف، وعندنا لا يجوز ومن جوّز إحراقه فقد كفر[3].

---

(١) كما قال بعض الحنابلة: كلام الله تعالى حروف وأصوات تقوم بذاته وبالغوا حتى قال بعضهم: الجلد والغلاف قديمان. وهو باطل ضرورة. ينظر: المسامرة: (١/ ٨٤ وما بعدها).

---

(1) المراد أن كلام الله النفسي لا يوصف بأنه مُتبَعِّض ولا متجزِّئ، ولا يُوصف أنه عربي أو عبري، وإنما العربي والعبري هو اللفظ الدالُّ عليه. ينظر المسامرة: (144).

(2) مذهب الأشاعرة: أن كلام الله يطلق على الكلام النفسي وعلى الكلام اللفظي. الموجود بين دفتي المصحف. وإطلاق كلام الله على النفسي واللفظي: قيل: بالاشتراك، وقيل: حقيقي في النفسي، مجاز في اللفظي. ومن أنكر أنَّ ما بين دفتي المصحف كلام الله فقد كفر، إلا أن يريد أنه ليس هو الصفة القائمة بذاته تعالى. ينظر تحفة المريد: (178).

(3) المراد به: المستهزئ المهين له، وأما المصحف البالي فقد جوَّز العلماء إحراقه؛ صيانة له وإكراماً، وقد أمر سيدنا عثمان بحرق كلِّ صحيفة أو مصحف بعد نسخ المصاحف. ينظر: صحيح البخاري: (4987)، مرقاة المفاتيح: (7/ 104).

ـ فذهب أهلُ الحقِّ[1] إلى أنَّ كلامه تعالى معنى قائم بذاته، ليس بحرف ولا صوت[2].

ـ وذهب الباقون إلى أنَّه متكلِّم بالحروف والأصوات. ثمَّ اختلف هؤلاء؛ فذهب الحنابلة منهم ـ على ما نقل عنهم ـ إلى أنَّها قديمة قائمة بذاته تعالى. وذهب المعتزلة إلى أنَّها حادثة قائمة بغير ذاته[3]. وذهب الكرَّاميَّة إلى أنَّها حادثة قائمة بذات الله تعالى.

ودليلُ أهل الحقِّ: أنَّ الحرف والصَّوت مخلوقان، وكلام الله غيرُ مخلوق؛ لامتناع قيام الحوادث بذاته تعالى، إذ هو من أمارات الحدوث. نعم القرآن مقروء بألسنتنا، محفوظ في صدورنا، مكتوب في مصاحفنا، كما نقول: الله مذكور بألسنتنا، معبود في مساجدنا، مسجود له في محاريبنا، غيرَ حالٍّ فينا ولا فيها. قال العزُّ بن جماعة: رُوِّينا بالسَّند عن الرَّبيع عن أحمد أنَّ رجلاً سأله، أصلِّي خلف من يشرب الخمر؟ فقال: لا، فقال: أصلِّي خلف من يقول: إنَّ القرآن مخلوق؟ فقال: سبحان الله! أنهاك عن مسلم، وتسألني عن كافر[4].

. . . .

---

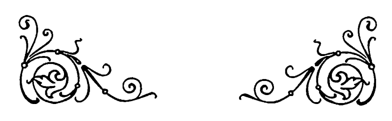
(١) أراد بهم الأشاعرة والماتريدية.

(٢) ينظر: المسائل الخلافية بين الأشاعرة والماتريدية: (١٣٠ وما بعدها) منهج الأشاعرة في العقيدة (١٦٠ وما بعدها) النبراس: (٣٠٤ وما بعدها)، الاعتقاد للبيهقي: (٤٤ وما بعدها).

(٣) لأنه تعالى لا يكون محلاً للحوادث، وذلك لأنهم رأوا أن الكلام اللفظي لا يتحقق إلا بحروف وكلمات وألفاظ مترتبة موقوف وجود المتأخر منها على انقضاء المتقدم، وهذا من صفات المحدثات، فمن أجل ذلك قالوا بحدوثه.

و«الغير» إما اللوح المحفوظ أو جبريل عليه السلام أو شجرة سيدنا موسى عليه السلام أو لسان النبي ﷺ. ينظر: منهج الأشاعرة في العقيدة: (١٦٣).

(٤) قال: أبو عذبة رحمة الله في الروضة البهية: «اعلم أن وصف القرآن بأنه مخلوق أو غير مخلوق مسألة غير مأمونة العاقبة على الخائضين فيها، وقد صارت فتنة لقوم وسبباً لوقوع التشاجر والتنافر والتكفير والتبديع لأقوام صالحين». (الروضة البهية) المسائل الخلافية: (١٣٠).
=



. . . .

= ولذا لن ندخل في تفصيل وترجيح الآراء بقدر ما سأعمل على تلخيص المسألة وعرضها، فأقول ـ وبالله التوفيق ـ: ذهب عبد الله بن سعيد ابن كلَّاب وهو المشهور من مذهب الإمام الأشعري إلى أن كلام الله تعالى معنى قائم بذاته، وهو الكلام المعنوي النفسي وهو ليس بحرف ولا صوت؛ وهو معنى واحد غير منقسم إلى الخبر والأمر والنهي في الأزل وإنما ينقسم إلى هذه الأقسام فيما لا يزال.

وذهبوا أيضاً إلى إثبات الكلام اللفظي لله تعالى على وجه الحقيقة لا المجاز، ولكنهم اختلفوا في قدمه وحدوثه، فذهب جمهور الأشاعرة والمعتزلة عامة إلى حدوثه وإلى أنه غير قائم بالله تعالى؛ لأنه تعالى لا يكون محلاً للمحدثات بل هو قائم بغيره تعالى.

ومع ذلك قالوا: لا يجوز التصريح بذلك إلا في مقام التعليم، لئلا يسبق الوهم إلى حدوث الكلام المعنوي النفسي القديم القائم به تعالى.

ـ وذهب بعض الأشاعرة ـ ومنهم الإمام عبد الكريم الشهرستاني والإيجي والتفتازاني ـ إلى قدم الكلام اللفظي وقيامه بالله تعالى.

وذهب الحنابلة إلى أن كلام الله تعالى مؤلف من حروف وأصوات مترتبة وأنها قائمة بذاته تعالى.

ـ والفرق بين مذهب الشهرستاني ومذهب الحنابلة، أن الشهرستاني ومن معه يقولون بقدم الكلام وقيامه بذاته تعالى بمعنى اللفظ النفسي وهو يكون دون صوت. ينظر: منهج الأشاعرة في العقيدة: (١٦٤). المحصل: (٤٠٣) وما بعدها.

الله غني عن الجهة

«ربُّ العرش» أي: خالقه ومالكه، والإضافةُ للتَّشريف كربِّ البيت وربِّ جبريل، وهو أعظمُ المخلوقات ومحيطٌ بالموجودات، وقد قال سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

ومذهبُ الخلف جوازُ تأويل الاستواء بالاستيلاء[1]، ومختارُ السَّلف عدم التَّأويل، بل اعتقادُ التَّنزيل مع وصف التَّنزيه له سبحانه عمَّا يوجب التَّشبيه، وتفويضُ

وربُّ العرشِ فوقَ العرشِ لكنْ بلا وصفِ التَمَكُّنِ واتّصالِ [1]

واعلم أنَّ الله تعالى على العرش استوى أي استولى كما مرَّ.

(١) وفي قوله: «جواز» رد على من أنكر على الأشاعرة إذ هم لم يحصروا معنى الاستواء بالاستيلاء وإنما قالوا: يجوز تأويل الاستواء بالاستيلاء، ولا يعني هذا أن الله لم يكن مستولياً بل هو كان ولا يزال مستولياً، كيف وهو المالك سبحانه. إذاً فلا مشاحة في ذلك.

وأجمل ما يُقرأ هنا ما ورد في المسامرة من قوله: «أجيب عن آية الاستواء بأنا نؤمن بأنه تعالى استوى على العرش مع الحكم بأنه ليس كاستواء الأجسام على الأجسام من التمكن والمماسة والمحاذاة لها... بل نؤمن بأن الاستواء ثابت له تعالى، بمعنى يليق به، هو سبحانه أعلم به كما جرى عليه السلف... وحاصله وجوب الإيمان بأنه تعالى استوى العرش مع نفي التشبيه، فأما كون المراد أن الاستواء الاستيلاء كما جرى عليه بعض الخلف واقتصر عليه حجة الإسلام فأمر جائز الإرادة، يجوز أن يكون مراد الآية ولا يتعين كونه المراد». (المسامرة: ٩٦).

(1) التمكن: اتخاذ المكان وحرف التعريف فيه بدل عن المضاف إليه وسقط عن الاتصال للضرورة، والمعنى أنه سبحانه وتعالى فوق العرش بالقهر والاستيلاء بلا وصف تمكنه بالعرش أي بلا وصف اتخاذ العرش مكاناً وبلا وصف اتصاله. (هامش ب).

الأمر إلى الله وعلمه في المراد به، كما قال الإمام مالك: «الاستواء معلوم، والكيفُ مجهول، والسُّؤالُ عنه بدعة، والإيمان واجبٌ»[1] واختاره إمامنا الأعظم[2]. وكذا كلُّ ما ورد من الآيات والأحاديث المتشابهات، من ذكر اليد والعين والوجه ونحوها من الصِّفات. ومنه لفظ «فوق» في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] فلا يؤوِّلونَه بالعظمة والرِّفعة، كما قال به الخلف.

ولمَّا عبَّر النَّاظم بالفوقيَّة وغيَّرَ العبارة القرآنية لضرورة النَّظم، استدركه بقوله: «لكن بلا وصف التَّمكُّن واتِّصال» أي: بلا وصف الاستقرار، ولا نعت الاتِّصال؛ لأنَّ كلاهما في حقِّ الله من المحال.

وقالت الكرامية والمشبهة والشيعة: هو على العرش مُمَكَّنٌ والعرش له مقعد، يتمسكون بظاهر الآية. قلنا: العرش لم يكن مكاناً بتكوينه بل خلَقه لإظهار عظمَته وجبروته على خَلقه، ولا حاجة له إليه؛ لأنه منزَّه عن الاحتياج، والمراد من الاستيلاء في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5] القهر والولاية؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18] فظهر أنَّ المراد من الآية علوّ عظمته لا علوَّ مكانه.

---

(١) المروي عن الإمام مالك رضي الله عنه، عن ابن وهب أنه قال: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله «الرحمن على العرش استوى» كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرمضاء، وقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ كيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة أخرجوه.

وروي أيضاً عن يحيى بن يحيى ولفظه: «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة». وبذلك يحصل أن قوله: «والكيف مجهول» لا يصح؛ لأن فيه إثبات كيفية ولكنها مجهولة، وهذا مما يخالف معتقد أهل السنة كافة لإجماعهم على نفي الكيف مطلقاً مجهولاً كان أو معلوماً.

(٢) وهو أبو حنيفة النعمان: قال: «وله يَدٌ ووَجْهٌ ونَفْسٌ كما ذكره الله في القرآن، فما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنَّفس، فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال: إنَّ يده قدرته أو نعمته؛ لأنَّ فيه إبطال الصِّفة، وهو قول أهل القَدَر والاعتزال، ولكن اليد صفة بلا كيف». الفقه الأكبر: (٦٦).

وفيه رَدٌّ على الكرَّاميَّة والمُجسِّمة في إثبات الجهة، فإنَّ الكرَّاميَّة يثبتون جهة العلوِّ من غير استقرارٍ على العرش. والمجسِّمةَ ـ وهم الحشويَّة ـ يصرِّحون بالاستقرار على العرش بظاهر الآية، ولا حجَّة فيها؛ لأنَّ الاستواء له معانٍ، كالاستيلاء ومنه قول الشاعر:

قَدِ استوى بِشْرٌ على العراقِ مِنْ غيرِ سيفٍ ودَمٍ مهرَاقِ

وكالتَّمام والكمال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القَصَص: ١٤]، وكالاستقرار ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هُود: ٤٤] فلا استدلال مع تعدُّد الاحتمال(١).

فإن قيل: فما الفائدة حينئذ في نزول المتشابهات؟ أجيب: بأنَّ فائدته إظهارُ عجز الخلق وقُصورِ فهمهم عن كلام ربِّهم، وتعبُّدهم بإيمانهم، فيقول الرَّاسخون في العلم منهم: آمنَّا به كلٌّ من عند ربِّنا، فالتَّفويضُ إلى الله، والاعتقادُ بحقيقة مراد الله من غير أن يعرف مراده، من كمال العبوديَّة في العبد، ولهذا اختاره السَّلفُ، والتَّعرُّضُ إلى تفسير المتشابهات وتأويلها، كما اختاره الخَلَف غيرَ جازمين بأنَّه مراده سبحانه، عبادةٌ في العبد، إلا أنَّ العبوديَّة أقوى من العبادة؛ لأنَّ العبوديَّة هي: الرِّضا بما يفعل الرَّبُّ، والعبادة: هي فعل ما يَرضَى به الرَّبُّ، والرِّضا فوق العمل، حتَّى كان تركُ الرِّضا كفراً، وتركُ العمل فسقاً، ولذلك تسقط العبادة في الآخرة، والعبوديَّةُ لا تسقط في الدَّارين، وبهذا تبيَّن أنَّ مذهب السَّلف أسلم وأعلم، ومذهب الخلف أحكم(٢).

....

(١) ينظر: قواعد العقائد: (١٦١)، المسامرة: (٩٧).

(٢) وربما كان مراده من أن مذهب السلف أسلم وأعلم، إذ أنهم فوضوا الأمر لله سبحانه وتعالى مع تنزيهه عن كل ما لا يليق به، وأن مذهب الخلف أحكم إذ أنهم حرصوا على عدم ميل العامة إلى تصور الجسمية لقصور أفهامهم ومداركهم، فلزم لهم التأويل مع عدم الجزم بأنه المراد.

تنزيه الله عن التعطيل والتشبيه

«ما» نافية بمعنى ليس، وخبرها «وجهاً». و«الصَّون» الحفظ، و«الأهالي» جمع أهل، والمراد بهم أهل السُّنَّة والجماعة، أي: ليس التَّشبيهُ له سبحانه طريقاً مستحسناً، فاحفظ عن ذلك الاعتقاد الفاسد أهلَ العلم الذين لا يروج عندهم الأمر الكاسد، وكن بوَصْف التَّنزيه بين التَّعطيل والتَّشبيه، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورىٰ: ١١] فإنَّ الجملة الأولى تردُّ على المشبِّهة في الذَّات(١)، والجملة الثانية تردُّ على المعطِّلة(٢) النَّافية للصِّفات(٣).

وما التشبيهُ(1) للرَّحمنِ وجهاً فَصُنْ عن ذاكَ أصنافَ الأهالي

واعلم أنَّ الله تعالى لا يُشبِهُهُ شيءٌ مِن المخلوقات بوَجْهٍ من الوجوه، لا تشبه ذاتُه ذاتَهم، ولا صفاتُه صفاتهم، كما لا يُشبِه النّجارُ ذلك البابَ والكَوَّازُ الكُوزَ(2)، لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 4] وذاتُه منزَّه عن تماثل

(١) وهم المجسمة القائلون بأنه الله جسم؛ لأن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورىٰ: ١١] يدل على تنزيه الله عن مماثلة الحوادث.

(٢) المعطلة: فرقة من الجهمية قالوا: إن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق ومن ادعى أن الله عز وجل يُرى فهو كافر، وسميت المعطلة بهذا الاسم لقولهم بنفي الصفات عن الباري. معجم الفرق الإسلامية: (٢٢٩).

(٣) أي: قوله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورىٰ: ١١] يردُّ على المعطِّلة النَّافين لجميع الصِّفات.

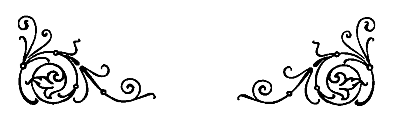
(1) حرف التعريف في التشبيه بدل عن المضاف إليه، ولكن الوجه في موضع النفي، لينفي جميع وجوه التشبيه. (هامش ب)

(2) الكُوز: فارسي معرب، وعاء يشرب به الماء له عروة، فإن لم يكن له عروة فهو الكوب. ينظر: العين: 5/ 417 مادة كوب، المغرب: مادة كوب.

وذكر ابن جماعة أنَّ «الرَّحمن» اسم مختصٌّ بالله، لا يُستعمل في غيره، ثمَّ قال: فإن قلت: قد أطلق في قول بني حنيفة على مسيلمة[(١)] «رحمان اليمامة»، وقول شاعرهم:

وأنت غيثُ الورى لا زِلتَ رحمانا

قلت: المختصُّ المعرَّفُ بالألف واللام دونَ غيره، وأمَّا جواب الزَّمخشريِّ[(٢)] بأنَّه من باب تعنُّتهم فغيرُ مستقيم[(٣)].



الأجسام خلافاً للمشبِّهة ؛لأنَّ الجسم مؤلفٌ مِن الجوهر، وإذا بطل كونه جوهراً بطل كونه جسماً، وكذا منزَّه عن العَرَض؛ لأنَّ العَرَض لا قيام له بذاته بل هو مفتقر إلى جسم، والافتقار على الله تعالى محال.

وهو يرضى ويغضبُ للبرايا   هما لكن بلا تغيير حال

واعلم أنَّ الله تعالى يرضى ويغضب لعباده، لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة: 119] وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ [الفتح: 6] إلا أنَّهما

---

(١) أبو ثمامة، مسيلمة بن ثمامة بن كبير، الحنفي الوائلي، متنبئ، من المعمرِّين، الملقَّب بـ «مسيلمة الكذَّاب»، وفي الأمثال: أكذب من مسيلمة. ادَّعى النُّبوَّة في عهد النَّبيِّ ﷺ، أكثر من وضع أسجاع يضاهي بها القرآن، توفي عليه الصلاة والسلام قبل القضاء على فتنته، ولما آلت الخلافة إلى أبي بكر أرسل له جيشاً على رأسه سيدنا خالد بن الوليد، وانتهت معركة اليمامة بانتصار المسلمين ومقتل الكذَّاب سنة (١٢). ينظر: الأعلام (٧/ ٢٦٦)، شذرات الذهب: (١/ ٢٣).

(٢) أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، من أئمَّة العلم والأدب، جاور مكة زمناً. كان معتزلياً طيلة عمره، وفي آخر حياته يروى أنه رجع عن اعتزاله، توفي رحمه الله سنة (٥٣٨)هـ، له كتب كثيرة من أشهرها: الكشاف في تفسير القرآن الكريم. ينظر: بغية الوعاة: (٢/ ٢٧٩)، وفيات الأعيان: (٥/ ١٦٨).

(٣) ينظر: الكشاف: (١/ ٣).

. . . .

لا يُغيّران الله تعالى؛ لأنَّ التغيِّر حَدَثٌ، وقيام الحدث بذات الله تعالى محال، بخلاف ما إذا دخلا في العبد غُيِّر عليه الحال؛ لأنهما من صفاته وهو بجميع صفاته مخلوق، ومن قال: غضبه النار ورضاه الجنة فقد تشطَّط وتجاهل؛ لأنهما مخلوقتان والمخلوق لا يكون صفة الخالق، وأما قوله عليه السلام[1] «غضبه عقوبته ورضاه ثوابه» فعلى تأويل أن النار تُستوجب بغضب الله تعالى والجنة تُستوجب برضاء الله.

---

(1) لم أعثر عليه.

لا يجري على الله تعالى زمان

«الدَّيَّان» المجازي، مأخوذ من الدِّين بمعنى الجزاء، ومنه قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وحديث: «كما تَدِين تُدان»(١)، وهو من أسمائه سبحانه، كما رواه البخاري(٢) في باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

ولا يَمضي على الدَّيَّانِ وقتٌ وأحوالٌ وأزمانٌ بحالِ

اعلم أنَّ الله تعالى خالق الأوقات ورازق الأقوات ولا يمضي عليه وقت ولا زمان؛ لأنَّه خَلَقَ الأوقات والأزمان لخلائقه، فمُضيُّ الأوقات يُنقِص عمرهم وعبور

---

(١) الحديث أخرجه معمر بن راشد في الجامع (١١/ ١٧٨)، وهو بتمامه: عن أبي قلابة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البِرُّ لا يَبلى، والإثمُ لا يُنسى، والدَّيَّان لا يموت، فكن كما شئتَ، كما تَدِين تُدان».

وأخرجه البيهقي في الزهد: (٢/ ٢٧٧) بر قم: (٧١٠) عن أبي قلابة باللَّفظ المتقدِّم، إلا أنَّه قال: «والدَّيَّان لا ينام».

وأخرجه ابن عاصم في السُّنَّة: (١/ ٣٠٥) برقم: (٦٩٦) عن أنس بن مالك عن رسول ﷺ من خطاب الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام ضمن حديث طويل. قال ابن حجر في فتح الباري (١٧/ ٤٥٨): ووقع مرسل أبي قلابة «البرُّ لا يبلى، والإثم لا ينسى...» ورجاله ثقات، أخرجه البيهقي في الزهد. وقال في كشف الخفاء: (١/ ٣٣٦) برقم: (٩٠٢): أخرجه أبو نعيم وابن عدي والديلمي عن ابن عمر. وعبد الرزاق في الزهد عن أبي قلابة مرسلاً، وأحمد عن أبي الدرداء موقوفاً. ينظر كشف الخفاء: (٢/ ١٦٥) برقم: (١٩٩٦).

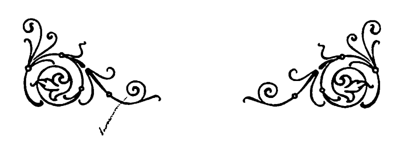
(٢) والحديث هو عن عبد الله بن أنيس قال سمعت النبي ﷺ يقول: «يَحْشُر الله العباد، فيناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُدَ كما يسمعه مَن قَرُب؛ أنا الملك، أنا الدَّيَّان». صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له: (٦/ ٢٧١).

والوقتُ والزَّمانُ بمعنى واحد، ولعلَّه أراد بالوقت الوقتَ المعيَّن، وبالأزمان الأزمنة المختلفة. والحال صفةٌ غير راسخة[1]. والمعنى: لا يجري عليه سبحانه ولا يقارنه وقتٌ بحيث لا يمكن انفكاكه عنه، فإنَّه تعالى منزَّه عن أن يمضي عليه وقت وحالٌ؛ لأنَّ الزَّمان والمكان والحال والشَّأن مخلوقة لله، فتمضي على المخلوقين لا على خالقهم؛ لئلا يلزم قَبول الحوادث والتَّغيُّر، فإنَّ كلاً منها من أمارات الحدوث، وقد ثبت قدمه سبحانه.

وقوله: «بحال» أي: في حال من أحوال الإنسان وغيره من ذوي الأحوال، لئلا يلزم التَّناقض في كلام النَّاظم في هذا المقام[2]. وقال ابن جماعة: ليس سبحانه بزمان؛ لئلا يلزم أن يكون حالَّاً في الحوادث.

والحاصل أنَّه سبحانه وتعالى خلق الأمكنة والأزمنة والأحوال المختلفة، وكان الله ولم يكن معه شيء، فالآن على ما كان[3].

ولو جعل هذا البيت بعد قوله: «وذاتا عن جهات السِّتِّ خالي» لكان أنسب في الجمع بين نفي الزَّمان والمكان. هذا وفي المواقف: إنَّ الرَّبَّ تعالى لو كان في جهة ومكان، لزم قِدَم المكان، وقد برهنَّا أنْ لا قديم سوى الله تعالى، وعليه الاتِّفاق[4].



الأزمان يُفرِّق شملهم ومرور الأحوال يُغيِّر حالهم، والله تعالى موصوف بالبقاء منزَّه عن التَّغيُّر والفناء، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] الآية.

(١) أي: غير ثابتة، بمعنى أنَّها تمرُّ وتنقضي.

(٢) أي: بين قوله «أحوال» وقوله: «بحال».

(٣) ينظر: النبراس: (٢٥٨).

(٤) ينظر: المواقف: (٣/ ٣٠).

غنى الله تعالى عن الزوجة والأولاد

أراد بالنِّساء الزَّوجات ونحوها من المملوكات. وقوله: «إناث» بالجرِّ بدل من «أولاد» بدل البعض من الكلِّ(١)، والمراد به التَّفصيل على قصد التَّكميل، وإلا فالولد يشمل الذَّكر والأنثى لغة وشرعاً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجنّ: ٣] يعني: الزَّوجة وما يتولَّد منها، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وفيه تنبيه على أنَّه أَحَديُّ الذَّات وأَحَديُّ الصِّفات، مُستغنٍ عن الكائنات، ومرجعُهم في قضاء الحاجات، لم يحدث عن شيء، ولم يحدث عنه شيء، والمعنى: ليس بحادث وبمحلٍّ حادث، فليس له والد ولا والدة ولا ولد، ولا شبيه له من ولد ولا من صاحبة ولا من غيرهما(٢).

وفي البيت ردٌّ على النَّصارى في زعمهم الزَّوجيَّة في مريم، والإبنيَّة في عيسى، وعلى كفَّار مكَّة في قولهم: «الملائكة بنات الله»، وقد قال سبحانه وتعالى على

ومـسـتـغـنٍ إلـهـي عـن نـسـاءٍ   وأولادٍ إنـــاثٍ أو رجـــالِ

(١) وهو من أنواع البدل، وهو أن يكون الثاني بعضاً من الأول، نحو: قضيت الدين ثلثه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فـ ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ بدل من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وهو بدل بعض من كل، لأن المستطيع بعض الناس لا كلهم، ولا بد في هذا النوع من ضمير يعود على المبدل منه.
ينظر: شرح شذور الذهب: (٥٦٩) شرح الأشموني على الألفية: (١/٢٢٨).

(٢) ينظر: أصول الدين للغزنوي: (٨٩).

الأوَّليـن: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] إلى أن قال: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] أي: يحتاجان إلى أكلهما، بل يفتقران إلى خروج فضلاتهما، فيبولان ويتغوَّطان، فكيف يصلحان للألوهيَّة. وقال الله تعالى في الآخرين: ﴿وَجَعَلُواْ الْمَلَٰٓئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ الرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] الآيات.

ولا بدَّ من تقدير مضاف في البيت ليستقيم معنى الكلام، أي: ومستغنٍ إلهي عن اتِّخاذ نساء، إذ لا يلزم من الاستغناء عن الشَّيء التَّنزُّه عنه، فلو قال: «وقل ربِّي المنزَّه عن نساء» لكان أحسن بناء.

الله
غني عن المعين والنصير

«العَوْن» هنا بمعنى الإعانة، و«النَّصر» هنا بمعنى النُّصرة، أو الإعانة عطف عليه، يقال: «تفرَّد بالأمر» إذا قام به من غير مشارِك له فيه.

والمعنى: إنَّ الله تعالى كما هو منزَّهٌ عن النِّساء والأولاد، منزَّهٌ عن المُعين والنَّاصر من العباد في البلاء، فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين، وقد قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسرَاء: ١١١]. قال العزُّ ابن جماعة: وهذا البيت مَسُوق للرَّدِّ على النَّصارى والوثنيَّة والثنوية. انتهى، والمرادُ بالوثنيَّة عبدةُ الأوثان، وبالثنوية المجوس القائلون بإلهين اثنين، وقال الله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النّحل: ٥١].

وأطلق التَّفرُّد ليشمل مع التَّفرُّد عمَّا ذكر التَّفرُّدَ بالأحديَّة التي هي صفة ذاتيَّة، وبالوحدانيَّة التي هي صفة فعليَّة، كما أشار إليهما بالوصفين، وهما ذو الجلال وذو المعالي، كما قال الله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمـٰن: ٧٨] أي: ذي العظمة والهيبة والإنعام والرَّحمة، فهو سبحانه موصوف بنعوت الكمال الشَّاملة لأوصاف الجلال والجمال.

كـــذا عـــن كـــلِّ ذي عَـــوْنٍ ونَـــصْـــرٍ تـفـرَّد ذو الـجَـلالِ وذو الـمـعـالـي

واعلم أنَّ الله تعالى منزَّه عن النساء والأولاد، ومن قال: هو محتاج إلى النساء والأولاد كان من النصارى والملاحدة، وأنَّه منزَّه عن النُّصرة، ومن قال: إنَّه محتاج إلى النُّصرة كان من الفلاسفة، لقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجنّ: 3] وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمرَان: 97] تفرّد بالأحديَّة وتوحَّد بالوحدانية، الأحدية صفة ذاته والوحدانية صفة فعله.

الله سبحانه
هو المحيي والمميت

نصب «قهراً» على التَّمييز، أي: يميت المخلوقات من جهة الجلاليَّة، ثمَّ يُحييهم بتجلِّي الجماليَّة. فسبحان من قهر العباد بالموت، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٦] و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: ٨٨] إلَّا ما استثناه كالحور العين وغيرهنَّ عند بعض أهل السُّنَّة، كأبي حنيفة ومن تبعه.

وفي بعض النُّسخ «طُرّاً» بدل «قهراً» فهو حَال، أي: جميعاً عند النَّفخة الأولى، ثمَّ يحييهم جميعاً عند النَّفخة الثانية، وما بينهما أربعون يوماً(١)، يقول الله سبحانه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غَافر: ١٦] ويجيب ذاته بذاته: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غَافر: ١٦].

يـمـيـتُ الـخـلـقَ قـهـراً ثـم يُـحـيـي فـيـجـزيـهـم عـلـى وَفْـقِ الـخِـصـالِ

(١) لحديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنب فيه يركب الخلق. أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب: سورة الزمر: (٤/ ١٨١٣).

قال الإمام ابن حجر: أخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن الصلت عن الأعمش في هذا الإسناد «أربعون سنة» وهو شاذ، ومن وجه ضعيف عن ابن عباس قال: «ما بين النفخة والنفخة أربعون سنة»، وكأن أبا هريرة لم يسمعها إلا مجملة فلهذا قال لمن عينها له: «أبيت» ينظر: فتح الباري: (٨/ ٥٥٢).

وعليه فلا دليل على التعيين.

وقوع
البعث والحشر والنشر

وفي البيت دلالة على البعث للحشر والنَّشر والجزاء بالأعمال على حسب الأفعال؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨] فلأهل الجَنَّة درجات، ولأهل النَّار دركات.

ولا أجل لمقتول سواه وفيه بث موتاً ذو الجلال

واعلم أنَّ الله تعالى يُميت الخلق كلَّهم، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185] ويُسلط عليهم بقبض الأرواح ملك الموت، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: 11] الآية خلافاً للجهميِّ، ولكلِّ أحدٍ أجل واحد، فالمقتول ميت بأجله ليس له أجل آخر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145] ولقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: 34] الآية.

والقتل: فعلٌ قائمٌ بالقاتل، وانزِهَاق الروح مخلوق الله تعالى في الميت، وأما وجوب القصاص والدِّية فباعتبار كونه مرتكب المنهي خلافاً للمعتزلة.

ثُمَّ يحيي الله تعالى هذه النفوس بعد أن صاروا تراباً، ويَبعثهم بقدرته، ويَجمعهم في الحشر، ويوقِفَهم في خمسين موقِفَاً كلُّ موقفٍ ألف سنة، لقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4] وكلُّ ذلك حقٌّ، لقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: 55] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: 59] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: 7] إلى غير ذلك من الآيات، والله تعالى يُحيي المؤمن للثوب والحساب وأداءِ الحقوق حتى مَن خرج من الدنيا ولم يرضَ منه خَصمُه، أعطى الله أجره وطاعته له على قدر خصومتِه، وكان ذلك من الله تعالى عدلاً لا جَوراً، ومن رآه جَوراً صار كافراً، ويُحيي الكافرين للعذاب ولا حساب لهم، أي لا يوقِفهم بين يديه ولا يُكلِّمهم ولا يَنظر

والمراد من الخلق هنا الحيوانات[1]، لا الجمادات والنَّبات، فإنَّ الله يبعث من في القبور وأجواف الوحوش وحواصل الطُّيور، بأن يجمع أجزاءهم الأصليَّة بعد إعادة ما فنيَ منها بالكلِّيَّة بعينها، ويجمع أجزاءها ويعيد الأرواح إليها بالنَّفخة الثانية وهذا هو البعث والنّشر. ثمَّ يسوقهم إلى الموقف[2]، وهذا هو الحشر، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]. وقال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدَة: ١٧] وعن ابن عباس: إنَّ النَّاس مجزيُّون بأعمالهم، إنْ خيراً فخير وإن شرَّاً فشرٌّ. فالجزاءُ عامٌّ لكلِّ مكافأة، فإنَّه يستعمل تارة في معنى المعاقبة، وأُخرى في معنى الإثابة. و«يَجزي» بفتح الياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الإنسَان: ١٢][3].

إليهم؛ لأنَّه إذا نظر إلى شيءٍ رحمه ولا رحمة لهم أبداً، ويُدخلهم في النار بلا حساب كما يدخل الشهداء الجنة بلا حساب.

وأما في حشر الدواب والبهائم والوحوش فقد قال بعض أهل الأهواء: لا تحشر؛ لأنه لا فائدة في حشرهم، لا ثواب لهم ولا عقاب، وقالت المعتزلة: تُحشر للبقاء.

وقال أهل السنة: تحشر للفناء ثُمَ تُجعل تراباً، فحينئذٍ يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التّكوير: 5] ولقوله عليه

---

(١) ـ فذهب أهل السُّنَّة والجماعة إلى أن سائر الحيوانات والوحوش والدواب ومن لم يرد من جنسه التكليف بعد الحشر يُسألون عن الله تعالى فَيَقُرُّنَّ به، ثمَّ يجعلون تراباً.

ـ وذهب المعتزلة إلى أنهَّم يحشرون للبقاء، كما يحشر من كان أهلاً للتكليف. ينظر أصول الدين للبزدوي المسألة: (٤٣).

(٢) هي أرض المحشر التي يجمع الناس فيها وتكون بيضاء نقية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ولم يعص الله فيها قط. وفي تحديدها وتسميتها أقوال ليس هذا محلها.

(٣) ينظر: لسان العرب: (١٤/١٤٥) مادة: جزي.

وذهب بعض الكرَّاميَّة إلى إثبات الإعادة بمعنى جَمْع ما تفرَّق من الأعضاء والأجزاء، لا بمعنى إعادة ما عُدم من الأشياء، ونقله العلامة ابن جماعة عن بعض أهل السُّنَّة[١].

وأنكر الفلاسفة حشر الأجساد مطلقاً، وزعموا أنَّ الحشر إنَّما يكون للأرواح دونَ الأشباح[٢]، وهو باطل بالنُّصوص القرآنية[٣] وبالقواطع الفرقانيَّة[٤] وبيانِ الأحاديث النَّبويَّة[٥]، وأنكر كثير من المعتزلة حشر من لا خطاب عليهم، وهو

السلام[1]: «يَحشر الله تعالى يوم القيامة البهائم والطيور والدواب والوحوش وكلَّ شيء حتى تنتقم الجمَّاء من القَرنَاء[2]، ثُمَّ يقول: كونوا تراباً، فتصير تراباً». ثُمَّ إنَّ القيامة لا تُسمى شيئاً عندنا؛ لأنها غير مخلوقة الآن.

---

(١) الذي عليه السلف أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل تراباً، ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى، فإنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ولحماً ثم خلقاً سوياً، فكذلك يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح. ينظر: الهادي في أصول الدين: (٢٢٩)، النبراس: (٤٥٢ وما بعدها).

(٢) فزعم هؤلاء أن النفس الناطقة تفنى بالموت لأنها المزاج المعتدل أو الدم الصالح أو الأخلاط المعتدلة أو البخار اللطيف الناشئ من القلب فليس عندهم حشر ولا ثواب ولا عقاب. ينظر: النبراس: (٤٥٤).

(٣) كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

(٤) ومن أدل الأدلة على ذلك أن الحشر إن لم يكن للأرواح والأجساد معاً ولم تكن الأجساد ذاتها التي كانت في الدنيا، لم يعد لمعنى الحشر والنشر والجزاء أيُّ معنى أو فائدة، ولأصبح موضوع الأوامر والنواهي والتشريعات لغواً، فمن أقر أن الله سبحانه وتعالى هو الحي القيوم، والقادر القاهر لزمه القول بحشر الأجساد ذاتها مع أرواحها كما كانت في الدنيا. والله أعلم.

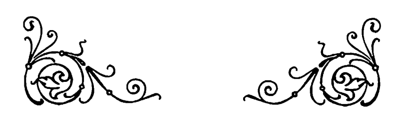
(٥) الأحاديث النَّبويَّة في هذا الفصل كثيرة:

---

(1) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي رقم: (3231) و(2/ 345)

(2) الجمَّاء: التي لاقرن لها. النهاية: (1/ 814) مادة: جمم.

مردود بما ورد من أنَّ الله يحيي الحيوانات للاقتصاص إظهاراً لكمال العدل، فَيُقتصُّ للشَّاة الجمَّاء من القَرْناء، ثمَّ يقول لهنَّ: كنَّ تراباً، فيصرن تراباً، وحينئذ يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً.



وقالت المعتزلة: إنها مخلوقة إلا أنَّها لا تظهر للأحياء، فإذا مات الإنسان تَظهر، واحتجوا بقوله عليه السلام[1]: «مَن مات فقد قامت قيامته».

قلنا معناه: سعادته أو شقاوته أو مِن سعة القبر وضيقه، وكونه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران، ولأنها لو كانت مخلوقة لكانت ظاهرة أهوالها والأمر بخلافه.

= منها: ما رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب الحشر برقم: (٦٥٢٧)، ومسلم في صحيحه كتاب الجنَّة وصفة نعيمها باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة برقم: (٢٨٥٩)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النَّبيُّ ﷺ: «يحشر النَّاس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرلاً» قلت: يا رسول الله النِّساء والرِّجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشة الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

ومنها: ما أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة باب: الصدقة باليمين برقم: (١٣٥٧)، ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة برقم: (١٠٣١)، عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «سبعة يُظلُّهم الله تعالى في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه.....» الحديث.

---

(1) أخرجه الديلمي: برقم: (1117) (1/ 85) وهو ضعيف. ينظر تذكرة الموضوعات: (215).

الثواب بفضل الله والعقاب بعدله

هذا البيان لتفصيل الأحوال ممَّا سبق من قوله: «فيجزيهم على وَفْقِ الخِصال» على طريق الإجمال. و«نُعمى» بضم النُّون والقصر لغة في النِّعمة بالكسر. و«الإدراك» بالكسر اللُّحوق والاتِّصال. و«النَّكال» بفتح النُّون العقوبة والوبال، وفي نسخة «أدراك» بفتح الهمزة، فهو جمع «دَرَك» بفتحتين أو بفتح وسكون، فيكون طبقة من طبقات النَّار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النِّسَاء: ١٤٥] والمعنى: للأبرار جنَّات ودرجات من النِّعمة والقربة بمقتضى فضله، وللكفَّار طبقات ودَرَكات من الحرقة والفرقة بموجب عدله، ولا يجب على الله تعالى شيء من إثابة المطيع وعقوبة العاصي، خلافاً للمعتزلة[١].

لأهـلِ الـخيـرِ جـنـاتٌ ونُـعـمـى ولـلـكـفـارِ أدراكُ الـنِّـكـالِ

دخـولُ الـنـاسِ فـي الـجـنّـاتِ فـضـلٌ مـن الـرَّحـمـنِ يـا أهـل الأمـالـي

واعلم أنَّ الله تعالى خَلَقَ الجنة للمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 133] وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الحَجّ: 14]

(١) والدليل على أن الله تعالى لا يجب عليه شيء أن حقيقة الواجب ما يستوجب اللوم بتركه، والرب سبحانه يتعالى عن التعرض لذلك.

والذي يوضح ذلك أن طاعات المكلفين تجب عند المعتزلة شكراً لله تعالى على ما أولاه من آلائه فإن كانت الطاعة واجبة من المنعم، يستحيل أن يستحق مؤدي الواجب ثواباً، ولو جاز أن يستحق العبد على أداء الواجب عوضاً لجاز أن يستحق الرب على الثواب شكراً، وإن كان مستحقاً. ينظر: المواقف: (٣/ ٥٠٣)، مقالات الإسلاميين: (٢٧٠ وما بعدها). لمع الأدلة: (١٢٢).

ثمَّ مذهب أهل الحقِّ أنَّ الجنَّة والنَّار مخلوقتان الآن، خلافاً للمعتزلة ومن تبعهم من أهل البدعة، قال الله تعالى في الجنَّة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣]، وفي النَّار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] (١) وفي بعض نسخ المتون هنا بيت زائد وهو قوله:

وفي هذا دلائلٌ كثيرةٌ، ثُمَّ درجات أهل الجنة تكون على التفاوت بقدر حسناتهم، فيُخلَّدون فيها ولا يخرجون أبداً، لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النِّسَاء: 57] فبعضهم يدخلون بعملهم، وبعضهم بشفاعة الشافعين، وبعضهم برحمة الله، بل لا يدخل أحدٌ في الجنة إلا برحمة الله تعالى وتقدَّس؛ لأنه لو قُوبِلت جميع طاعاته بنعمته[1] لَمَا قوبل بشعرة بَصَرِه، فأين النعماء الباطنة والآلاء الظاهرة؟ فثبتَ أنَّ العبد لا يقدر على أداءِ شكرها، فلم يدخل فيها إلا برحمته تعالى.

واعلم أنَّ الله تعالى خلق النار للكافرين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزَاب: 64-65] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النِّسَاء: 145].

ثُمَّ أطفال المؤمنين في الجنة، وهم شفعاء لآبائهم وأمهاتهم وأقربائهم؛ لقوله عليه السلام[2]: «إنّ السِّقط ليقع مُحبَنطِئاً[3] على باب الجنة، يقول: لا أدخل الجنة إلا مع أبويّ».

واختلف الأخيار في أطفال الكفّار:

قال بعضهم: هم من أهل الجنة؛ لقوله عليه السلام[4]: «رُفِع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يَنتَبِه، وعن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم»، ولقوله

---

(١) ينظر: الإنصاف للباقلاني: (١٥ وما بعدها)، الإبانة: (٢٠).

---

(1) أي بالنِّعم التي أعطاه الله إياها.

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط: برقم: (5746)، (6/ 44) قال الهيثمي: فيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. مجمع الزوائد: (1/ 440)

(3) المحبنطئ: الممتَنِع امتناع طَلِبَة لا امتناع إباء. النهاية: (1/ 875) مادة: حبنط

(4) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً، برقم: (4403)

ولا يَفْنَى الجَحِيمُ ولا الجِنَانُ ... ولا أهـلُـوهُـمـا أهـلُ انْـتِـقـالِ

ولا يـفـنـى الـجـحـيـم ولا الـجـنـان ... ولا أهـلـوهـمـا أهـل انـتـقـال

بيان أن الجنة والنار دارا إقامة على التأبيد

الجنان ـ بكسر الجيم ـ جمع الجنَّة، والمعنى: أنَّ الجنَّة والنَّار وأهلهما يبقون بوصف التَّخليد والتَّأبيد، كما نطق به الكتاب والسُّنَّة(١)، خلافاً للجهميَّة ومن تبعهم

عليه السلام(1): «أطفال المشركين خُدَّام أهل الجنة»، ولقوله عليه السلام(2): «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسَانِه»، ولقوله عليه السلام(3): «فطر الله العباد على معرفتِه فاحتالتهم الشياطين عنها».

---

(١) قال الله تعالى في سورة هود/١٠٦ ـ ١٠٨/: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هـود: ١٠٦-١٠٨]. وغيرها من آيات القرآن الكريم.

ومن السُّنَّة ما أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار برقم: (٦٥٤٨)، ومسلم في صحيحه كتاب الجنة باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء برقم: (٢٨٥٠) عن ابن عمر رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا صار أهل الجنَّة في الجنَّة، وأهلُ النَّار في النَّار، جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنَّة والنَّار، ثمَّ يذبح، ثمَّ ينادى: يا أهل الجنَّة خلود بلا موت، ويا أهل النَّار خلود بلا موت، فيزداد أهل الجنَّة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النَّار حزناً إلى حزنهم».

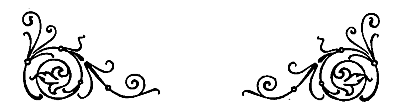
---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط: برقم:(5355)، (5/ 294)، والبزار: برقم:(2170)، (3/ 31). قال الهيثمي: فيه عباد بن منصور وثقه يحيى القطان وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد: (7/ 219)

(2) أخرجه البخاري كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين برقم: (1385)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة برقم:(6926).

(3) معنى جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، برقم:(2856).

من أهل البدعة، حيث يقولون بفنائهما وفناء أهلهما(١).



وقال بعضهم: هم من أهل النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نُوح: 27] لأنَّ حكمهم في الدنيا كحكم آبائهم وأمهاتهم، حتى يقبرون في مقابر الكفار ولا يصلَّى عليهم ولا يغسلون، ولذا قال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: كلُّ ما اختلفت الروايات فيه فالسكوت فيه أولى.

ولا يفنى الجحيمُ ولا الجنان ولا أهلوهما أهلُ انتقالِ

واعلم أنَّ الجنة والنار لا تفنيان وأهلُهما أيضاً لا يفنون، لقوله تعالى في حق الفريقين: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النِّسَاء: 57].

وقالت النَّجَّاريَّة والجهميَّة والمعتزلة: إنهما تفنيان ويموت أهلُهما، وقالوا: القول ببقائهما وبقاء أهلهما يؤدي إلى الشرك، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: 88].

قلنا: قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التِّين: 6] أي غيرُ مقطوع، وقوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقِعَة: 33].

وقوله (هالك): في الدنيا قبل دخولهم الجنة والنار. والله أعلم.

---

(١) وللاستزادة في ذلك وشفاء القلب ينظر كتاب: رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، وشرح المقاصد: (٢/ ٢١٨).

جواز رؤية الله سبحانه يوم القيامة

الضَّميرُ البارز في «يراه» يرجع إلى الله سبحانه الدَّال عليه لفظ «مستغن إلهي»، أي: يراه المؤمنون الأبرار، دون الكفَّار فإنَّهم عن ربِّهم يومئذ لمحجوبون، رؤيةً بغير كيفيَّة ولا إدراك إحاطة، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣][١]، ولا بنوعٍ من مثال صورةٍ وهيئةٍ قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيَامَة: ٢٢-٢٣]، وقال عليه السلام: «ستروِن ربَّكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون»[٢] وفي رواية «لا تضارون»، والمعنى: لا تشكُّون في رؤيته كما لا تشكُّون في رؤية القمر حال البدر. وقال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟

يـراهُ الـمـؤمـنـونَ بـغـيـرِ كـيـفٍ وإدراكٍ وضـــربٍ مـــنْ مـــثـــالِ

(١) البصر: لغة: العين ونفاذ في القلب، وقيل: البصر. حس العين. والجمع: أبصار، والبصر من القلب نظره وخاطره، وبَصُر به: أي علم، ومنه قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [طه: ٩٦] وعليه: فلا يصح تخصيص الأبصار هنا بالرؤية دون دليل مرجح، وأما تفسير الآية ففيها أقوال:

لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة.

المراد بقوله: «لا تدركه الأبصار» أي: العقول.

المراد بالإدراك الإحاطة، ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المواقيت، باب: فضل صلاة العصر، برقم: (٥٥٤) عن جرير قال: كنَّا عند النَّبيِّ ﷺ، فنظر إلى القمر ليلةً ـ يعني البدر ـ فقال: «إنَّكم سترون ربَّكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشَّمس وقبلَ غروبها فافعلوا، ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]».

=

﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يُونس: ٢٦] وفسَّرَ النبيُّ ﷺ الحسنى بالجَنَّة والزِّيادةَ بالرُّؤية[1]، رزقنا الله هذه النِّعمة.

وفي حديث ابن عمر عند الترمذي وغيره في أهل الجنَّة: «وأكرمُهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدوةً وعشيًّا»[2]. قيل: وتحصل الرُّؤية بأن ينكشف انكشافاً تامَّاً منزَّهاً عن المقابلة والمكان والجهة والصُّورة.

ثمَّ وقوع الرُّؤية لمؤمني هذه الأمَّة بإجماع أهل السُّنَّة، وفي الأمم السَّابقة احتمالان لابن أبي جمرة[3]، وقال: الأظهر مساواتهم لهذه الأمَّة في الرُّؤية. وفي

....

= ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام: «تضامون»: قال النوويُّ رحمه الله تعالى: بتشديد الميم وتخفيفها، فمن شدَّدها فتح التاء، ومن خفَّفها ضمَّ التَّاء. ومعنى المشدَّد: هل تتضامون وتتلطَّفون في التَّوصُّل إلى رؤيته؟. ومعنى المخفَّف: هل يلحقكم ضيم؟، وهو المشقة والتعب.

ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية: (١/ ١٦٣) برقم: (٢٩٩).

(١) عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهَنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنَّة وتنجِّنا من النَّار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ» ثم قال: حدثنا يزيد بن هارون عن حمَّاد بن سلمة بهذا الإسناد وزاد «ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾» [يُونس: ٢٦]. أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربَّهم برقم: (١٨١).

(٢) والحديث بتمامه عن ابن عمر قال: قال رسول ﷺ: «إنَّ أدنى أهل الجنَّة منزلة لَمَن ينظر إلى جِنانِه و أزواجه ونعيمه وخدمه وسرُرِه مسيرةَ ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوةً وعشيَّةً، ثمَّ قرأ رسول ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ...﴾ [القِيَامَة: ٢٢] وأخرجه أحمد: (٢/ ٦٤) برقم: (٥٣١٧). الترمذي في صفة الجنة، باب: (١٧) برقم: (٢٥٥٣).

(٣) عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة، أبو محمد الأندلسي المالكي، من علماء الحديث، توفي بمصر سنة (٦٩٥)هـ، من تصانيفه: جمع النِّهاية اختصر به صحيح البخاري. الأعلام: (٤/ ٨٩).

آكام المرجان[1]، نقلاً عن القواعد الصُّغرى لابن عبد السَّلام[2] ما يقتضي أنَّ الرُّؤية خاصَّة بالبشر، وأنَّ الملائكة والجِنَّ لا يرونه، وبسط الكلام في ذلك، ومن أراد فليرجع هنالك. وفي شرح شرح جمع الجوامع[3] لابن جماعة نحوُه.

والمنقولُ عن الإبانة في أصول الدِّيانة لإمام أهل السُّنَّة والجماعة الشَّيخ أبي الحسن الأشعري: أنَّ الملائكة يرونه، وتابعه على ذلك البيهقي في كتاب الرُّؤية له، وممَّن قال بذلك من المتأخِّرين الحافظ العلامة ابن القيِّم[4]، ثمَّ الجلال البُلقيني[5]، كما نقله عنهما شيخنا الحافظ الجلال السُّيوطي[6]، ثمَّ قال: وهو الأرجح بلا شك

....

(١) «آكام المرجان في أحكام الجانّ» تصنيف القاضي بدر الدين محمد بن عبد الله الشِّبلي الحنفي، المتوفى سنة (٧٦٩). رتَّبه المصنِّف على مائة وأربعين باباً في أخبار الجِنِّ وأحوالهم. كشف الظنون: (١/ ١٤١).

(٢) أبو محمد عزُّ الدِّين شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القسم، الإمام العلَّامة، وحيد عصره، بائع الملوك وسلطان العلماء، الدمشقي ثمَّ المصري الشافعي، برع في الفقه والأصول والعربية حتى بلغ رتبة الاجتهاد، من كتبه: القواعد الصغرى ـ التي ذكرها الشارح ـ في فروع الشَّافعيَّة توفي رحمه الله بمصر سنة (٦٦٠هـ). اهـ شذارات الذهب: (٥/ ٣٠١)، الأعلام: (٤/ ٢١).

(٣) جمع الجوامع كتاب في أصول الفقه، تأليف الإمام الحجة تاج الدين عبد الوهاب بن عليٍّ السبكي الشافعي، المتوفى سنة (٧٧١). كشف الظنون: (١/ ٥٩٥).

(٤) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي الدمشقي، تتلمذ للشيخ ابن تيمية نعته ابن العماد فقال: الفقيه الحنبلي، بل المجتهد المطلق، المفسِّر النحوي، الأصولي المتكلم، الشهير بابن قيم الجوزية اهـ، كان حسن الخلق محبوباً عند الناس، من تصانيفه: إعلام الموقعين. توفي رحمه الله سنة (٧٥١هـ)، اهـ الأعلام: (٦/ ٥٦) شذرات الذهب: (٦/ ١٦٨). ينظر كلام ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح: (٢٧١) وما قبلها وما بعدها.

(٥) أبو الفضل، جلال الدِّين عبد الرحمن بن عمر بن رسلان القاهري الشافعي البُلقيني، مفسِّر محدِّث، نحوي، فقيه، أصولي، واعظ أديب. من كتبه: نكت على الحاوي الصغير للقزويني في فروع الفقه الشافعي. توفي رحمه الله سنة (٨٢٤)هـ، معجم المؤلفين: (٥/ ١٦٠).

(٦) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السُّيوطي، إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو (٦٠٠) مصنف، اعتزل الناس لمَّا بلغ الأربعين من العمر فألف أكثر كتبه. كان الأغنياء =

انتهى، ومقتضى ما نقله عن البُلقيني الميلُ إلى حصول الرُّؤية لمؤمني الجِنِّ أيضاً، ثمَّ قال: في النِّساء أقوال حكاها ابن كثير[1] في أواخر تاريخه:

الأول: أنَّهنَّ لا يرين؛ لأنَّهنَّ مقصورات في الخيام، ولا يخفى ضعفه.

الثاني: أنَّهنَّ يَرَين، أخذاً من عمومات النُّصوص الواردة في الرُّؤية، وهو الظَّاهر بلا مرية.

الثالث: أنَّهنَّ يرين في مثل أيَّام الأعياد في الدُّنيا، عند تجلِّيه لأهل الجنَّة تجلِّياً عامَّاً في الأيَّام المذكورة، كما في حديث رواه الدارقطني في كتاب الرؤية.

ثمَّ مذهب أهل السُّنَّة أنَّه يَرى ويُرى في الدَّار الآخرة.

ومذهب أبي الهذيل العلَّاف[2]: أنَّه تعالى لا يَرى ولا يُرى، ويردُّه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ومذهبُ المعتزلة أنَّه يَرى ولا يُرى، وقد سبق ما يردُّه. وذكر عن ابن جماعة أنَّه قال: قال بعض أشياخي: أفحشُ ما للمعتزلة مسألتان، هذه وقِدَم العالم. قلت: في نسبة الثانية إليهم تساهل. أقول: ولعلَّ وجه الأفحشيَّة أنَّ المعتزليَّ ولو دخل الجنة يكون محروماً من الرُّؤية[3].

....

= والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردّها، توفي رحمه الله سنة (٩١١) هـ، من كتبه: الإتقان في علوم القرآن. الأعلام: (٣/ ٣٠١) شذرات الذهب: (٨/ ٥١)

(١) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي. محدِّث، مؤرخ، مفسِّر فقيه. تتلمذ على الشيخ ابن تيمية، من كتبه: البداية والنهاية في التاريخ. توفي سنة (٧٧٤) ودفن بمقبرة الصوفية عند ابن تيمية. معجم المؤلفين (٢/ ٢٨٣).

(٢) أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله العلاف البصري، شيخ المعتزلة، روى عن غياث بن إبراهيم وسليمان بن مريم، وروى عنه عيسى بن محمد الكاتب وأبو يعقوب الشحام، كف بصره في آخر عمره وتوفي بسامراء سنة (٢٣٥هـ). ينظر: وفيات الأعيان: (٤/ ٢٦٥)، لسان الميزان: (٥/ ٤١٣)، الوافي بالوفيات: (٢/ ١٤٨).

(٣) ومما يؤيد ذلك قول الناظم في البيت التالي «فيا خسران أهل الاعتزال».

وقالت النجَّاريَّة: الرُّؤيةُ حقٌّ، ولكن بالقلب. وقالت الكرَّامية: يُرى الله في الآخرة جسماً، تعالى الله عن ذلك.

بإشباع هاء الضَّمير للوزن. والمنادى محذوف[(١)]، ونصب «خسران» بفعل مقدَّر تقديره: فيا قومِ احذروا خسرانَ المعتزلة في ربح تحقيق هذه المسألة، كقول الشَّاطبيِّ[(٢)] رحمه الله: «فيا ضيعة الأعمار تمشي سبهللا»، وكما في التَّنزيل على قراءة الكسائي[(٣)]: ﴿ألا يا اسجدوا﴾ بتخفيف اللام على أنَّه للتَّنبيه، و«اسجدوا» صيغة أمر، والمنادى محذوف، أي: يا قوم[(٤)]، وأمَّا قول الشَّارح المقدسي[(٥)]: إنَّ

فـيـنـسـونَ الـنـعـيـمَ إذا رأَوهُ فـيـا خـسـرانَ أهـلِ الاعـتـزالِ

واعلم أنَّ رؤية الله لأهل الجنة حقٌّ.

وقالت الكراميَّة: إنَّ الله يُرى جسماً في الشاهد، وقالت الخوارج والزيديِّة من الروافض والمعتزلة: الرؤية مستحيل عليه، وقالت النَّجَّاريَّة: الرؤية حقٌّ بالقلب فحسب.

---

(١) وتقدير الكلام: «فيا قوم».

(٢) أبو محمد القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي، إمام القرَّاء، كان ضريراً، عالم بالحديث والتفسير واللُّغة والقراءات، له: «حرز الأماني في القراءات»، المشهورة بالشاطبية، و«عقيلة أتراب القصائد» وقد سارت الركبان بهما. توفي رحمه الله سنة (٥٩٠) هـ. الأعلام: (٥/ ١٨٠)، معرفة القراء الكبار: (٦١٢).

(٣) أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله، المعروف بالكسائي ثمَّ البغدادي أحد أئمة النحو، وأحد القرَّاء العشرة قرأ على حمزة الزيات. من تصانيفه «كتاب القراءات» و«قصص الأنبياء». توفي سنة (١٨٩)هـ، ينظر: شذرات الذهب (١/ ٣٢١)، معرفة القراء الكبار: (١٥٠).

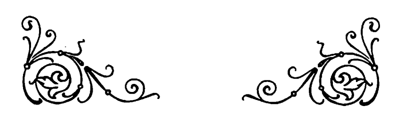
(٤) المستنير في القراءات العشر: (٢/ ٣٤٠).

(٥) محمد بن أبي اللطف محمد بن علي الحصكفي المقدسي، من كتبه: عقد اللآلي لبدء الأمالي، توفي سنة (٩٢٨هـ). شذرات الذهب: (١/ ١٦١).

قوله: «خسران» مبتدأ، سوَّغ الابتداءَ به كونُه موصوفاً تقديره: خسران عظيم، فغيرُ مستقيم عند ذي فهم قويم.

وأشار المصنِّف إلى أنَّ سائر أنواع النَّعيم في جنب لقاء الله الكريم، كخردلة بالنِّسبة إلى الكنز العظيم، وقد روى هشام بن حسَّان عن الحسن أنَّه قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ليتجلَّى لأهل الـجَنَّة، فإذا رأوه نسوا نعيم الجنَّة.

وفي البيت إشارة إلى حرمان المعتزلة عن نعمة الرُّؤية ولو دخلوا الجنة، وذلك بسبب إنكارهم جزاءً وفاقاً؛ لإصرارهم وللحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي»[(١)] وذلك هو الخسران المبين.



وقال أهل السنة: المؤمنون يَرون ربَّهم بعين الرأس لا بعين القلب بلا شَبَه ولا كيفية ولا إدراك ولا إحاطة، ولا على مكان، ولا في مكان، ولا في جهة من جهات السِّت كما عرِفته في الدنيا؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ إذا كان في الجهة يُعلم في الجهة، وإن كان لا في الجهة يُعلم لا في الجهة، فكذلك الرؤية، ولأنَّ صحة الرؤية للموجود، والله تعالى موجودٌ فثبت رؤيته، قال النبي عليه السلام[(1)]: «إنَّكم ستَرون ربَّكم كما تَرون القمر ليلة البدر» وقال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: 22-23] وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: 110] إلى غير ذلك من الآيات.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: «ويحذركم الله نفسه» (٦/ ٢٦٩٤) برقم: (٦٩٧٠). ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: الحث على ذكر الله تعالى: (٤/ ٢٠٦١) برقم: (٢٦٧٥).

(1) أخرجه البخاري كتاب الصلاة، باب صلاة العصر، برقم: (554). ومسلم في كتاب الصلاة، باب فضل صلاة الفجر والعصر، برقم: (1466).

القول بالصلاح والأصلح

«ما» نافية وكذا «إن» وجمع بينهما تأكيداً[1]. ووزن البيت بنقل حركة همزة «اصلح» إلى ما قبله من تنوين «فعلٌ» المرفوع على أنَّه اسم «ما»، و«أصلح» صفتُه. وقوله: «ذا افتراض» بالنَّصب خبرُها على اللُّغة الفصحى، كقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يُوسُف: ٣١]، وقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجَادلة: ٢]، وفي أكثر النُّسخ: «ذو افتراض» بالرَّفع، فيحمل على اللُّغة الأخرى[2].

ومـا إن فـعـل أصـلـح ذو افـتـراضٍ   عـلـى الـهـادي الـمـقدَّسِ ذي الـتـعـالـي

واعلم أنَّ الفعل الأصلح ليس بواجب على الله تعالى للعباد؛ لأنه مالك الملك، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء.

---

(١) ولم تعمل «ما» عمل ليس لاقترانها بـ «إن» وقد تقدم الحديث عنها.

وقول الشارح: «وكذا إن» كأنه قال إنَّ «إنْ» نافية أيضاً، ولا يقال هذا لأن نفي النفي إثبات، بل يقال: «إنْ» زائدة لتأكيد النفي.

(٢) الحق أنَّ «ما» هنا نافية غير عاملة عمل ليس لاقترانها بـ: «إن» الزائدة لتأكيد النفي، و«فعلُ» مبتدأ مرفوع بالضمة، وهو مضاف فلا ينون، و«أصلحَ» مضاف إليه مجرور بالفتحة عوضاً عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف على وزن «أفعل» و«ذو» خبر لمبتدأ مرفوع.

وأما قول الشارح: «ذا افتراض» بالنصب خبرها على اللغة الفصحى ليس دقيقاً لأن الأصل في «ما» ألا تعمل كما في لغة تميم، وأما الحجازيون فإنهم أعملوها مع عدم الاختصاص.

ولما كان قياس إعمالها ضعيفاً انعزلت لأدنى عارض، فمن ذلك مجيء «إن» بعدها، وإنما عزلتها، لأنها وإن كانت زائدة، لكنها تشابه «إن» لفظاً وللفصل بينها وبين معمولها بغير الظرف. شرح الرضي على الكافية: (٢/ ١٨٥).

والحاصل: أنَّ مذهب أهل السُّنَّة أنَّ الأصلح للعبد ليس بواجب على الله تعالى. وجمهورُ المعتزلة على أنَّه واجب[1]، وذهب بعضهم إلى وجوب رعاية المصلحة لا وجوب الأصلح ورُدَّ كلامهم:

أوَّلاً: بأنَّ الأولوهيَّة تنافي الوجوب المختصَّ بالعبوديَّة، ولا يسئل عمَّا يفعل.

وثانياً: بأنَّ الأصلح بحسب الظَّاهر أن يهدي الخلق جميعاً، وقد قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [النحل: ٩٣] مع قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩] فما أراد باختلاف العباد إلا إظهار عَدْله، وإيثارَ فضله، وأيضاً قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨] مع أنَّ الإملاء لزيادة الإثم ليس بصلاح عند العقلاء[2]. فلله الحُجَّةُ البالغة، والحِكَمُ السَّابقة.

وقالت المعتزلة: الأصلح واجب على الله تعالى، حتى لو لم يفعل يصير ظالماً وجائراً.

---

(١) وكذا الصلاح، ومذهبهم ينبني على قاعدتين:
الأولى: وجوب الصَّلاح، والمرادُ به: ما قابل الفساد، كالإيمان في مقابلة الكفر، فيقولون: إذا كان هناك أمران: أحدهما صلاح، والآخر فساد، وجب على الله أن يفعل الصَّلاح منهما دون الفساد.
الثانية: وجوب الأصلح، والمراد به: ما قابل الصَّلاح، ككونه في أعلى الجِنان في مقابلة كونه في أسفلها، فيقولون: إذا كان هناك أمران: أحدهما صلاح والآخر أصلح منه، وجب على الله أن يفعل الأصلح منهما، دون الصَّلاح. ولمزيد تفصيل وبيان ينظر أصول الدين للبزدوي المسألة: (٣٣)، وتحفة المريد: (٢٥٥) وما بعدها.

(٢) فإن قيل: وكيف يملي لهم كي يزدادوا إثماً وضلالة وقد نهاهم عن يسير ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ [الحجرات: ١٢] وعليه فقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨] فإنما أراد سبحانه لأن لا يزدادوا إثماً فطرح «لا» وهو يريدها فخرج لفظ الكلام إخباراً، ومعناه معنى نفي، والعرب تطرحها وهي تريدها، وتثبتها وهي لا تريدها، قال تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ﴾ [الحديد: ٢٩] فقال: ﴿لِّئَلَّا﴾ فأثبت «لا» وهو لا يريدها، فخرج لفظ الكلام لفظ إيجاب ومعناه معنى نفي.

=

وفي تخصيص ذكر الهادي[1] إيماءٌ إلى أنَّه لو كان وجودُ الأصلح أو المصلحة واجباً عليه سبحانه، لما كان له مِنَّة على العباد في هدايتهم إلى طريق المراد، النَّافع لهم في المبدأ والمعاد، فقد قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحُجرات: ١٧]، وذلك لأنَّ من أدَّى حقّاً واجباً عليه لا مِنَّة له على المؤدَّى إليه. وهذا القولُ يُبطِل الحمدَ والشُّكرَ، مع أنَّهما ثابتان له سبحانه.

الهداية
معناها والخلاف فيها

ثمَّ هدايته سبحانه تارةً يراد بها خَلْقُ الاهتداء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَص: ٥٦]، وتارةً يراد بها مجرَّد البيان

قلنا: حاشى لله أن يُوصف بالظلم والجَور، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 35] ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدَة: 13] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يُونس: 99] فعُلم أنَّ الألوهية تنافي الوجوبَ عليه، بل له أن يفعل لعباده ما شاء، إلا أنه خصَّ البعض بالإيمان فضلاً، وخصَّ البعض بالكفر عدلاً، ولأنه لو كان الأصلح واجباً على الله تعالى لأعطى الإيمان لمَن في الأرض كلهم، والأمر بخلافه، فعُلم أنه ليس بواجب عليه تعالى.

= قيل: في رد ذلك وجوه أبرزها:

أ: ما سبق من سياق الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عِمرَان: ١٧٨] فهي صريحة بأن الإملاء إنما كان لأجل أن يزدادوا من الإثم ويدل عليه قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ وهو أظهرها.

ب: هب أنَّ الإملاء كان من أجل أن لا يزدادوا إثماً، ولكنهم أصروا على كفرهم، أفلا يقع عليهم مقصود الآية، أم يتوقف الإثم ولا يزداد. وغير ذلك مما ليس هذا موضعه.

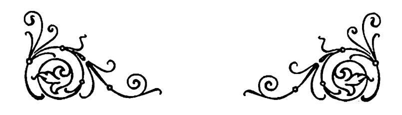
ينظر: رسائل العدل والتوحيد: (٢/ ٢٤٤). تبصرة الأدلة: (٢/ ٧٢٥).

(١) أي: من بين أسمائه تعالى.

والدِّلالة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فُصّلَت: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشّورىٰ: ٥٢][1].

والمعتمدُ عند أهل السُّنَّة أنَّها الدِّلالة المطلقة إلى البغية، سواءٌ حصلت أم لم تحصل. وعند المعتزلة: هي الدّلالة الموصلة إلى البغية.

ثمَّ قوله: «المقدَّس ذي التعالي» إشارة إلى تنزيهه تعالى عن وجوب شيء عليه، أو نسبة عدم حكمة إليه.



(١) ينظر الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: مادة: (هدى).

الإيمان بالرسل والملائكة

سكون السِّين لغة واختاره ضرورةً(١). و«أملاكٍ كِرامٍ بالنَّوال» بالنُّون، وفي بعض النُّسخ بالتاء، وسيأتي بيانهما.

فاعلم أنَّ قوله: «فرض لازم» خبر مقدَّم لقوله: «تصديقُ رسل». وأكَّد الفرض باللزُّوم للدِّلالة على أنَّه فرض عين لا فرضَ كفاية؛ إيماءً إلى أنَّه قطعيٌّ لا ظنِّي.

وفـــرضٌ لازمٌ تـــصـــديـــقُ رســـلٍ وأمـــلاكٍ كـــرامٍ بـــالـــتَّـــوالِ

واعلم أنَّ الإيمان بالرسل والأنبياء والملائكة واجبٌ قطعيٌّ، حتى أنَّ جاحده يكفر.

فالرسل: هم الذين أوحى إليهم جبرائيل عليه السلام، والأنبياء: هم الذين عرفوا في المنام أو بصوت وشيءٍ من الإلهام.

ومَن ادَّعى النبوة عليه التوبة، فإن لم يَتُب يَجب عليه القتل؛ لانسداد باب النبوة بخاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام، ولأن النبوة والمعجزة بغير الأنبياء محال، والمدَّعي بها كذَّاب، وكذا الكاهن والعرَّاف والنَّجَّام ـ المتكلم بالغيب ـ كلُّهم كذابون؛ لقوله عليه الصلاة والسلام[1]: «كذب المنجمون برب الكعبة»؛ لأنهم يتكلمون الغيب والله تعالى كَتَمَ عِلْمَ الغيب، لا يعلم الغيب إلا هو، لقوله

(١) لما كان سكون السين لغة لم يكن اختياره ضرورة. ينظر: مختار الصحاح: (١٤٢).

(1) لم أعثر عليه.

و«الرُّسل» جمع رسول، والمراد بهم الأنبياء جميعهم، إذ فُرِض علينا الإيمانُ بهم وتصديقُهم في أخبارهم[١].

تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: 59] وكذا المستمع؛ لقوله عليه السلام:[1] «من آمن بالنجوم فقد كفَر، ومن دبَّر بالنجوم فقد أدبر».

ثُمَّ الكلام في إثبات الرسالة أنَّ الدليل على صحة ذلك قيام المعجزة على يده، فإذا قامت المعجزة تعيَّن أنَّه رسول الله، كما قامت المعجزة على يد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كانشقاق القمر بإشارته، ومَجيء الشجر من موضعها إليه وعَودِها إلى مكانها، ونَبْع الماء مِن بين أصابعه، وشِكايَة النَّاقة، وإخبار الشاة المَقْلِيَّة المَصْلِيَّة[2] عن السُّمِّ الذي فيها، وإشباعه الخَلْقَ الكثير مِن الطعام القليل، والسحاب الذي كان يُظلُّه قبل بَعثِه، وما كان من خاتم النبوة بين كتفيه، وأنَّه كان أطيب ريحاً مِن المِسك، وإخباره عن الغيوب في الماضي والمستقبل، والقرآن العظيم، فإنَّ العرب مع فصاحتهم وبلاغتهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، وغير ذلك مما لا يُحصى ولا يُعدُّ.

---

(١) لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤] و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ...﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

ولقوله ﷺ في معرض بيان أركان الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر». أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب: سورة ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢﴾ [الروم: ١-٢]: (٤/ ١٧٩٣) برقم: (٤٤٩٩).

---

(1) لم أعثر عليه، لكن يشهد له وللذي قبله ما أخرجه أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد». مسند أحمد: (15/ 331) (9536)

(2) المقليَّة: الناضجة، والمصليَّة: المشويَّة. ينظر القاموس المحيط: (1709) مادة: قلى، (1681) مادة: صلى.

ولعلَّ النَّاظم ذهب إلى أنَّ النَّبيَّ والرَّسولَ مترادفان، كما قال بعضهم، واختاره ابن الهمام[١]، لكنَّه مخالف لما عليه جمهور العلماء الأعلام من أنَّ الرَّسول أخصُّ من النَّبيِّ؛ لأنَّه إنسان أوحي إليه، سواء أُمِر بتبليغه أم لا، والرَّسولُ مأمور بالتَّبليغ[٢].

و«الأملاك» جمع ملك، كأجمال وجمل[٣]، وهو عطف على رسل. ويجب الإيمان بوجودهم، وأنَّهم عباد مُكرَمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يُوصفون بذكورة ولا بأنوثة، وحقيقتُهم لطيفةٌ نورانيَّة، قادرةٌ على التَّشكُّل بصور مختلفة، وقويَّةٌ على أفعال شاقَّة.

وكذلك الإيمان بكرامٍ كاتبين قد جَعَلَهم الله علينا حافظين، ويكتبون أعمال بني آدم.

والملائكة معصومون من المعصية سوى هاروت وماروت، فإنهما مخصوصان من بين الجملة[1].

---

(١) محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد السيواسي، ثمَّ الإسكندري، المعروف بابن الهمام الحنفي، عالم مشارك في الفقه والأصول والتفسير وعلم الطبيعة والفرائض والحساب والتصوف والنحو والصرف وغير ذلك، من كتبه: فتح القدير شرح فيه الهداية في فروع الحنفية. توفي بالقاهرة سنة (٨٦١)هـ، شذرات الذهب: (٤/ ٢٩٨)، الضوء اللامع: (٨/ ١٢٧).

(٢) النَّبيُّ لغة: إمَّا مأخوذ من النَّبأ، وهو الخبر، لأنَّه مخبِر عن الله، أو لأنَّه مخبَر من قِبَل جبريل عليه السَّلام. أو مأخوذ من النَّبوة، وهي الرِّفعة؛ لأنَّه مرفوع الرُّتبة فإنه ما من نبي إلا وهو أفضل من أمته أو لأنَّه رافع رتبة من تبعه.
واصطلاحاً: إنسان ذكر حرٌّ من بني آدم، سليمٌ عن منفِّرٍ طبعاً، أوحي إليه بشرع يُعمل به وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن أُمر بالتبليغ فرسول.
ينظر: تحفة المريد: (٣٢)، العقيدة الإسلامية للخن (٢٦٢).

(٣) قال في لسان العرب: «جمع المَلْكِ ملوك وجمع المَلِك أملاك وجمع المليك مُلكاء» وعليه فليس هذا الجمع للملائكة وإنما اضطر إليه الناظم لضرورة الوزن. إذ «المَلَكُ» جمعه «الملائكة وملائك» لسان العرب (١٠/ ٤٩١).

---

(1) اختلف في معصية الملَكين. ينظر تحقيق هذه المسألة للدكتور نور الدين عتر في كتاب "التفسير": (138 وما بعدها)

ثمَّ الأظهر أنَّ الكرام صفة للملائكة، وهو لا ينافي كونَ الرُّسل مكرمين أيضاً، إلا أنَّ الملائكة وُصِفوا بهذا الوصف في الكتاب العزيز[1]، دونَ الأنبياء والرُّسل.

وقوله «بالنَّوال» متعلِّق بكرام، وهو بفتح النون بمعنى العطاء والنَّصيب على ما في القاموس[2]. والمعنى: أنَّهم مكرمون بأنواع العطاء وأصناف الجزاء. وأمَّا قول بعض الشُّرَّاح أنَّ قوله: «بالتوالي» متعلِّق بمحذوف تقديره: جاؤوا بالتَّوالي، وعليه فيجب الإيمان بإرسال الرُّسل متوالين، أي: متتابعين، فبعيدٌ من جهة الإعراب، وكذا غريب من جهة المعنى على وجه الصَّواب. وبيانُه: أنَّه يقتضي حينئذٍ أنْ لا فترة بين الرُّسل، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] أي: واحداً بعد واحد[3]، وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧]، وكذا يقتضي عَدَمَ إرسال نَبيَّين[4]، وهو منتفٍ بنحو موسى وهرون، وإبراهيم ولوط، فالظَّاهرُ أنَّ

فإن قيل: الملائكة أفضل أم المؤمنون؟

قال أهل السنة: خواصُ بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواصِّ الملائكة وهم جبرائيل وميكائيل وغيرهما من المقربين، وخواصّ الملائكة أفضل من عوام بني آدم، وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة: 7] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ [البقرة: 34] فالمسجود أفضل من الساجد، فإذا ثَبَتَ تفضيل الخواصِّ على الخواص ثَبَتَ تفضيلُ العوام على العوام.

---

(١) أي في قوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١-١٢].

(٢) القاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب، للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي، المتوفى سنة (٨١٧). كشف الظنون (٢/ ١٣٠٦). وينظر القاموس المحيط: (١٣٧٦).

(٣) استدلاله بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] لما يراه الشيخ ليس بمستقيم إذ إنه يؤيد القول بأن لفظ «التوالي» هو الأصح، لأنه فسره بقوله: «أي واحداً بعد واحد» وهو ما عليه المفسرون والله أعلم. ينظر تفسير القرطبي: (١٢/ ١٢٤).

(٤) أي: في زمن واحد.

التَّوالي على تقدير صحته، فينبغي أن يقال: إنَّه متعلِّق بقوله «فرض»، ومعناه بالتَّواتر القطعي نقله إلينا من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة، ولا يبعد أن يكون نعتاً للملائكة، والمعنى: كائنين بالتَّوالي والتَّتابع للمحافظة على العباد وكتابة ما يقع منهم فيما يتعلَّق بالمعاد.

الحكمة من إرسال الرسل

ثمَّ اعلم أنَّ الله تعالى لمَّا خلق الجنَّة لأوليائه والنَّارَ لأعدائه، وليس في عقول النَّاس إمكانُ معرفة ما يجب عليهم علماً وعملاً إلا بتعليمه سبحانه كرماً وفضلاً، ولا مناسبةَ بين ما خُلق من التُّراب وربِّ الأرباب، فاقتضت حكمتُه أن يرسل رسلاً مبشِّرين ومنذرين؛ لتحقيق السُّبل لئلا يكون للنَّاس على الله حجَّةٌ بعد الرُّسل، فيكونون وسائطَ بين الحقِّ والخلق، وأنَّهم يستفيضون الأنوار من الله سبحانه بواسطة الملائكة الرُّوحانيِّين المقرَّبين؛ لغلبة النُّورانيَّة والرُّوحانيَّة على الأنبياء والرُّسل المؤيَّدين بالأسرار الصَّمدانيَّة بالنِّسبة إلى سائر الأفراد الإنسانيَّة[١].

وأما الشياطين فإنهم خلقوا للمعصية إلا واحداً منهم قد أَسْلَمَ حين لقي النبي عليه السلام، وهو هام بن هيم بن قيس بن إبليس، فعلَّمه النبي عليه السلام سورة الواقعة والمرسلات وعمَّ وكُوِّرت والكافرين والإخلاص والمعوَّذتين[1]، فإنَّه مخصُوصٌ مِن بينهم، ثُمَّ المؤمنون مِن الجِنّ لا ثوابَ لهم على طاعتهم عند أبي حنيفة، وعندهما لهم ثواب والله أعلم.

---

(١) يجوز لله تعالى إرسال الرسل وبعث الأنبياء وهو مذهب أهل السنة وذهبت المعتزلة إلى وجوب ذلك وهو مبني على أصلهم في التحسين والتقبيح العقليين.
وذهبت البراهمة إلى أنه محال. وليس هنا موضع تفصيل ذلك.
ينظر: أصول الدين للغزنوي: (١١٩). المواقف: (٣/ ٣٥٩).

---

(1) أخرج أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الشياطين، قالوا: وأنت يا رسول الله، قال: نعم، ولكن الله أعانني عليه فأسلم».
مسند أحمد (2323) (4/ 166).

ثمَّ المعتقَدُ والمعتمد أنَّ خواصَّ البشر أفضلُ من خواصِّ الملك. وفي المسألة خلاف للمعتزلة وبعض أهل السُّنَّة[1].




(١) وتفصيل المسألة بأنها تنقسم إلى ثلاث صور أولها: التفضيل بين الأنبياء والملائكة وفيها أقوال:
أولاً: الأنبياء أفضل وعليه جمهور أهل السنة.
ثانياً: الملائكة أفضل وعليه المعتزلة والباقلاني والحليمي.
ثالثاً: الوقف وهو اختيار الكياالهراسي وبدر الدين الزركشي.
ثانيها: التفضيل بين أولياء البشر وغير الخواص من الملائكة وفيها قولان:
أولاً: تفضيل جميع الملائكة على أولياء البشر وجزم به ابن السبكي.
ثانياً: تفضيل أولياء البشر على أولياء الملائكة وجزم به الصفار من الحنفية والنسفي.
ثالثها: التفضيل بين خواص الملائكة وأولياء البشر وهم من عدا الأنبياء وهذه نقل التفتازاني فيها الإجماع بأن خواص الملائكة أفضل.
ينظر: الحبائك في أخبار الملائك: (٥٩).

محمد ﷺ
خاتم الأنبياء والرسل

«ختمُ الرُّسل» مبتدأ خبره «بالصَّدر»، وهو العضو المعروف من البدن، استعير له لشرفه، وتخصيصُه به لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١]، وصدرُ الشَّيء أيضاً أوَّلُه، ففي التَّعبير به إيماءٌ إلى أنَّه أوَّل الرُّسل وجوداً، كما أنَّه آخرهم شهوداً، على ما ورد «أوَّل ما خلق الله نوري ـ أو روحي ـ وكنتُ نبياً وآدمُ بين الماء والطِّين»(١).

و«المعلَّى» بتشديد اللام المفتوحة صفةٌ له، ومعناه: المرتفعُ الشَّأن، عليُّ البرهان. و«نبي» وما بعده يجوز فيه الجرُّ بدلاً، أو عطف بيان، والرَّفعُ على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، كذا قرَّره الشَّراح، ويجوز نصبُه بتقدير «أعني».

وختمُ الرُّسْلِ بالصدرِ المعلَّى نبيّ هاشمي ذي جمال

---

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، ولكن أخرج الترمذي في سننه كتاب المناقب، باب: في فضل النبي ﷺ برقم: (٣٦٠٩) عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النُّبوَّة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال: المباركفوري في تحفة الأحوذي: (١٠/ ٥٦): قال في المرقاة: قال ابن ربيع أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه وصححه الحاكم، وروى أبو نعيم في الدلائل وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «كنت أوَّل النبيِّن في الخلق وآخرهم في البعث»، وأمَّا ما يدور على الألسنة بلفظ «كنت نبياً وآدم بني الماء والطين» فقال السخاوي: لم أقف عليه بهذا اللفظ، فضلاً عن زيادة «وكنت نبياً ولا ماء ولا طين»، وقال الحافظ ابن حجر في بعض أجوبته: إنَّ الزيادة ضعيفة وما قبلها قوي. وقال الزركشي: لا أصل له بهذا اللفظ.

ينظر أيضاً: الدرر المنتثرة: (١٥)، تذكرة الموضوعات: (٨٦) اللآلئ المنثورة: (١٧٢) المصنوع في معرفة الحديث الموضوع: (١٤٢).

وفي بعض النُسخ «ذو جمال» بالواو، فيتعيَّن رفعه إمَّا على ما سبق، وإمَّا على أنَّ «نبي» هو الخبر. وقوله: «بالصَّدر» ظرف، أي: في المقام الأعلى، والمرام الأغلى.

ثمَّ النَّبيء مهموز باعتبار أصله، وقد قرأ نافع[1] به، والجمهورُ أبدلوا الهمزة ياء وأدغموه في مثله. وهو فعيل بمعنى المخبِر أو المخبَر[2]، فإنَّ كلاً منهما صادق عليه. وقيل: إنَّه بالتَّشديد فعيل مأخوذ من النَّبوة بمعنى الرِّفعة، فأصله نبيو، فأبدل الواو ياء وأدغم في مثله.

و«الهاشمي» نسبة إلى هاشم، خَصَّ جدَّ أبيه؛ لأنَّ قبيلته أفضل قبائل قريش، وأمَّا كونه ذا جمال فلأنَّه نبي الرَّحمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والحاصل: أنَّه كان موصوفاً بنعوت الكمال من نعتي الجلال والجمال، حيث كان مظهراً لكمال الله تعالى، إلا أنَّ نعت الجمال كان غالباً عليه تخلُّقاً بأخلاق الله، حيث ورد في الحديث القدسي: «سبقت رحمتي غضبي»[3] وكذا كان حال إبراهيم عليه السلام، حيث قال: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وكذا كان حال عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة:

....

(١) أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي مولاهم، أصله من أصفهان، أحد القراء العشرة، قرأ على عبد الرحمن بن الأعرج ونافع مولى ابن عمر، وأبي الزناد وقرأ عليه إسماعيل بن جعفر وعيسى بن وردان والليث بن سعد توفي بالمدينة سنة (١٦٩)هـ. ينظر: معرفة القراء الكبار: (١٠٦).

(٢) مرّ الحديث عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ [البُرُوج: ٢١] (٦/ ٢٧٤٥) برقم: (٧١١٤). عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لمَّا قضى اللهُ الخلقَ كتبَ كتاباً عنده: غَلَبَتْ ـ أو قال: سَبقَتْ ـ رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش».

١١٨] بخلاف حال نوح وموسى عليهما السَّلام حيث كانت الجلالية غالبةً عليهما ولذا قال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وقال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

والعلماء ورثة الأنبياء، ولذا قال الصِّديق الأكبر[١] لمَّا كان مَظهَر الجمال، حينَ المشاورة يومَ بدر: هم إخوانك وأقاربك، فاقبل منهم الفداء، وقال الفاروق: هم أئمَّة الكفر اقتُلْهم، فمال عليه السَّلام من جملة المقال إلى ما ظهر من آثار الجمال.

والحاصل أنَّه عليه السَّلام خاتم الأنبياء والرُّسل الكرام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ولحديث مسلم: «وخُتِم بي النَّبيُّون»[٢] ولحديث: «لا نبيَّ بعدي»[٣]، فأوَّلُ الرُّسل والأنبياء آدم عليه السَّلام، فيجب الإيمان بجميعهم من غير تعيين لعددهم، وإن ورد في مسند أحمد: «أنَّ الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبيٍّ، والرُّسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر»[٤].

....

(١) هو سيدنا أبو بكر رضي الله عنه.

(٢) والحديث بتمامه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ: أعطيتُ جوامع الكلم، ونُصرتُ بالرُّعب، وأُحلَّت لي الغنائم، وجُعلت ليَ الأرض طَهوراً ومسجداً، وأُرسلتُ إلى الخلقِ كافَّة، وخُتم بي النَّبيُّون». أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة: (١/ ٣٧١) برقم: (٥٢٣).

(٣) والحديث هو عن جُبير بن مُطعِم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بيَ الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدميَّ، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد» أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب: في أسمائه ﷺ: (٤/ ١٨٢٨) برقم: (٢٣٥٤)، وأخرجه البخاري دون قوله: «الذي ليس بعده أحد»، والترمذي في سننه كتاب الأدب، باب: ما جاء في أسماء النبي ﷺ برقم: (٢٨٤٠)، وقال في آخره: «وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبيٌّ» وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده: (٥/ ٢٦٥) برقم: (٢٦٦) عن أبي أمامة في حديث طويل، وكذا ابن حبان في صحيحه (٣٦١).

تقدُّمه ﷺ على الأنبياء والرسل

اعلم أنَّ البشر ثلاثة أقسام: كامل مُكمِّل وهم الأنبياء، وكامل غيرُ مُكمِّل وهم الأولياء، ومن والاهم ممن عداهم.

فالأصفياءُ جمع صَفي، وهم الصَّافون عن الكُدُورات النَّفسيَّة، والموصوفون بالحالات القدسيَّة والمقامات الأُنسيَّة. وفي البيت إشارة إلى ما وقع له ـ عليه التَّحيَّةُ والثَّناء ـ من إمامته للأنبياء عليهم السَّلام في المسجد الأقصى أو في السَّماء، ولا يبعد أن يكون المراد به أنَّه مقدَّم الأنبياء في العقبى حالَ نشر اللِّواء؛ لقوله عليه السَّلام: «ما من نبيٍّ يومئذٍ، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي يومَ القيامة ولا فخر» رواه الترمذي[1]، وفي رواية له: «أنا أكرم الأوَّلين والآخِرين على الله ولا فخر»[2]. وأما قول الشَّارح المقدسي: معناه أنَّ نبينا ﷺ مقتدى للأنبياء بلا اختلاف في ذلك بين الأئمَّة، فليس في محلِّه كما لا يخفى على أهله.

ولكون التَّاج أشرف أنواع الحليِّ وأظهرها؛ لشرف محلِّه وظهوره لأهله، خُصَّ بذكره. ولعلَّ اختيار الأصفياء على الأولياء ليعمَّ العلماء والشُّهداء وسائر الأتقياء.

إمَــامُ الأنْــبِــيَــاءِ بِــلا اخْــتِــلافِ وتَــاجُ الأَصْــفِــيَــاءِ بِــلا اخْــتِــلالِ

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب، باب: فضل النَّبيِّ ﷺ: (٥/ ٥٨٧) برقم (٣٦١٥) وهو بتمامه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ يومَ القيامة، وبيدي لواءُ الحمد ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمُ فمن سواه إلَّا تحت لوائي، وأنا أوَّل ما تنشقُّ عنه الأرض ولا فخرَ».

(٢) أخرجها الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب: فضل النَّبيِّ ﷺ: (٥/ ٥٨٧) برقم: (٣٦١٦) ضمن حديث طويل.

الإسلام خاتمة الشرائع السماوية

يشير إلى أنَّ شريعته ناسخة غيرَ منسوخة إلى يوم القيامة وارتحال النَّاس من العاجلة إلى الآجلة؛ وهذا لأنَّه خاتم النَّبيِّن، ولا نبيَّ بعده ينسخ شرعَه بشرع ذلك النَّبيِّ، إذ لا نسخ إلا بوحي إلى نبيٍّ.

وقوله: «في كلِّ وقت» رَدٌّ لما ينسب إلى الجهمية من انتهاء شريعته ﷺ أو شيء منها بنزول عيسى على نبيِّنا وعليه السَّلام؛ لما ورد في الصَّحيحين وغيرهما «أنَّ عيسى يضع الجزية»[1] ومعناه كما قال المحقِّقون: إنَّه يبطل تقرير الكفَّار بالجزية، فلا يقبل منهم لرفع السَّيف عنهم إلَّا الإسلام لا غير.

وبــاقٍ شــرعُــه فــي كــلِّ وقــتٍ إلــى يــومِ الــقــيــامــةِ وارتــحــالِ

واعلم أنَّ أول الأنبياء آدم عليه السلام، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله إلى آخر الأمم نبيّاً وليّاً هادياً مَهديّاً، عربيّاً قريشيّاً هاشميّاً، مكياً مدنيّاً، تِهامياً أبطَحياً، شافعاً مشفَّعاً، وهو خاتم النبيين، وإمام المتقين، وشَفيع المذنبين، وتاج الأصفياء، وسراج الأولياء، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد المناف بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضرَ بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضَر صلى الله تعالى عليه وسلم.

---

(١) والحديث بتمامه عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لَيُوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حَكَماً مُقسِطاً، فيكسرُ الصَّليبَ ويقتلُ الخنزيرَ ويضع الجزية ويَفيضُ المال حتى لا يقبله أحد». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير: (٢/ ٧٧٤) برقم: (٢١٠٩).

والجواب: أنَّ نبيَّنا ﷺ قد بيَّن أنَّ التَّقرير بالجزية ينتهي وقتُ شرعيَّته بنزول عيسى عليه السَّلام، وأنَّ الحكم في شرعنا بعد نزوله عدمُ التَّقرير بها، فعملُه في ذلك وغيرِه بشريعتنا لا بغيرها، كما نصَّ على ذلك العلماء، كالخطَّابيِّ(١) في معالم السُّنن والنَّوويِّ(٢) في شرح مسلم(٣)، ووردت فيه أحاديث ثابتة من غير نزاع، وانعقد عليه الإجماع. فالحقُّ أنَّ عيسى عليه السَّلام عند نزوله تابعٌ لنبيِّنا ﷺ؛ لأنَّ شريعته قد نُسخت بشريعته، فلا يكون له بعد نزوله وحيٌ بنَصْب حكم شرعيٍّ، بل يكون خليفةَ رسول الله ﷺ وعلى ملَّته، كما رواه أحمد والطبراني والبزار من حديث سَمُرة رضي الله عنه مرفوعاً(٤).

وإنَّما قلنا: بنصب حكم شرعيٍّ؛ لأنَّه قد يوحى إليه بغير ذلك ممَّا لا حكم فيه، كما ورد في آخر صحيح مسلم في حديث يأجوج ومأجوج(٥)، وفيه: «فبينما هم

وإذا نزل عيسى عليه السلام ينزل على شريعته ويدعو إلى شريعته خلافاً للجهمية.

---

(١) أبو سليمان، حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، فقيه أديب محدث، له كتب منها: «غريب الحديث»و «معالم السنن» وغيرها توفي سنة (٣٨٨هـ) ينظر: وفيات الأعيان: (٢/ ٢١٤).

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف الدِّين بن مري الحوراني الشافعي، محيي الدين النووي، علَّامة بالفقه والحديث، له كتب كثيرة، منها: شرحه على صحيح مسلم، رياض الصالحين. توفي رحمه الله في نوى سنة (٦٧٦) هـ. ينظر: طبقات الشافعية: (٢/ ١٥٣).

(٣) ينظر: شرح النووي على مسلم: (١/ ٢٨١).

(٤) أخرجه أحمد في المسند: (٥/ ١٣) ضمن حديث طويل عن سمرة بن جندب، جاء فيه: «. . .ثم يجيء عيسى بن مريم عليهما السلام من قِبَل المغرب مصدقاً بمحمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملَّته. . .». والطبراني في الكبير: (٧/ ٢٢١).

(٥) «يأجوج ومأجوج» بالهمز وتركه، اسمان أعجميان لقبيلتين، وهم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام. أعطاهم الله قوة في الأجسام،وكثرة في الأعداد، فلا يستطيع أحد مواجهتهم.

كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السَّلام: إنـي أخرجت عباداً لا يدان[١] لأحد بقتالهم، فاحرز عبادي إلى الطُّور» الحديث[٢].



---

(١) «يدان» تثنية يد. قال العلماء: معناه لا قدرة ولا طاقة، يقال: مالي بهذا الأمر يَدٌ، ومالي به يدان؛ لأنَّ الدَّفع والمباشرة إنَّما يكون باليد. ينظر: صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ٢٢٥٠).

(٢) الحديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال (٤/ ٢٢٥٠) برقم: (٢٩٣٧) عن النوَّاس بن سمعان.

=

حقيقة الإسراء والمعراج

«حقٌّ» خبر مقدَّم على مبتدئه، وهو «أمرُ معراجٍ»، و«صِدقٌ» عطف على «حقٌّ» أي: ثابتٌ أمرُه وصادقٌ خبرُه ومطابقٌ وقوعه. و«فيه» بالإشباع لغة وقراءة لا ضرورة، وضميره راجع إلى «أمر المعراج». و«أخبار» جمع خبر، و«عوالي» جمع عالي صفة، ويجوز جمع فاعل على فواعل في بعض مسائل، منها أن يكون صفة لمذكَّر غير عاقل، كذا قاله شارح. ولا يبعد أن يكون جمع عالية، والمعنيُّ بها أحاديث مشتهرة كادت أن تكون متواترة.

وحقٌّ أمرُ معراجٍ وصدقٌ   ففيه نصُّ أخبارٍ عوالي

واعلم أنَّ المعراج حقٌّ، فقد أسري بالنبي بشخصه في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس، ثُمَّ عُرِج به إلى السماء ثُمَّ إلى سِدرَة المُنتهى، ثُمَّ إلى ما شاء الله من العُلى، وأكرمه بالحوض والشفاعة، والتاج والعِمامة، والبُراق والنَّاقة، وكان ذلك في اليقظة لا في النوم، ورأى ربَّه بعين القلب لا بعين الرأس[1]، ومنكر المعراج كافر لأنه قد ردَّ الآيات ولقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1][2] ومن صدَّق الآيات وأقرَّ ببلوغه إلى بيت المقدس وأنكر

---

(1) اختُلف في الرؤية أكانت بقلبه أم بعيني رأسه ﷺ:
1. رأى ربه بقلبه، وهو قول السيدة عائشة وإليه ذهب بعض العلماء.
2. رأى ربه بعيني رأسه، وهو قول ابن عباس وإليه ذهب الأشاعرة، وقال النووي: وهو الراجح عند أكثر العلماء. ينظر النبراس: (628)

(2) وإنما قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] وإن كان السَّري لا يكون إلا بالليل، للتأكيد، كقولهم سِرت أمس نهاراً والبارحة ليلاً. مختار الصحاح. (هامش ب).

أما الإسراء[1] من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فثبوتُه بالكتاب[2]، ولذا يكفر منكره، وأمَّا المعراج[3] إلى السَّماء فقد قالوا: إنَّ منكره مبتدع لا كافر[4].

وراء ذلك مِن المعراج كان معتزلياً، ومَن قال كان ذلك في المنام أو قال لا أدري عَرَج أم لا؟ يكفر[1]، لقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النّجم: 2] إلى قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النّجم: 18] والله أعلم.

---

(١) الإسراء لغة: سير اللَّيل، قيل: «أسرى» سار من أوَّل الليل، و«سرى» سار من آخره.
واصطلاحاً: ما وقع لرسول الله ﷺ من الذهاب به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ينظر: أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة: (٢٥٣).

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسرَاء: ١].

(٣) المعراج لغة: السُّلَّم، ومنه ليلة المعراج، يقال: عُرج بالرُّوح والعمل: صعد بهما.
واصطلاحاً: هو الصُّعود برسول الله ﷺ إلى السَّموات العُلا فما فوقها. ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: (٧٨).

(٤) لأنه ثبت بالسنة وبما هو غير صريح من آيات أول سورة «والنجم»
قلت: إنما ذهبوا إلى ذلك احتياطاً في عدم التكفير بمجرد أقل الظن، والمتأمل في سورة «والنجم» إنما يرى التصريح بمعراج رسول الله ﷺ والدليل على ذلك أن قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النّجم: ٢] المقصود منه رسول الله ﷺ، ثم تتابع الآيات بالحديث عن رسول الله ﷺ أو عن سيدنا جبريل عليه السلام إذ لا معنى للآية إن لم يكن المقصود فيها رسول الله ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النّجم: ١٣-١٥] ولسنا في معرض بيان من المرئي أهو الله تعالى أم سيدنا جبريل، بل الكلام في سياق إثبات عروجه ﷺ إلى السموات العلا. والله أعلم.
ينظر: تفسير القرطبي: (١٧/ ٩٢)، مفاتيح الغيب (١٤/ ٤٠٦)، روح المعاني: (٢٧/ ٥٢)، النبراس: (٦٢٠).

---

(1) مذهب أهل السنة والجماعة أن المعراج كان بالروح والجسد ومن قال غير ذلك لايكفر.
ينظر: شرح العقائد النسفية: (169)، شرح العقيدة الطحاوية: (78)، تحفة المريد: (332).

وأطلق النَّاظم أمر المعراج ليشمله يقظة ومناماً، والصَّحيحُ أنَّه كان يقظة ببدنه وروحه، لا بمجرَّد روحه، مع أنَّه عُرج به مرَّات متعدِّدة، وبهذا يجمع بين روايات مختلفة، قال ابن جماعة: المذاهب الممكنة في المسألة خمسة أشياء:

- إثباتهما، أي: إثبات الرُّوحاني والجسماني، وهو مذهب أهل السُّنَّة[1].

- وإنكارهما، يعني به مذهب المعتزلة.

- وإثباتُ الجسماني فقط، وفيه أنَّه غريب وعجيب.

- وإثباتُ الرُّوحاني فقط، أي: يقظة أو مناماً، وقد قال به بعضهم[2]، والوقف عن كيفيَّته مع اعتقاد حقِّيَّته.

وفي بعض الشُّروح زاد هنا بيتاً وهو قوله:

وَمَــرْجُــوٌّ شَــفَــاعَــةُ أَهْــلِ خَــيــرٍ   لِأَصْـحَـابِ الـكَـبَـائِـرِ كـالـجِـبالِ

....

(١) وذهب بعضهم إلى أنه ليس مذهب جميع أهل السنة بل هو مذهب الجمهور وذهب البعض من أهل السنة إلى أن المعراج كان رؤية، ويوردون في ذلك حديثاً عن سيدنا معاوية رضي الله عنه، وآخر عن السيدة عائشة رضي الله عنها رواهما ابن جرير.

قلت: وفي قبول الرأيين نظر سواء أكان ذلك في المتن أم السند ويحتاج ذلك إلى إثبات قبل القول بصحة نسبته، وكذا الحال بالنسبة لما روي عن بعض الصحابة أيضاً، وبالنتيجة فمذهب أهل السنة أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد.

ينظر: النبراس: (٦٢٠)، وشرح العقيدة الطحاوية: (٧٨).

(٢) والفرق بين كونه مناماً وبين كونه بالرُّوح، أنَّه على كونه مناماً يكون في حالة النَّوم، وعلى كونه بالرُّوح لا نوم أصلاً، بل الرُّوح تذهب للأمكنة المخصوصة، والجسدُ في هذه الحالة يكون كالغافل. تحفة المريد: (٣٣١).

=

والمراد بأهل الخير الأنبياء؛ لقوله عليه السَّلام: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[1].




---

(1) أخرجه الحاكم: (١/ ١٣٩) برقم: (٢٢٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في سننه كتاب صفة القيامة، باب: ما جاء في الشفاعة: (٤/ ٦٢٥) برقم: (٢٤٣٥) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وابن حبان: (١٤/ ٣٨٦) برقم: (٦٤٦٨) عن أنس بن مالك، بلفظه.

ولا يقتصر الأمر في الشفاعة على الأنبياء وحسب بل ثبتت أنواع من الشفاعات كثيرة. للاستزادة ينظر: الهادي في أصول الدين: (٢٥٤). العقيدة الإسلامية: (٤٢٧) وما بعدها.

ـ وسيأتي شرح هذا البيت مفصلاً.

الأنبياء معصومون عن المعاصي

«العصيان» مخالفة الأمر قصداً، بخلاف الزَّلَّة فإنَّها مخالفة الأمر سهواً.

فالأنبياءُ عليهم السَّلام معصومون عن أنواع الكفر مطلَقاً، قبل البعثة وبعدها بالإجماع، وكذا عن سائر الكبائر عمداً باتِّفاق العلماء المعتبرين، ومحلُّه بعد البعثة كما يشير إليه تعبيره بالأنبياء. وأمَّا سهواً فَجُوِّز وقوعُها منهم عند الأكثرين(١)، كما في شرح العقائد(٢).

وأمَّا الصَّغائر فما كان منها دالّاً على الخِسَّة، كسرقة لقمة، فلا خلاف في عصمتهم منه مطلقاً، وما لا يدلُّ على ذلك فالمختار لجمهور أهل السُّنَّة عصمتهم عن عمده، وأمَّا سهوه فنقل ابن جماعة أنَّ المعصية ضدُّ الطَّاعة، وأنَّ الأنبياء معصومون من الكبائر والصَّغائر عمداً وسهواً، خلافاً للحنفيَّة في سهو الصَّغائر. انتهى، وهو مخالفٌ لما حكى التَّفتازانيُّ (٣) فيه الاتّفاقَ(٤).

وإنَّ الأنـــبـــيـــاءَ لـــفـــي أمـــانٍ مـن الـعـصـيـانِ عَـمْـداً وانـعـزالِ

واعلم أنَّ الأنبياء كلَّهم معصومون عن الكبائر وجميع العصيان بطريق القصد، وآمنون عن العَزل؛ لأنهم لو لم يكونوا معصومين عنها لم يَكفُّوا عن الكذب،

---

(١) ينظر: شرح العقائد: (١٦٥).

(٢) وفي «شرح المواقف» و«المقاصد» المختار خلافه، وحكى القاضي عياض الإجماع على العصمة عن الكبائر بلا قيد عمداً وسهواً. ينظر: النبراس: (٦٠١)، شرح المقاصد: (١٩٣)، المواقف: (٣/ ٤٢٨).

(٣) مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدِّين التفتازاني، من أئمَّة العربية والبيان والمنطق والفقه وأصوله والكلام، أخذ عن عضد الدين الإيجي وقطب الدين الرازي، من كتبه: شرحه العقائد النسفية. توفي بسمرقند سنة (٧٩١)هـ، بغية الوعاة (٢/ ٢٨٥)، الدُّرر الكامنة: (٥/ ١١٩).

(٤) ينظر: شرح العقائد: (١٦٥).

وأمَّا قول الشَّارح المقدسي: لعلَّ مراده اتِّفاق الحنفيَّة، فغيرُ صحيح لما بيَّنه في شرح العقائد أنَّه أراد به الإجماع، ولعلَّ مراده إجماع المتقدِّمين أو جمهورهم. فلا ينافيه المنقول عن الأستاذ أبي إسحق الإسفرايني(١) وأبي الفتح الشهرستاني(٢) والقاضي عياض(٣)، أنَّهم معصومون عن الكبائر والصَّغائر عمداً وسهواً، واختاره السُّبكيُّ، ولا يبعد أن يقال: المراد بالاتِّفاق هو التَّجويز، وموردُ الاختلاف الوقوع، والله أعلم.

هذا ويقال في الأنبياء: معصومون، وفي الأولياء: محفوظون، لفرق دقيق بينهما ليس هنا محلٌّ بسطه.

ثمَّ قوله: «وانعزال» عطف على قوله: «العصيان» والمعنى: أنَّ الأنبياء لفي أمان من العزل عن مرتبة النُّبوَّة والرِّسالة، وحكى شارح الطَّوالع(٤) فيه إجماعَ

والكاذب لا يَصلُح للرِّسالة، ولكن غير معصومين عن الصَّغائر والزَّلل ـ ولا فرق بين اللفظين ـ

---

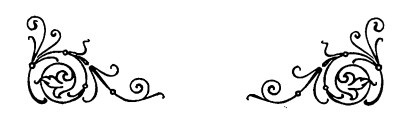
(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الأصولي المتكلم الشافعي أحد الأعلام، كان يلَقَّب بركن الدِّين، وكانت له مناظرات مع المعتزلة، يقال: إنَّه بلغ رتبة الاجتهاد. له كتب، منها: الجامع في أصول الدِّين. توفي سنة (٤١٨) يوم عاشوراء بنيسابور، شذرات الذهب: (٣/ ٢٠٩)، وفيات الأعيان: (١/ ٢٨)، الوافي بالوفيات: (١/ ٤٠٩).

(٢) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني. فقيه شافعي، متكلم على مذهب الأشعري، أخذ عن أحمد الحواني وأبي النصر بن القشيري، من كتبه: الملل والنحل. توفي سنة (٥٤٨)هـ، ينظر: لسان الميزان: (٥/ ٢٦٣).

(٣) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحصُبي، المالكي الحافظ، كان إمام وقته في علوم شتَّى، مفرطاً في الذَّكاء، وبالجملة كان عديم النظير، حسنة من حسنات الأيام، شديد التَّمسُّك بالسُّنَّة، من كتبه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى. توفي بمرَّاكش مسموماً سنة (٥٤٤) هـ، شذرات الذهب: (٤/ ١٣٨)، الأعلام: (٥/ ٩٩).

(٤) هو كتاب طوالع الأنوار للقاضي البيضاوي.

الأمَّة، وهذا بخلاف حال الأولياء، فإنَّه قد تُسلَب منهم الولاية كما يسلب الإيمان من المؤمن في الخاتمة، نسأل الله العافية، ويؤيِّده أنَّه سُئل الجنيد[1] هل يزني العارف بالله؟ فقال: وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً. لكن ذكر بعضهم أنَّ مَن رجع إنَّما رجع من الطَّريق، لا مَن وصل إلى الفريق، كما قال شيخ مشايخنا أبو الحسن البكري[2]: الإيمانُ إذا دخل القلب أمن من السَّلب، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦] ويؤيِّده حديث هرقل: «وكذلك الإيمان حين تَخْلُط بشاشتُه القلوب لا يسخطه أبداً» رواه البخاري[3].



وقالت الحشويَّة والكراميَّة غير معصومين عن الكبائر، وقالت المعتزلة: هم معصومون عن الكبائر والصغائر، ثُمَّ الرسل كلٌّ واحد منهم لا يفعل ما ظهر له قبل مجيء جبرائيل عليه السلام، فإذا فعل ذلك قبل مجيء جبرائيل يكون ذلك زَلَّة منه، كما تَزَوَّج داود عليه السلام امرأة أوريا قبل انتظار الوحي، فكان زلَّة منه، ومحمد عليه السلام لمَّا انتظر الوحي في تَزوُّج زينت امرأة زيد نجا من الزَّلَّة.

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري ـ نسبة لعمل القوارير، وعرف كذلك بالخزاز لأنه كان يعمل الخز. الزاهد الحنفي شيخ وقته وفريد عصره، اشتهر بصحبة خاله السري السقطي والحارث المحاسبي، توفي رحمه الله سنة (٢٩٨)هـ، ينظر: وفيات الأعيان: (١/ ٢٧٣).

(٢) أبو الحسن، محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري الصِّدِّيقي، مفسِّر، متصوِّف، مشارك في بعض العلوم، من كتبه: تسهيل السبيل في تفسير القرآن، شرح منهاج النووي. توفي رحمه الله سنة (٩٥٢) هـ، معجم المؤلفين: (١١/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة: (٣/ ١٠٧٤) برقم: (٢٧٨٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ضمن حديث طويل.

شرائط النبوة

أي: ذو فعل قبيح، وأراد بالافتعال السِّحر والكذب كما تُؤذِن به الصِّيغة، قال ابن جماعة: مذهب أهل التَّحقيق أنَّ الذُّكوريَّة شرط للنُّبوَّة، خلافاً للأشعريِّ ثمَّ القُرطبيِّ(١).

ومن الشَّرائط أيضاً: الحرِّيَّةُ؛ لأنَّ الرِّقِّيَّة أثر الكفر(٢). وعَدَمُ الكذب لعدم الوُثوق بقوله.

ثمَّ قال: وقع الاختلاف في وقوع نُبوَّة أربع نسوة: مريم، وآسية، وسارة، وهاجر، وزاد العلَّامة المُتقِن السِّراج ابن الملقِّن(٣)، في شرحه لعمدة الأحكام: حوَّاءَ وأمَّ موسى عليه السَّلام.

وما كانت نبيّ قطّ أنثى ولا عبدٌ وشخص ذو افتعال

واعلم أنَّ الأنبياء كلَّهم من بني آدم لا مِن الجن؛ لأنَّ بني آدم أكرم الخلائق، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: 70].

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجيُّ الأندلسيُّ، القرطبيُّ، من كبار المفسِّرين، كان إماماً عَلَماً من الغوَّاصين على معاني الحديث، حسن التصنيف، جيد النَّقل. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن. توفي رحمه الله سنة (٦٧١) هـ، شذرات الذهب: (٥/ ٣٣٤)، الأعلام: (٥/ ٣٢٢).

(٢) وهذا في أغلب الأحيان، والعبد لا ولاية له على نفسه فهو مملوك، فكيف تكون له ولاية على غيره.

(٣) أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن أحمد الأنصاريُّ الأندلسيُّ الشافعيُّ، المعروف بابن الملقِّن. فقيه، أصولي، محدِّث، مؤرخ، مشارك في بعض العلوم. توفي سنة (٨٠٤)هـ، مصنفاته كثيرة منها: شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي. والإعلام شرح عمدة الأحكام عن سيِّد الأنام ينظر معجم المؤلفين: (٧/ ٢٩٧)، كشف الظنون: (٢/ ١١٦٤).

ثمَّ ممَّا يؤكِّد شرطَ الحرِّيَّة أنَّ الرِّقِّيَّة وصفُ نقص، ويستنكف النَّاسُ لها أن يقتدوا به.

ولا مِن المرأة؛ لأنها ناقصة العقل والدين[1]، وممنوعة عن الكلام بالجهر والخروج من البيت، وعن المجيء إلى المساجد، ومنقوصة الميراث، ومن قال: إن مريم كانت نبياً كان مبتدعاً ومخالفاً للنص، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يُوسُف: 109] إلا أنَّ النبي عليه السلام مَدَحَهُنَّ بالعبادة فقال[2]: «امرأة صالحة خير من ألف رجل صالح»؛ لأن العقل عشرة والشهوة كذلك، فأعطى الله عقولاً تسعة وشهوة واحدة للرجل، وأعطى عقلاً واحداً وشهوة تسعة للمرأة، فالصَّلاح بالعقل القليل والشهوة الكثير، خيرٌ من الصَّلاح بالعقل الكثير والشهوة القليل.

ولا مِن عَبدٍ مُشْتَرىً رديء الأصل، ولا من ساحر كاذب ولا من كاهن.

قوله: (ذو افتعال) أي ذو سحر وكذب.

---

(1) لقوله ﷺ: «ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم. قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان دينها». أخرجه البخاري كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، برقم: (304).

(2) لم أعثر عليه.

=

مَنِ اختُلفَ في نبوته

أي: مجادلة إلَّا بالتي هي أحسن، وهو أنَّ ظاهر الأدلَّة تشير إلى نفي النُّبوَّة عن الأنثى وعن ذي القرنين ولقمان ونحوهما كتُبَّع، فإنَّه عليه السَّلام قال: «لا أدري إنَّه نبيٌّ أم مَلِك»[(١)]، وكالخضر فإنَّه قيل: نبيٌّ، وقيل: وليٌّ، وقيل: رسول على ما في التَّمهيد، فلا ينبغي لأحد أن يقطع بنَفْي أو إثبات، فإنَّ اعتقاد نبوَّة مَن ليس بنبيٍّ كُفْر، كاعتقاد نفي نبوَّة نبيٍّ من الأنبياء.

قال ابن جماعة: اختلف في نبوَّة الإسكندر، فقيل: ليس بنبيٍّ، بل مَلِك مؤمن عادل، وهو الحقُّ، وقال مقاتل[(٢)]: هو نبيٌّ، ويؤيِّده ما في سورة الكهف بحسب الظَّاهر[(٣)]، ووافقه الضَّحاك[(٤)].

وذو الـقـرنـيـن لـم يُـعْـرفْ[(1)] نـبـيّـاً كـذا لـقـمـانُ فـاحْـذر عـن جِـدالِ

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) أبو الحسن، مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني المروزي، الفقيه، اللغوي، من كتبه: تفسير القرآن، وكتاب في الرَّدِّ على القدرية. توفي بالبصرة سنة (١٥٠) هـ، ينظر: هدية العارفين: (٦/ ٤٧٠).

(٣) أي من قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦] فظاهر الآية الوحي، وليس كما استدل به بعضهم بقوله تعالى: ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الكهف: ٩٤] إذ ليس في الآية دليل على الوحي أو الإلهام وإنما المقصود هو الآية الأولى.
ويجاب عن الآية بأنَّ المراد بالوحي هنا الإلهام ويقابله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١] وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ [طه: ٣٨].

(٤) أبو القاسم، الضحَّاك بن مزاحم الهلالي البلخي التابعي المفسِّر، روى عن ابن عباس وابن =

---

(1) معنى «لم يعرف» لم يعلم، فإنَّ العلماء اختلفوا اختلافاً كثيراً، فأورث ذلك شبهة، والعقائد إنَّما تكون بأمر متيقَّن.

قال: واختلف في لقمان، فقيل: نبيٌّ، وقيل: لا بل هو وليٌّ، وهو الحقُّ، قال: والإسكندر اثنان، روميٌّ وهو صاحب الخضر، ويونانيٌّ وهو صاحب أرسطو، ومحلُّ النِّزاع هو الأوَّل، قال: ولقمان تلمذ لألف نبيٍّ. ونُقل عن المفسرين منهم مجاهد[1] أنَّهم قالوا: مَلَك الدُّنيا شَرْقاً وغرباً مؤمنان؛ سليمان وذو القرنين، وكافران؛ بختنصَّر والنُّمرود ابن كنعان. انتهى، وقال القرطبي: وسيملكها من هذه الأمَّة خامس، وهو المهديُّ[2].

وقيل: سمِّي الإسكندر ذا القرنين لأنَّه بلغ مغرب الشَّمس ومطلعها، كما قاله الزُّهريُّ[3] واختاره البغويُّ[4]، وقيل: عمره ألف وستمائة، وقيل ألفان كما روي:

واعلم أنَّ ذا القرنين لم يُعرف أنَّه نبي أم رجل صالح، بل نقول: هو رجلٌ صالحٌ، ملكٌ عادلٌ، وَصل إلى الشرق والغرب، ودخل في الظلمة لطلب ماء الحياة ولم يَصِل إلى مراده، ووَصَلَ إلى جبلٍ وراءه يأجوج ومأجوج فَسدَّ الجبل؛ لكي لا يَخرجوا إلى الدنيا، ثُمَّ توفي بعده، وكذلك لقمان رجلٌ صالحٌ حكيمٌ، وقد ذكره الله

= عمر وأبي سعيد الخدري، من كتبه: «تفسير القرآن» توفي سنة (١٠٥هـ) ينظر: مشاهير علماء الأمصار: (٣٠٨)، التاريخ الكبير: (٤/ ٣٣٢).

(١) أبو الحجاج مجاهد بن جبر، المكي، تابعي مفسِّر مقرء، من أهل مكَّة، أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرَّات، يقف عند كلِّ آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت. مات وهو ساجد سنة (١٠٤). ينظر: سير أعلام النبلاء: (٤/ ٤٤٩)، الأعلام: (٥/ ٢٧٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٤٨).

(٣) أبو بكر، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب المدني الزهري، أحد الأعلام سمع من سهل بن سعد وأنس بن مالك وغيرهم، توفي سنة (١٢٤هـ). ينظر: طبقات الفقهاء: (٦٣)، وفيات الأعيان: (٤/ ١٧٧).

(٤) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالفرَّاء البغوي، الشافعيُّ، فقيه، محدِّث، مفسِّر. أخذ عن حسين بن محمد وأبي عمر عبد الواحد المليجي من كتبه: «معالم التنزيل» في التفسير، و«مصابيح السنة» توفي سنة (٥١٦)هـ، ينظر: معجم المؤلفين: (٤/ ٦١)، طبقات المفسرين: (٧).

أنَّ قسَّ بن ساعدة [١] لمَّا خطب بسوق عكاظ قال في خطبته: يا معشر إياد بن الصَّعب، ذو القرنين مَلَكَ الخافقين[٢]، وأذلَّ الثَّقلين، وَعمَّر ألفين، ثمَّ كان ذلك كلحظة العين.

والأكثرون على أنَّ ذا القرنين كان في زمن إبراهيم عليه السَّلام، وهو صاحب الخضر حين طلب عين الحياة، فوجدها الخضر ولم يجدها هو، وقيل: كان في الفترة بين عيسى ونبيِّنا عليهما السَّلام، وبه جزم عبد الحقِّ في تفسيره، وأغرب بعضهم فجمع بين القولين بأنَّه عمرَّ طويلاً حتى أدرك زمن الفترة.

نزول المسيح وقتله الدجال

التَّويُ ـ بالمثنَّاة الفوقيَّة والقصر ـ هلاك المال في الأصل، يقال: تَوِي المال ـ بالكسر ـ يتوي، أي: هلك، ثمَّ استعمل في مطلق الهلاك كما هنا، والإتواءُ الإهلاك[٣]، يعني: وسوف يأتي عيسى ثُمَّ يُهلِك الدَّجَّالَ بأن يقتلَه، والأظهر أنَّه من

تعالى أنَّه صاحب الحكمة اللطيفة،والمرتبة الشريفة، ومَن قال إنهما نبيان أو ليسا نبيين لا نمنعه ولا نجادل معه.

وعيسى سوف يأتي ثم يَتْوي لدجالٍ شقيّ ذي خَبَالِ

واعلم أنَّ نزول عيسى عليه السلام مِن السماء حقٌّ، وفي يده عصاً يَقتُل بها الدَّجَّال وعسكره، والدجال الملعون راكبٌ على الحمار يَدَّعي الألوهيَّة والناس

(١) قسُّ بن ساعدة بن عمرو بن عديٍّ الإيادي، من بني إياد، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم، أدرك النبيَّ ﷺ قبل النبوة، توفي سنة (٢٣)، قبل الهجرة. ينظر: الأغاني: (١٥/ ٥٥٧٠)، البيان والتبيان: (١/ ٣٠٨).

(٢) أي: المشرق والمغرب، سُمِّيا بذلك لخفقان اللَّيل والنَّهار فيهما، مختار الصحاح: (١٣٨) مادة: خفق.

(٣) ينظر: الصحاح: (١/ ٦٦)، لسان العرب: (١٤/ ١٠٥).

باب التَّنازع[1]، فقوله: «لدجالٍ» متعلِّق بـ «يأتي» أو «يتوي» وخبره يتوي. والخَبال ـ بفتح المعجمة ـ الفساد.

قال ابن جماعة: يشير إلى خروج الدَّجَّال ونزولِ عيسى وقَتْله له، والإيمانُ بكلِّ ذلك واجبٌ. انتهى.

وإنَّما ينزل عيسى حين يُحاصر الدَّجالَ في قلعة القدس المهديُّ وأتباعُه، ينزل عيسى عليه السَّلام من السَّماء على المنارة الشَّرقيَّة في مسجد الشَّام[2]، ويأتي

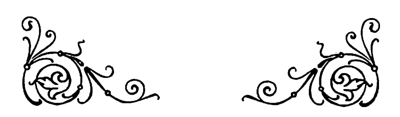
يؤمنون به إلا ما شاء الله تعالى سعادته، و به جبلان في أحدهم ألوان الثمار وفي أحدهما ألوان العذاب.

---

(١) التنازع: لغة: التجاذب واصطلاحاً: أن يتوجه عاملان أو أكثر متقدمان على معمول كل منهما طالب له من جهة المعنى. نحو: «سمعت ورأيت القارئ» فكل واحد من «سمعت» و«رأيت» يطلب «القارئ» مفعولاً به وكقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦].
ينظر: تعجيل الندى بشرح قطر الندى: (١٦٤)، أوضح المسالك: (٢/١٨٦).

(٢) وحديث نزول سيدنا عيسى عليه السلام أخرجه مسلم من حديث طويل ذكر فيه رسول الله ﷺ الدجال ثم قال رسول الله ﷺ فبينما هو كذلك ـ أي الدجال ـ إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين...»، صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ذكر الدجال وصفته: (٤/ ٢٢٥٠) هذا ما ورد في نزول سيدنا عيسى عليه السلام.
وفي تحديد المنارة البيضاء، قال الإمام النووي: «وهذه المنارة موجودة اليوم شرقي دمشق» ولم يعين مكانها. وكذا باقي العلماء أيضاً.
وذهب بعض العلماء المتأخرين إلى تحديد المنارة الشرقية في مسجد دمشق «الأموي» ويسميها العوام «المنارة الشرقية» أو «منارة عيسى».
ودفع هذا بعضهم إلى تحريف كلام الإمام ابن كثير ليستند إلى تعيين هذه المنارة بالذات فقال: «قال ابن كثير: وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقيه».
وبالرجوع إلى نص ابن كثير فإن كلامه هو: «فينزل على المنارة ـ وهي هذه المنارة المبنية في زماننا من أموال النصارى... وليس في البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه المنارة، وهي بيضاء بنفسها... ثم يتابع فيقول: نزول عيسى على المنارة التي بالجامع الأموي غير مستنكر».
=

القدس فيقتله بحربة في يده، وهو بمجرَّد رؤية عيسى يذوب كما يذوب الملح في الماء. وقد ثبتت هذه الأخبار والآثار عن سيِّد الأخيار، فيجبُ الإيمان بها، وفي فوائد الأخيار لأبي بكر الإسكاف[1] مسنداً إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذَّب بالدَّجَّال فقد كفر، ومن كذَّب بالمهديِّ فقد كفر»[2] نقله الشَّارح المقدسي.



وطلوع الشمس والقمر من المغرب، وخروج الدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، ومهديّ، واندِرَاسُ العِلم والعلماء، وخسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف في جزيرة العرب، في كلِّ ذلك وردت الأخبار وكلّ ذلك حقٌّ وصِدق.

= فلو كان مقصود كلامه في ذكر المنارة البيضاء أنها منارة المسجد الأموي لما استدرك بكلامه.
وأخيراً ليس في هذا الأمر كبير إشكال، إلا أن تحديد الأماكن والمواضع يحتاج إلى دليل، وتعيينه دون دليل محض تهكم.
ينظر: البداية والنهاية: (٩/ ١٧٧)، شرح مسلم: (١٨/ ٦٧).

(١) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن يعقوب الإسكاف الكلاباذي البخاري. محدِّث مشارك في العلوم، من كتبه: «التعرف لمذهب التصوف». توفي سنة (٣٨٠)هـ، ينظر: معجم المؤلفين (٨/ ٢١٣)، والأعلام: (٥/ ٢٩٥).

(٢) لم أعثر عليه بهذا اللفظ وإنما هو «من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أنزل على محمد...».
ينظر: السلسلة الضعيفة: (٣/ ٢٠١). لسان الميزان: (٥/ ١٣٠).

كرامات الأولياء

قوله: «لها كَوْنٌ» أي: تحقُّقٌ أو ثُبوت. قوله: «فَهُم» أي: الأولياء، لأنَّ المراد بالوَليِّ الجنس(١). وقوله: «أهلُ النَّوال» أي: أهل العطاء والإفضال، ولو قال: أهل الوصال لكان أولى، لئلا يقع في الإيطاء(٢) بناء على نسخة «النَّوال» فيما تقدَّم.

كـرامـاتُ الـولـيِّ بـدارِ دُنـيـا(1) لـهـا كـونٌ فـهـم أهـلُ الـنَّـوالِ

واعلم أنَّ كرامات الأولياء حقٌّ خلافاً للخوارج وللمعتزلة، قال الله تعالى لأم موسى: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القَصَص: 7] فهذا كرامةٌ لها، وكذلك أخرج لمريم رزقِ الشتاء في الصيف ورزق الصيف في الشتاء كرامةً لها، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النَّمل: 40] وهو آصف بن برخيا كان مِن الأولياء، وزير سليمان، وقال: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مَريَم: 25] وهذا كرامةٌ لمريم، وقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: 37] ولأنَّا نجد أنَّ الكافر وهو إبليس يسير في ساعة واحدة من الشرق إلى المغرب،

---

(١) أي جنس الأولياء وليس المقصود ولياً بعينه.

(٢) الإيطاء: هو أن يقفي الشاعر بكلمة في بيت ثم يأتي بها في بيت آخر يكون قريباً من الأول، فإن تباعد ما بين البيتين بما قدره عشرة أبيات، وقال بعضهم: سبعة أبيات فصاعداً، فهو مغفور.

ينظر: نضرة الأغريض في نصرة القريض: (٤٣)، العمدة في محاسن الشعر: (٥٤).

---

(1) قوله «بدار دنيا» يخرج به «الدار الآخرة» لأن إكرام الله تعالى لأوليائه فيها قطعي، وإنما الخلاف في الدنيا ينظر: جامع اللآلي: (161).

تعريف الكرامة:

ثمَّ الكرامات جمع الكرامة، وهي: أمر خارق للعادة مقرونٌ بالمعرفة والطَّاعة، خالٍ عن دعوى النُّبوَّة، وبه فارق المعجزة[1].

تعريف الولي:

والوليُّ: هو العارفُ بالله حَسْب ما يمكن من معرفة الذَّات والصِّفات، المواظب على الطَّاعات، المجتنبُ عن السَّيِّئات، المعرِضُ عن الانهماك في اللَّذات والشَّهوات، المُدْبر عن الدُّنيا، المُقبِلُ على العُقبى، المداوم على ذكر المولى[2].

وفي المسألة خلافُ المعتزلة في مَنْعهم جوازها مطلَقاً معلِّلين بأنَّ في جوازها وقوعَ الاشتباه بين المعجزة وغيرها، وخلافُ الأستاذ أبي إسحق الإسفرايني في

وسير المؤمن في ليلة واحدة إلى بيت الله تعالى ليس بعجيب، ورأى عمر رضي الله عنه على المنبر جيشه بنهاوند وقال: يا سارية الجبل الجبل فسمع سارية صوته، وشَرِبَ السُّمَّ خالدُ بن الوليد فلم يَضرَّه، ودعا أبو حنيفة فنزلت عليه مائدةٌ. والمعجزة لا تظهر بغير الدعوى، والكرامة تظهر بل يَجتهد الوليُّ في كتمانِها، ولو ادَّعى الوليُّ ذلك ذَهَبَت ولايته.

ولـم يَـفْـضُـلْ ولـيٌّ قـطُّ دهـراً نـبـيّـاً أو رسـولاً فـي انـتـحـالِ

واعلم أنَّ الوليَّ لا يَفضل نبياً، بل نبيٌّ واحدٌ أفضل مِن جميع الأولياء خلافاً للروافض؛ لأنَّ الرجل لا يَبلُغ مراتب الأولياء إلا بعد طاعة الله وطاعة رسوله، ومَن لم يُطِع يَصِل إلى الملامة لا إلى الكرامة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾

(١) ينظر: شرح الصاوي على جوهرة التوحيد: (٣٤٤).

(٢) وسمي ولياً لأنه تولى خدمة الله، أو لأن الله تولى أمره، فلم يكله لغيره طرفة عين. ينظر: شرح الصاوي على الجوهرة: (٣٤٤).

بعضها، حيث قال: «كلُّ ما جاز تقديرُه معجزةً لنبيٍّ لا يجور ظهورُ مثله كرامةً لوليٍّ».

وأجيب: بأنَّ المعجزة شرطها دعوى النُّبوَّة، بخلاف الكرامة حيثُ يُقِرُّ صاحبها بالمتابعة، فإنَّ الوليَّ يخرج بدعوى النُّبوَّة عن الإسلام، فضلاً عن الولاية، وبهذا تبيَّن أنَّ كلَّ كرامة لوليٍّ تكون معجزةً لمتبوعه من نبيٍّ(١).

قوله: و«لم يَفضُل» بضمِّ الضَّاد، أي: لم يَزِد فضلُ وليٍّ أبداً في جميع الأزمنة السَّابقة واللَّاحقة على فَضيلةِ نبيٍّ أو رسولٍ، في انتساب لملَّة من مِلَل أهل الإسلام.

[النِّسَاء: 69] الآية، ولقوله عليه السلام(1): «أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر». والمؤمنون كلُّهم أولياء الله وأكرمهم، والوليُّ وإن علت درجتُه لا تَسقط عنه العبادات، ومَن زَعَمَ أنَّ مَن صار ولياً وَصَلَ إلى الحقيقة وسَقَطَت عنه الشريعة فهو مُلحِدٌ، ويَعتَقِد مذهب الإباحة، فلمَّا لم تَسقُط العبادة عن الأنبياء كيف تسقط عن الأولياء؟! ولو رُفِعت العبادة بالمحبة والولاية لرُفِعت عن محمد صلى الله عليه وسلم حيث آمَنَهُ الله من خوف الخاتمة بقوله تعالى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَتْح: 2] ومع هذا قد عَبَدَ الله تعالى حتى تورَّمت قدماه، فقيل له: ألم يَغفِر لك الله؟ قال(2): «أفلا أكون عبداً شكوراً» فلمَّا لم تسقط عن رسولنا ولا عن جميع الأنبياء عليهم السلام فكيف تسقط عمَّن دونهم؟!.

---

(١) يستثنى من ذلك معجزة القرآن الكريم، فلا يجوز أن يصدر نظيرها من الوليِّ مهما علت رتبته.

---

(1) أخرجه الحاكم، وقال الذهبي: فيه القاسم بن محمد متروك تالف. لكن له شاهد في مسلم. المستدرك: (4189) (2/ 660)، صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب فضائل نبينا صلى الله عليه وسلم، برقم: (2278).

(2) جزء من حديث أخرجه البخاري كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم، برقم: (1130)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم: (7302).

وكان الأولى تقديم «رسولاً» على «نبياً» كما لا يخفى؛ لتكون «أو» بمعنى «بل» للتَّرقيِّ، وإن كان أريد بها التَّنويع، وذلك لأنَّ الوليَّ تابع للنَّبيِّ، ولا يكون التَّابعُ بأعلى مرتبةً من المتبوع؛ ولأنَّ النَّبيَّ معصوم مأمونُ العاقبة، والوليُّ يجب أن يكون خائفاً من الخاتمة، ولأنَّ النَّبيَّ مكرَّم بالوحي ومشاهدة الملائكة الكرام، والرَّسولُ مأمور بتبليغ الأحكام وإرشاد الأنام بعد اتِّصافه بكمالات الوليِّ في المقامات الفِخام، فما نُقِل عن بعض الكرَّاميَّة من جواز كون الوليِّ أفضلَ من النَّبيِّ كفرٌ وضلالة.

وعبارةُ النَّسفيِّ[1] في عقائده: «ولا يبلغُ وليٌّ درجةَ الأنبياء»، أولى من عبارة النَّاظم؛ لإفادتها نفي المساواة أيضاً، فلو قال: «ولم يبلغ» بدل «ولم يفضل» لبلغ المرام وفضلَ الكرام[2].

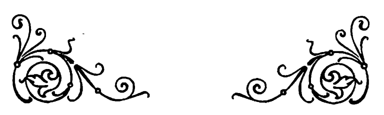
ومن الأدلَّة الواضحة في هذا المقام قولُه عليه السَّلام: «ما طلعت الشَّمس ولا غربت على أحد بعد النَّبيِّين أفضل من أبي بكر»[3] فإنَّه صرَّح عليه السَّلام بأنَّ النَّبيِّين أفضلُ من أبي بكر، وهو أفضل من غيرهم، فيكون أفضلَ من كلِّ وليٍّ، إذ من المعلوم أنَّ أولياء هذه الأمَّة أفضل من أولياء الأمم السَّابقة؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠] الآية، فإذا كان من هو دون النَّبيِّين أفضلَ

(١) أبو حفص، عمر بن محمد بن أحمد، نجم الدين، النَّسفيُّ، مفسِّر، فقيه، محدِّث حافظ، متكلِّم، أصولي، مؤرِّخ، أديب، ناظم، لغوي، نحوي. أخذ عن محمد البزدوي وإسماعيل التنوخي النسفي والحسن بن عبد الملك القاضي، من كتبه: العقائد والتيسير في التفسير والقند في تاريخ سمرقند. توفي رحمه الله سنة (٥٣٧هـ). ينظر: طبقات المفسرين: (١٥)، لسان العرب: (٤/ ٣٢٧).

(٢) ولن يبلغ الولي درجة النبي مطلقاً؛ لأن النبوة لا تنال بكثرة العبادة والصلاح لأنها اصطفاء من الباري سبحانه، وإنما مقصود الناظم عدم تفضيل الولي على النبي، فلم يعد للاعتراض كبير فائدة.

(٣) الحديث أخرجه أحمد في مسنده فضائل الصحابة: (١/ ١٥٢) برقم: (١٣٥) والديلمي: (٥/ ٣٥١) برقم: (٧٤٠١)، وينظر: إتحاف الخيرة المهرة: (٧/ ٥٩) برقم: (٦٥٤١)، حلية الأولياء: (٣/ ٣٢٥).

من جنس الوليِّ، فالنَّبيُّون أفضل من الأولياء، بل صرَّح النَّسفيُّ[1] في عمدته: أنَّ نبيَّاً واحداً أفضل من جميع الأولياء.



(١) أبو البركات، حافظ الدين عبد الله بن أحمد بن محمود، النسفي الحنفي. فقيه، أصولي، مفسِّر، متكلِّم. من كتبه: عمدة العقائد في الكلام، شرحها فسمَّاها بـ: الاعتماد، وله: مدارك التنزيل وحقائق التأويل في التفسير، ومنار الأنوار في الأصول. توفي رحمه الله سنة (٧١٠)هـ، ينظر: الفوائد البهية في تراجم الحنفية: (١٧٢). وهو غير الأول.

مراتب الصحابة
رضوان الله عليهم

أولاً: أبو بكر الصديق

قال ابن جماعة: الحقُّ أنَّ أفضل الصَّحابة هو أبو بكر رضي الله عنه، وهو الخليفة بعده بالحقِّ. انتهى؛ لأنَّه عليه السَّلام جعله خليفة في قيام الصَّلاة[1]، التي هي عمدةُ أحكام الإسلام.

وَلُقِّب أبو بكر بالصِّدِّيق لتصديقه النَّبيَّ ﷺ في النُّبوَّة من غير تلعثم، وفي المعراج بلا تردُّد. وفي الرِّياض للمحبِّ الطبريِّ: أنَّ النبيَّ ﷺ هو الذي لقَّبه بالصِّدِّيق.

وللصّدّيقِ رجحانٌ جلّيٌّ على الأصحابِ من غيرِ احتمالِ

واعلم أنَّ الله فضَّل محمداً عليه السلام على جميع الأنبياء، ثُمَّ بعده أفضل هذه الأمة وأرجحُهم أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، لقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40] ومن قال: إن أحداً أفضل مِن أبي بكر كان معتزليّاً ورافضياً، وهم يلعنون أبا بكر وعمر ويتبرؤون عن جميع الصحابة إلا عن عليّ فضَلُّوا بذلك، وكانت كنيته ولقبه أبا بكر، واسمه عبد الله وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، واسم أبيه عثمان وكنيته أبو قحافة،

(١) الثابت في صحيح البخاري كتاب الجماعة والإمامة، باب: حد المريض أن يشهد الصلاة برقم: (٦٣٣)، ومسلم في الصلاة باب. استخلاف الإمام إذا عرض له عذر برقم: (٤١٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لمَّا دخل رسول ﷺ بيتي فقال: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس» . . . . الحديث.

والرُّجحانُ: الفَضْلُ في الرُّتبة، و«الجليُّ» هو الأمر الظَّاهر، و«الاحتمال» الشَّكُّ والتَّردُّد والتَّجويز، فالمعنى: أنَّ لأبي بكر الصِّدِّيق ترجيحاً ظاهراً، وتفضيلاً باهراً على سائر الصَّحابة من غير احتمال تجويز خلافه، ولا شكَّ ولا تردُّد في صحَّة خلافته.

وفي المسألة خلافُ الشِّيعةِ وكثيرٍ من المعتزلة، حيث قالوا بتفضيل عليٍّ على سائر الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين.

ثانياً: عمر بن الخطاب

الفاروق هو عمر رضي الله عنه، لُقِّب به لفَرْقه بين الحقِّ والباطل. وفي تهذيب(١) النَّوويِّ ورياضِ المحبِّ الطَّبريِّ: أنَّه عليه السَّلام لقَّبه بذلك.

وإنما لقِّب بالصِّدِّيق؛ لتصديقه النبي عليه السلام حين دعاه من غير تَلعثُمٍ وشِماسٍ(1).

ولِـلْـفـاروقِ رحـجـانٌ وفـضـلٌ عـلى عـثـمـانَ ذي الـنوريـنِ عَـالـي

واعلم أنَّ عمر بعد أبي بكر أفضل من عثمان، ومن قال: إنَّ عثمان أفضل من عمر كان معتزلياً ورافضياً، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

(١) تهذيب الأسماء واللُّغات، جمع فيه الإمام النَّووي رحمه الله الألفاظ الموجودة في مختصر المزني والمهذَّب والوسيط والتَّنبيه والوجيز والرَّوضة. وقال: إن هذه السِّت تجمع ما يحتاج إليه من اللُّغات، وضمَّ إلى ما فيها جملاً مما يحتاج إليه مما ليس فيها من أسماء الرجال والملائكة والجنِّ، ليعمَّ الانتفاع، ورتَّب على قسمين، الأول في الأسماء، والثاني في اللغات ينظر: كشف الظنون: (١/ ٥١٤).

(1) تلعثم: تمكث وتأنّي، وشماس: إبداء العداوة. قاموس: (1495) مادة: لعثم، (712) مادة: شمس.

ثالثاً: عثمان بن عفان

وأمَّا وصفُ عثمان بذي النُّورين؛ فلأنَّ النَّبيَّ ﷺ زوَّجه ابنته رُقيَّة، ولمَّا ماتت زوَّجه أمَّ كلثوم. وقوله: «عالي» أي: عالي القدر والمرتبة بالنِّسبة إلى سائر الصَّحابة على ما عليه جمهور أهل السُّنَّة، فإنَّ بعضهم ذهبوا إلى تفضيل عليٍّ على عثمان رضي الله تعالى عنهما.

قوله: «حقَّاً» يحتمل أن يكون قَسَماً، وأن يكون مصدراً لفعل مقدَّر، أي: حَقَّ حقَّاً، يعني: ثبت ثبوتاً كونُه أفضل من عليٍّ الموصوف بالحيدر الكرَّار في صفِّ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ [الأنفال: 64] يعني عمر رضي الله تعالى عنه، وقال عليه السلام:[1] «إن لي وزيرين في السماء يعني جبرائيل وميكائيل، ووزيرين في الأرض يعني أبا بكر وعمر»، كنيته أبو العَدَويّ، ولقبه الفاروق لُقِّب به؛ لفرقه بين الحق والباطل.

وذو النُّورين حقَّاً كانَ خيراً مِن الكرَّار في صفِّ القِتالِ

واعلم أنَّ بعد أبي بكر وعمر لم يكن أحدٌ أفضل من عثمان رضي الله عنه.

وقالت المعتزلة والروافض: عليٌّ أفضل من عثمان رضي الله عنه.

ولنا: قول النبي عليه السلام:[2] «أفضل هذه الأمة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم» وذو النورين لُقِّب به؛ لأنه خَتَن الرسول بكَرِيمَتيه، تزوَّج بأحديهما بعد موت الأخرى. والله أعلم.

---

(1) أخرجه الحاكم: (3047) (2/ 290)، والأحاديث الواردة في فضل سيدنا عمر تبلغ حد الشهرة.

(2) أخرج الطبراني عن ابن عمر قال: «كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر وعثمان، ويسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وما ينكره». المعجم الكبير: (13132) (12/ 285).

القتال، الذي لم يقع له نعتُ الفَرَّار لا بالاختيار ولا بالاضطرار؛ وذلك لثبوت قلبه في مقام القرار.

رابعاً: علي بن أبي طالب

أي: على غير المذكورين من الصَّحابة الكبار جميعاً، لا تُبالِ ولا تكترثْ بغير هذا القول من أقوال الأَغيار. ولـمَّا سئل أبو الطُّفيل أعليٌّ أفضل أم معاوية؟ قال: ألا يرضى معاوية أن يكون مساوياً لعليٍّ حتَّى يطمع في أن يكون أفضل منه.

وللكرَّارِ فَضْلٌ بعدَ هذا عَلى الأغيارِ طُرّاً لا تُبالِ

واعلم أنَّ بعد الثلاثة لم يكن أحدٌ في أمة محمد عليه السلام أفضل من عليٍّ رضي الله عنه، ومَن لم يرَه خليفةً كان خارجياً، وفضلهم تبيَّن بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ﴾ [الفتح: 29] الآية يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً، وقد ثَبَتَ ترتيب فضلِهم كترتيب خلافَتِهم، ثُمَّ أفضل الأمة بتمام العشرة كما شهد لهم النبي عليه السلام بالجَنَّة، وهم الخلفاء الأربعة وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهم أمناء هذه الأمّة، ثُمَّ بَقِيَة الصحابة على حسب مراتبهم ثُمَّ التابعون ثُمَّ تَبَعُ التابعين، ثُمَّ علماء السلف مِن بعدهم، وقال عليه السلام[1]: «أبو بكر وزيري، وعمر حبيبي وعثمان منّي، وعليّ أخي وصاحب رايتي».

(1) حديث موضوع. ينظر: الموضوعات لابن الجوزي: (1/ 404)، تنزيه الشريعة: (1/ 369)، وفي الصحاح ما يغني عنه في فضل سيدنا علي، منها ما روي عن سلمة رضي الله عنه قال: كان علي تخلف في خيبر فلحق به، فلما بتنا الليلة التي فحت قال ﷺ: «لأعطين الراية غداً ـ أو ليأخذن الراية غداً ـ رجل يحبه الله ورسوله، يفتح عليه، فنحن نرجوها، فقيل: هذا علي فأعطاه ففتح عليه». أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، برقم: (4117).

وقوله: «بعد هذا» أي: بعدما ذكر من تفضيل الثلاثة عليه، أو بعد ذكر ذي النُّورين، وعلى هذين التَّقديرين فذِكْرُه تأكيدٌ للعلم به، أو للإشارة إلى الرَّدِّ على القائلين بتفضيل عليٍّ على الثَّلاثة، أو على القائلين بتفضيله على عثمان فقط، أو بالوقف عن المفاضلة بينهما.

أول من آمن من الصحابة

واختلف في أوَّل من آمن من الصَّحابة، فقيل: عليٌّ لقوله:

سَبَقْتُكم إلى الإسلام طُرّاً غلاماً ما بلغتُ أوانَ حلمي

وهذا دليل لأصحابنا أنَّ إسلام الصَّبيِّ صحيح، خلافاً للشَّافعيِّ، وقد ثبت أنَّه عليه السَّلام دعا علياً إلى الإسلام وهو ابن سبع سنين. وقيل: أبو بكر، وقيل: خديجة، وقيل: زيد بن أرقم، وجُمِع بأنَّ أوَّل من آمن من الرِّجال أبو بكر، ومن الصِّبيان عليٌّ، ومن النِّساء خديجةٌ، ومن الموالي زيد. ثمَّ قيل: العبرةُ بإيمان أبي بكر إذ لا مرتبة للصَّبيِّ والمرأة والعتيق عند الناس.

ويُعلم من تفضيل كلٍّ من الأربعة على من بعده على التَّرتيب المذكور، تفضيلُه على سائر الصَّحابة، لانعقاد الإجماع على أفضليَّة الأربعة على سائر الصَّحابة فمن بعدهم، واستحقاق هؤلاء الأربعة رتبة الخلافة على التَّرتيب المذكور، كما يدلُّ قوله عليه السَّلام: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة»(١).

ونَسكُتُ عمَّا جرى بين الصحابة، وقال عليه السلام(1): «إياكم وما شجر بين أصحابي».

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه: كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة: (١٥/ ٣٩٢) برقم: (٦٩٤٣)، والترمذي في سننه، كتاب الفتن: (٤/ ٥٠٣) برقم: (٢٢٢٦).

---

(1) لم أعثر عليه بلفظه، لكن أخرج الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً بلفظ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا...». المعجم الكبير: (10296) (9/ 45)، قال الهيثمي: فيه عبد الملك بن مسهر وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح. (7/ 223).

وذكر الشَّارح القدسي أنَّهم أفضل ممَّن عدا أولاد النَّبيِّ ﷺ من الصَّحابة، وفيه بحث لا يخفى، لأنَّه يأتي في كلام النَّاظم ترجيحُ الصِّدِّيقة على فاطمة رضي الله عنهما، وهي أفضل بنات النَّبيِّ ﷺ؛ لما روىٰ البزَّار من طريق عائشة أنَّه عليه السَّلام قال لفاطمة: «هي خير بناتي، إنَّها أصيبت بي»[1] يعني: من جملة فضيلتها

وقالت الروافض: إن عليّاً يَرجِع إلى الدنيا قبل قيام الساعة مع أهل بيته، وهذا محالٌ، فالواجب علينا الثناء عليهم والرِّضوان، ومَن طعن فيهم فقد ضلَّ عن طريق

---

(١) ربما وهم الشيخ في ذكر الحديث ونسبته فالحديث بتمامه: عن السيدة عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ لما قدم مكة خرجت ابنته زينب من مكة مع كنانة ـ أو ابن كنانة ـ فخرجوا في طلبها فأدركها هبار بن الأسود، فلم يزل يطعن بعيرها برمحه حتى صرعها وألقت ما في بطنها، واشتجر فيها بنو هاشم وبنو أمية، فقال بنو أمية: نحن أحق بها، وكانت تحت ابن عمهم أبي العاص، وكانت عند هند بنت عتبة بن ربيعة، وكانت تقول: هذا في سبب أبيك، فقال رسول ﷺ لزيد بن حارثة: «ألا تنطلق فتجيء بزينب»؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: «فخذ خاتمي فأعطها إياه» فانطلق زيد، فلم يزل يتلطف، فلقي راعياً فقال: لمن ترعى؟ فقال لأبي العاص، فقال: لمن هذه الغنم؟ فقال: لزينب بنت محمد ﷺ، فسار معه شيئاً ثم قال: هل لك أن أعطيك شيئاً تعطيها إياه ولا تذكره لأحد؟ قال: نعم، فأعطاه الخاتم، وانطلق الراعي فأدخل غنمه وأعطاها الخاتم فعرفته، فقالت: من أعطاك هذا؟ قال: رجل، قالت: فأين تركته؟ قال: بمكان كذا وكذا، فسكتت حتى إذا كان الليل خرجت إليه، فلما جاءته قال لها: اركبي بين يدي على بعيره، قالت: لا، ولكن اركب أنت بين يدي فركب وركبت وراءه، حتى أتت، فكان رسول الله ﷺ يقول: «هي خير بناتي، أصيبت فيَّ».

فبلغ ذلك علي بن الحسين فانطلق إلى عروة، فقال: ما حديث بلغني عنك أنك تحدثه تنتقص حق فاطمة؟ فقال عروة: والله ما أحب أن لي ما بين المشرق والمغرب وأني أنتقص فاطمة حقاً لها، وأما بعد ذلك، إني لا أحدث به أبداً».

ولم يرد هذا الحديث في فضل السيدة فاطمة رضي الله عنها وإنما أجاب ابن حجر عليه فقال: أجاب عنه بعض الأئمة بتقدير ثبوته بأن ذلك كان متقدماً، ثم وهب الله لفاطمة من الأحوال السنية والكمال ما لم يشاركها أحد من نساء هذه الأمة مطلقاً والله أعلم».

ينظر: فتح الباري (٧/ ١٠٦)، مجمع الزوائد: (٩/ ١٥١) برقم: (١٥٢٣١)، فيض القدير: (٤/ ٥٥٥)، المعجم الأوسط: (٥/ ٨٠) برقم: (٤٧٢٧).

أن أكون في صحيفتها؛ لأنِّي أموت في حياتها، بخلافهنَّ فإنَّهنَّ مُتْن في حياته ﷺ فكنَّ في صحيفته.

ثمَّ الإجماع قائم على تفضيل الأربعة على عائشة، فيكونون أفضل من أولاده ﷺ. نعم صرَّحوا بأنَّ الأصحَّ أنَّ أولاد عليٍّ رضي الله عنه من فاطمة أفضلُ من سائر أولاد الصَّحابة رضي الله عنهم.

وقد أغرب أيضاً حيث قال: «لا» في قوله: «لا تبالي» نافية لا ناهية، بدليل عدم جزم الفعل بعدها. انتهى، ولا يخفى غرابته إذ لا عبرة بكتابة الياء في «لا تبالي»، فإنَّه يحتمل أن تكون «لا» ناهية وعلامة جزمها حذف الياء التي هي لام الفعل، لأنَّه من بالى يبالي، وأنَّ هذه الياء للإشباع، ويحتمل أن تكون «لا» نافية، والياء أصليَّة، ولا شكَّ أنَّ المعنى على النَّهي ولو قدر أن تكون الصِّيغة للنَّفي.

محمد عليه الصلاة السلام، لقوله[1]: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، وإنَّ الله تعالى اختارهم لصحبة رسوله وصفيه؛ ليكونوا أعواناً وأنصاراً له، وأعانوه ونَصَرُوه حتى وَصَلَ هذا الدين المَرضِيُّ ببركة سَعيهِم ونُصرَتِهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، فوجب علينا محبَّتُهم وترك الطَّعن فيهم، ومحبة أهل بيت رسول الله وأزواجه وأقربائه، قال تعالى في حق أزواجه: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] وقال في حقّ أقربائه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ: 23] فوجب مودتهم أيضاً.

---

(1) في أسانيده كذابون ووضاعون لكن له شاهد يؤدي بعض معناه بلفظ: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبن النجوم أتى السماء ما تُوعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون». أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي. . ، برقم: (2531)، ينظر تلخيص الحبير: (4/ 191)

المفاضلة بين الصديقة والزهراء

بكسر الخاء، جمع الخُلَّة ـ بضمِّها ـ بمعنى الخصلة، والمراد بالصِّدِّيقة عائشة، وبالزَّهراء فاطمة رضي الله عنهما، ولُقِّبت بها لأنَّها لم تَحِض قطُّ، ولم يُرَ لها دم في ولادة حتَّى لا تفوتها صلاة، كما ذكره صاحبُ الفتاوى الظَّهيريَّة [١] من الحنفيَّة، والمحِبُّ الطَّبريُّ من الشَّافعية، وأورد فيه حديثين.

ثمَّ اعلمْ أنَّ المصنِّف أراد أنَّه لم يرد نصٌّ بتفضيل عائشة على فاطمة، وإنَّما ورد رجحانها عليها من جهة كثرة الرِّواية والدِّراية، أو من حيثيَّة كونها في الآخرة مع النَّبيِّ ﷺ في الدَّرجة العالية، وفاطمةُ مع عليٍّ رضي الله عنهما، فشتَّانَ ما بينهما، وهذا لا ينافي ما نقل عن الإمام مالك: «من أنَّ فاطمة بضعة من النَّبيِّ ﷺ، ولا أفَضِّل على بضعة منه أحداً» [٢] فإنَّه من هذه الحيثيَّة ليس يخالفه أحد في هذه القضيَّة [٣].

ولـلـصّـدّيـقـةِ الـرُّجـحـانُ فـاعـلـمْ   عـلـى الـزهـراءِ فـي بـعـضِ الـخـلالِ

واعلم أنَّ عائشة الصدِّيقة بنتَ الصدِّيق أفضلُ نساء العالم، وهي أمُّ المؤمنين، مُطهَّرة عن الزنا لا كما قالت الروافض، والزهراء فاطمة، وسمِّيت بالبتول؛ لانقطاعها وانفرادها [1]، وقال بعض الأئمة: إنَّ فاطمة أفضل من عائشة؛ لأن

(١) الظهيرية كتاب في الفقه الحنفي، تصنيف ظهير الدِّين أبي بكر محمد بن أحمد البخاري الحنفي، المتوفي سنة (٦١٩) هـ.

(٢) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (١٨/ ٢).

(٣) ووردت أحاديث عديدة في كون السيدة فاطمة بضعة من النبي ﷺ منها: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني» أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ: (٣/ ١٣٦١) برقم: (٣٥١٠).

(1) أي لانقطاعها عن نساء زمانها ونساء الأمة فضلاً وديناً وحسباً، أو المنقطعة عن الدنيا إلى الله. القاموس المحيط: (1246) مادة: بتل.

وقد نقل بعض الشُّرَّاح تفضيل عائشة على فاطمة عن أكثر العلماء، ثمَّ حكى تفضيل فاطمة على عائشة عن بعض، وعن بعض آخر أنَّه لا فضل لإحداهما على الأخرى، وهو يحتمل التَّساوي والتَّوقُّف في المفاضلة، بل الوقفُ هو المذهب الأسلم كما قاله ابن جماعة، وهو الذي مال إليه القاضي أبو جعفر الاستروشني(١) من الحنفيَّة وبعضُ الشَّافعيَّة، لتعارض الأدلَّة في ذلك، لقوله عليه السَّلام لفاطمة: «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء أهل الجَنَّة أو نساء المؤمنين» أو «نساء هذه الأمة»(٢)، ولقوله عليه السَّلام: «فضل عائشة على النِّساء كفضل الثَّريد على سائر الطَّعام» رواهما الشيخان(٣)، وأراد الثَّريد باللَّحم، كما رواه معمر(٤) في جامعه مفسَّراً عن قتادة وأبان يرفعه فقال فيه: «كفَضْل الثَّريد باللَّحم».

درجتها ارتفعت تبعاً للنبي، وأكثر الأئمة قالوا: إن عائشة أفضل منها؛ لأنها مع النبي في الجنة وفاطمة أفضل بناته.

---

(١) محمد بن محمود بن الحسين الاستروشني، مجد الدين الفقيه الحنفي، المتوفى سنة (٦٣٦)هـ، من كتبه «جامع الصغار في الفروع». هدية العارفين: (٢/ ١١٣) إلا أنه كنَّاه بـ أبي الفتح، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري، في صحيحه كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣/ ١٣٢٦) برقم: (٣٤٢٦) ومسلم كتاب فضائل فاطمة: (٤/ ١٩٠٤) برقم: (٢٤٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ﴾ [آل عمران: ٤٢] برقم: (٣/ ١٢٦٦) (٣٢٥٠) عن أبي موسى، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة: (٤/ ١٨٩٥) برقم: (٢٤٤٦) عن أنس.

(٤) أبو عروة، معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي، فقيه، حافظ للحديث، متقن ثقة. ولد بالبصرة، وسكن اليمن واشتهر فيها، وهو عند مؤرخي رجال الحديث أوَّل من صنَّف باليمن، توفي سنة (١٥٣)هـ. ينظر: شذرات الذهب: (١/ ٢٣٥)، ميزان الاعتدال: (٤/ ١٥٤).

قال السُّهيليُّ في روضته: ووجه التَّفضيل من هذا الحديث أنَّه قال في حديث آخر: «سيِّدُ إدام الدُّنيا والآخرة اللَّحم»[1] مع أنَّ الثَّريد إذا أطلق لفظه فهو ثريد اللَّحم، كما أنشد سيبويه[2]:

إذا ما الخبزُ تأدُمُه بلحمٍ فذلك أمانةُ اللهِ الثَّريدُ[3]

وقال السُّبكيُّ: فاطمة أفضل، ثمَّ خديجة، ثمَّ عائشة. ووافقه البُلقيني، وقد أوضحتُ الدَّليل الأظهر في شرح الفقه الأكبر.

حكم لعن يزيد؟

وفي نسخة: «ولن يلعن» وتنوين «يزيد» ضرورة. و«المكثار» ـ بكسر أوَّله ـ المبالغ في الكثرة. و«الإغراء» ـ بكسر الهمزة ـ الفَسَادُ والتَّحريض عليه. و«غالي» ـ بالغين المعجمة ـ اسم فاعل من الغُلوِّ، وهو المبالغة في التَّعصُّب، وهو بدل من

ولم يلعن يزيداً بعد موت سوى المكثار في الإغراء غال

واعلم أن يزيداً لا يُلعن، ولا فاسقاً بعد الموت؛ لجواز أنه مغفور، والمغفور لا يلعن.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الأطعمة، باب: اللحم (٢/ ١٠٩٩) برقم: (٣٣٠٥) عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «سيِّد طعام أهلِ الدنيا وأهلِ الجنَّة، اللَّحمُ». وأورده البيهقي في الشعب: (٥/ ٩٢) برقم: (٥٩٠٤) بلفظ المتن وكذا الطبراني في الأوسط: (٧/ ٢٧١) برقم: (٧٤٧٧).

(٢) أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، أخذ عن الخليل النحو وعن الأخفش اللغة وروى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء اشتهر بعلم النحو، وألف فيه كتابه المشهور «الكتاب»، اختلف في تاريخ وفاته، فقيل: (١٨٠) وقيل: (١٩٤هـ). ينظر: وفيات الأعيان: (٣/ ٤٦٣) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: (٤٩).

(٣) ينظر: الكتاب: (١٨٩)، المفصل في صنعة الإعراب: (٤٨٧).

المكثار، والمعنى: لم يلعن أحدٌ من السَّلَف يزيدَ بن معاوية سوى الذين أكثروا القولَ في التَّحريض على لعنه، وبالغوا في أمره، وتجاوزوا عن حدِّه، كالرَّافضة والخوارج وبعض المعتزلة، بأن قالوا: رضاه بقتل الحسين واستبشارُه وإهانتهُ أهلَ بيت النُّبوَّة ممَّا تواتر معناه، كما ذهب إليه التَّفتازانيُّ[1].

ورُدَّ بأنَّه لم يثبت بطريق الآحاد، فكيف يدَّعي التَّواتر في مقام المراد؟!، مع أنَّه نقل في التَّمهيد عن بعضهم: أنَّ يزيد لم يأمر بقتل الحسين، وإنَّما أمرهم بطلب البيعة، أو بأخذه وحمله إليه، فهم قتلوه من غير حكمه، على أنَّ الأمر بقتل الحسين، بل قتلُه ليس موجِباً للعنه على مقتضى مذهب أهل السُّنَّة، من أنَّ صاحب الكبيرة لا يكفر، فلا يجوز عندهم لعن الظَّالم الفاسق، كما نقله ابن جماعة، يعني بعينه، وإلا فلا شكَّ أنَّه يجوز «لعنة الله على الظَّالم والفاسق»، لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ولقوله عليه السلام: «لعن الله آكل الربا وموكله»[2]، ثمَّ نقل عن بعض مشايخه: أنَّه يجوز لعنه معيَّناً، بل في وجهه. ولعلَّه أراد به الزَّجر لينتهي عن فعله، وهذا قد يُتصوَّر في حياته، بخلاف ما بعد مماته، إذ لا يجوز لعن كافر بعينه حينئذٍ إلَّا إذا عَلِم بدليل قطعيٍّ أنَّه مات كافراً، ولعلَّ هذا وجه تقييد النَّاظم بما بعد الموت، إذ يحتمل أن يختم له بخير، وفي الخلاصة وغيرها: أنَّه لا ينبغي لعنُه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن لعن المصلِّين ومن كان من أهل القبلة.

خلافاً للروافض والمعتزلة: فإنهم يلعنون يزيداً، ولا يأكلون طعامهم في يوم عاشوراء، ويبكون ويصيحون بسبب قَتْلِ الحسين، قالوا: إنهُ قَتَلَ ابن بنت النبي عليه السلام فلا يرحمه الله أبداً !!؟

---

(١) قال في شرح العقائد: (١٨٧): والحقُّ أنَّ رضا يزيد بقتل الحسين رضي الله عنه واستبشارَهُ بذلك وإهانتَهُ أهل بيت النَّبيِّ ﷺ ممَّا تواتر معناه وإن كان تفاصيله آحاداً، فنحن لا نتوقَّف في شأنه بل في إيمانه، لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه.

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في المسند (٦/ ٢٧٠) برقم: (٣٧٢٥) عن عبد الله بن مسعود، وتتمته: «وشاهديه وكاتبه» وأخرج نحوه البخاري في صحيحه كتاب اللباس باب: من لعن المصور برقم (٦٤٦)، ومسلم في صحيحه المساقاة باب: لعن آكل الربا برقم: (١٥٩٨).

وجوَّز بعض العراقيين لعنَه، قال: لمَّا أنَّه كفر بما استحلَّ من محارم الله بفعله في أهل بيت النُّبوَّة انتهى. ولا يخفى أنَّ الاستحلال أمر قلبيٌّ ظنِّيٌّ غائبٌ عن ظاهرِ الحال، ولو فُرِض وجودُه أوَّلاً يحتمل أنَّه مات تائباً عنه آخِراً، فلا يجوز لعنه لا باطناً ولا ظاهراً، وهكذا الجواب عمَّا روي ـ إن صحَّ ـ أنَّه قال:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا جَزَع الخزرجِ من وقع الأسل[1]

وكذا ما نُقل عن صاحب التَّمهيد: من أنَّ الأصحَّ هو أن تقول بأنَّ يزيد لو أمر بقتل الحسين أو رضي بذلك فإنَّه يجوز اللَّعن عليه، وإلَّا فلا، وكذا قاتلُه لا يكفر من غير استحلال انتهى.

ولا يخفى ما فيه من التَّناقض، حيث أطلق اللَّعن على مجرَّد الأمر بقتله ورضاه، وقيَّد قاتله بغير استحلال، فإنَّ من المعلوم أنَّ القتل أشدُّ من الأمر بالقتل، مع أنَّ قتل غير الأنبياء ليس بكفر عند أهل السُّنَّة، خلافاً للخوارج والمعتزلة وأهل البدعة، فلا شكَّ أنَّ السُّكوت أسلم، والله أعلم[2].

لنا: مَن قَتَل مؤمناً وهو يعلم أنه حرام فلا يكون كافراً، وإن تاب، تاب الله عليه، وإن لم يَتُب قبل الموت يغفر الله تعالى له بفضله أو بشفاعة الشافعين، ولو

---

(١) البيت لابن الزبعري قاله يوم أحد، وروي أن يزيد تمثله لما ألقيت رؤوس القوم بين يديه وله تتمة قال فيها:

لأهلوا واستهلوا فرحاً ولقالوا ليزيد: لا فشل

ينظر: نهاية الأرب: (٥/ ٤٦٠).

(٢) مسألة لعن يزيد:

اتفق جمهور العلماء على فسق يزيد ولم يخالف فيه إلا قلة، واختلفوا بعد ذلك في مسألتين:

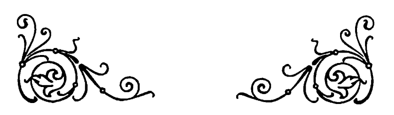
١ ـ تكفيره: انقسم العلماء فيه إلى قسمين:

أ ـ قالوا بكفره، ومنهم ابن عقيل والآلوسي. ينظر: تذكرة الخواص: (٢٦٠)، روح المعاني: (٢٦/ ٧٣).

ب ـ قالوا بعدم كفره، وهو ما عليه أكثر العلماء.

=

وأمَّا ما ذكره شارح من أنَّ من قَتَلَ نبيّاً لا تُقبل توبته، ولا يصحَّ إيمانُه، فغيرُ ظاهر برهانُه؛ لأنَّ الإيمان والتَّوبة يَجُبَّان ما قبلهما بالإجماع.



لم يغفر لأحدٍ بقتل المؤمن لَمَا غفر لوحشي بعد إسلامه، فإنه قتل حمزة ثُمَّ أسلم بيد النبي عليه السلام فبشره الله تعالى بالجنة[1]، ويُحتَمَل أن يزيداً كذلك إن لم يرَ قتله حلالاً.

= ٢ـ لعنه: وانقسم العلماء فيه إلى قسمين:

أ ـ جواز لعنه: ومنهم الإمام أحمد فيما روي عنه، والقاضي أبو يعلى، والخلال والكياالهراسي وابن الجوزي، والسفاريني والتفتازاني والسيوطي وغيرهم. ينظر: مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: (٥/ ٦٥٨)، روح المعاني: (٢٦/ ٧٣).

ب ـ لا يحبونه ولا يجيزون لعنه. وهم كثرة من العلماء منهم: ابن الصلاح والغزالي وابن تيمية وابن حجر الهيثمي وغيرهم. ينظر: فتاوى ابن الصلاح: (١/ ٣٨)، الفتاوى الحديثية: (٢٧). مجموع فتاوى ابن تيمية: (٣/ ٤١١) الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد مع تحقيقه: (١٥).

---

(1) استدلاله بقصة سيدنا وحشي وإسلامه ليس بدقيق لأن سيدنا وحشياً كان كافراً وأسلم والإسلام يجبُّ ما قبله، بخلاف ما كان من قصة يزيد بن سيدنا معاوية.

حكم إيمان المقلد

[النِّصال] هو بكسر النُّون، جمع نصل، وهو حديدة السَّيف والسَّهم ونحوهما. والتَّقليد: قَبول قول الغير بلا دليل.

كأنَّه لقبوله جَعَلَه قلادةً في عنقه، والمعنى: أنَّ إيمان المقلِّد معتَبَر عند الأكثر بأنواع الأدلَّة القاطعة، ومن الدَّلائل الواضحة أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يكتفي بالإيمان من الأعراب الخالين عن النَّظر في هذا الباب بمجرَّد التَّلفُّظ بكلمة الشَّهادة.

ونقل عن المعتزلة القول بعدم اعتبار إيمان المقلِّد(١)، ونُسب إلى الأشعريِّ أيضاً، لكن قال القشيريُّ(٢): إنَّه افتراء عليه(٣). فما ذكره ابن جماعة «أنَّ مذهب الأشعريِّ والقاضي أنَّ إيمان المقلِّد غير معتبر، بخلاف الظَّاهريَّة والسَّادة الحنفيَّة» ليس في محلِّه.

وإيمانُ المقلّدِ ذو اعتبارٍ   بأنواعِ الدلائلِ كالنِّصالِ

واعلم أنَّ إيمان المُقلِّد صحيح وهو الذي اعتقد جميع ما فرض الله عليه من قِدَم العَالِم الصانع، وحدوث العالَم، وبوحدانيته ورسالته بغير علم من الفرائض والسُّنن وتلاوة القرآن من الكتاب، فهذا مؤمنٌ صحيح إيمانه، نافع في الدنيا والآخرة.

---

(١) لا بدَّ عند المعتزلة لصَّحة إيمان المقلد أن يعرف كلَّ مسألة بدلالة العقل على وجه يمُكنه به دفع الشُّبهة، حتَّى إذا عجز عن شيء من ذلك لم يُحكم بإسلامه. اهـ حا.

(٢) أبو القاسم، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، النيسابوري القشيري الشافعي. صوفيٌّ، فقيه، مفسِّر، أخذ عن أبي علي الدقاق، وتزوج ابنته، من كتبه: الرسالة القشيرية، التيسير في التفسير، توفي سنة: (٤٦٥هـ) بنيسابور. ينظر: طبقات الشافعية: (٥/ ١٥٣).

(٣) اختلفت الرِّوايات عن الأشعريِّ، والصَّحيحُ من الرِّوايات أنَّه مؤمن.

ثمَّ التَّحقيقُ ما ذكره السُّبكيُّ من أنَّ المقلِّد: إن كان أخذ بقول الغير من غير حجَّة ولا جزم به، فلا يكفي إيمان المقلِّد قطعاً؛ لأنَّه لا إيمانَ مع أدنى تردُّد فيه، وإن كان المقلِّد أخذَ قول الغير بغير حجَّة لكن جزماً، فيكفي إيمانه عند الأشعريِّ وغيره. انتهى، ويؤيِّده أصول أهل السُّنَّة «من أنَّ الإيمان هو التَّصديق بما جاء به النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم من عند الله تعالى، والإقرارُ به» على ما اختاره بعض أئمَّة الحنفيَّة، كشمس الأئمَّة السَّرخسيّ(١) وفخرُ الإسلام البزدوي(٢)، خلافاً لجمهور المحقِّقين ومنهم الشَّيخ أبو منصور الماتريدي ومعظمُ الأشاعرة، حيث ذهبوا إلى أنَّه التَّصديق بالقلب فقط، والإقرار شرطٌ لإجراء أحكام الإسلام في الدنيا.

وقالت الأشعريَّة والمعتزلة: لا يَصحُّ إيمان المُقلِّد، ويقولون بكُفر العامَّة، وهذا قبيح؛ لأنَّه يُؤدي إلى تفويت حُكْم الله تعالى في الرسالة والنبوة، إلا أنَّ درجة الاستدلال أعلى من درجة التقليد(1) ألف مرة كما روي عن النبي عليه السلام أنه قال(2): «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل السماوات والأرض لرجح إيمان أبي

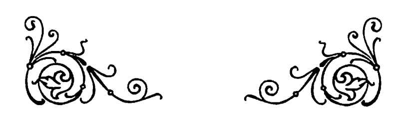
(١) أبو بكر، محمد بن أحمد بن أبي سهل، شمس الأئمَّة، قاضٍ من كبار الأحناف، مجتهد. لازم شمس الأئمة عبد العزيز الحلواني، وأخذ عنه محمد بن إبراهيم الحصري، وركن الدين البيكندي وغيرهما كثير. من كتبه «المبسوط» أملاه وهو في السجن، وشرح الجامع الكبير، توفي رحمه الله سنة (٤٨٣)هـ. ينظر: الفوائد البهية: (٢٦١).

(٢) أبو الحسن فخر الإسلام علي بن محمد بن الحسين بن الكريم، البزدوي، فقيه، أصولي محدِّث، مفسِّر. من كتبه: شرح الجامع الكبير للشيباني في فروع الفقه الحنفي، شرح صحيح البخاري. توفي رحمه الله سنة (٤٨٢) ودفن بسمرقند. ينظر: الوافي بالوفيات: (٦/ ٤٩/٤).

(1) أي أن مكانة المُستدل أعلى من مكانة المقلِّد.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر، باب زيادة الإيمان ونقصانه، برقم: (36) وسنده صحيح، وفي مسند الفردوس عن ابن عمر مرفوعاً بسند ضعيف لكن له شاهد ومتابع. ينظر المقاصد الحسنة: (357)

وخلاصة الكلام في هذا المقام: أنَّ إيمان المقلِّد صحيحٌ عند الأئمَّة الأربعة وإن كان عاصياً بترك الاستدلال. ونُقل عن الأشعريِّ أنَّ شرط صحَّة إيمانه أن يعرف كلَّ مسألة بدلالة عقليَّة، زاد المعتزلة: وأن يعبِّر عنه بلسانه ويجادل خصمه في برهانه(١).



بكر». أي مِن جهة النُّور والضياء لا مِن جهة الزيادة والنقصان، فإن قيل: كيف عرفتَ الله تعالى؟ قلتُ: عرفتُه بلا كيف ولا كيفية ولا تشبيه بل عرفتُه بتعريفه، يعني ما عرفته بعقلي.

وقالت المعتزلة: نَعرِفُه بالعقل وعن هذا قالوا: الإيمان بالتقليد لا يجوز، وقالت الأشعرية: يَعرِفه لا بتعريفه، وعن هذا قالوا: لا يعرف الله تعالى أحدٌ حقَّ معرفته وإن كان نبياً مرسلاً أو مَلَكاً مقرباً.

قلنا: هذا شكٌّ في إيمانهم، فمَن أوجب الشكَّ في شهادة العبد فقد أوجب الشكَّ في شهادة الرب، لقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عِمرَان: 18] الآية، وقال في شأن الكفرة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعَام: 91] أي ما عرفوه حق معرفته، ونقول: المؤمن يعرف الله حق معرفته بتعريفه، لكن لا نعبد الله حقَّ عبادته، لو أنَّ أحداً عَبَدَ الله بجميع عبادات أهل السماوات والأرض وقوبِلت تلك العبادات بنظرة واحدة في عينه لَمَا قوبلت منها.

(١) للتوسع ينظر: المسائل الخلافية بين الأشاعرة والماتريدية: (١٠٢) وما بعدها، شرح الصاوي على الجوهرة (١٠٨) جامع اللآلي: (٢١٣) وما بعدها.

معرفة
الله تعالى واجبة

اعلم أنَّ حدَّ الجهل: معرفة المعلوم على خلاف ما هو به(١). وحدُّ العلم: معرفة المعلوم على ما هو به، على ما ذكره ابن جماعة.

والعقلُ: غريزة يتبعها العلم بالضَّروريَّات عند سلامة الآلات(٢). واختلف في محلِّه، فقيل: الدِّماغ، ونُورُه في القلب، حتَّى يدرك الغائبات.

وكمالُه أن يُنجي صاحبه من ملامة الدُّنيا وندامة العُقبى. وقد قيل: إنَّ العقل حياة الأرواح، كما أنَّ الرَّوح حياة الأشباح(٣). وسئل عليٌّ رضي الله عنه عن معدن

ومـا عـذرٌ لِـذِي عَـقْـلٍ بـجـهـلٍ   بـخـلّاقِ الأسـافِـلِ والأَعـالـي

(١) وليس هذا الحد مانعاً لأن الجهل: هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه.
واعترض عليه بأن الجهل قد يكون بالمعدوم، وهو ليس بشيء، والجواب عنه: إنه شيء في الذهن. وينقسم إلى قسمين.
أ ـ جهل بسيط: وهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالماً.
ب ـ جهل مركب: وهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع.
ينظر: التعريفات: (٢٦).

(٢) والمقصود بالضروريات وجوب الواجبات وامتناع الممتنعات وإمكان الممكنات، والمراد جنس الضروري لأن العاقل قد يخلو عن بعض الضروريات.
وسلامة الآلات هي الحواس الظاهرة، والباطنة، وقيد بسلامتها لأن العلم لا يلزم العقل دون سلامتها. فالنائم عاقل ولا علم له. ينظر: النبراس: (١٤١).

(٣) أي الأجساد.

العقل فقال: القلب، وإشراقُه إلى الدِّماغ. وهو خلافُ ما ذكره الحكماء[1]، وقولُ عليٍّ رضي الله عنه أعلى عند العلماء[2]، ورد في بعض الأخبار أنَّ الجهل أقرب إلى الكفر من بياض العين إلى سوادها.

ثمَّ اعلم أنَّه سبحانه ركَّب العقل بلا شهوة في الملائكة، وركَّب الشَّهوة بلا عقل في البهائم، وركَّبهما في بني آدم، فمن غلب عقلُه على شهوته أُلحق بالملائكة، بل أكمل، ومن غلبت شهوتُه على عقله فهو في مرتبة البهائم، بل أسفل. ثمَّ قال[3]: والعقلُ يوجب المعرفة مع البلوغ، والجهلُ عذرٌ خلافاً للحنفيَّة والمعتزلة. انتهى.

والمعنى: أنَّه لا عذر لصاحب عقل ـ أي: كامل ـ بلغ مبلغ الرِّجال ـ أن يجهل صانعه الذي خلق السَّموات والأرضَ أي: العلويَّات والسُّفليَّات ـ الدَّالَّة على صانعها وخالقها ومبديها ومنشئها، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وكما قال بعض العارفين:

وفي كلِّ شيءٍ له آية ... تدلُّ على أنَّه واحد[4]

....

(١) ذهب الحكماء إلى أن العقل الإنساني من فيض العقل الفعال على النفس الإنسانية، فإن هذا العقل يجعل النفس قابلة لإدراك العلوم ويفيض العلوم عليها، فهو للنفس كالشمس للبصر في الرؤية ويرون أن العقل الفعال هو سيدنا جبريل المدبر لعالم العناصر.
ينظر: النبراس: (١٤٢) وما بعدها.

(٢) وإليه ذهب الإمام الشَّافعيِّ والإمام مالك وجمهور المتكلِّمين، كما قال الباجوري في التُّحفة: (٣٩٧).

(٣) أي ابن جماعة.

(٤) يروى هذا البيت عن أبي العتاهية وساق قبله:

فيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ينظر: الأغاني: (٤/ ٣٩)، المستطرف: (٢/ ٢٨٠).

وفي فطرة الخلق إثباتُ وجود الباري؛ كما قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]، وكما قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: «كلُّ مولود يولد على الفطرة»[١].

ويدلُّ عليه قضيَّة الميثاق[٢] أيضاً، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ولهذا لم يُبعث الأنبياء إلَّا للتَّوحيد، لا لإثبات وجود الصَّانع كما يُشعِر به قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فالكفَّارُ لم يكونوا شاكِّين في وجود الصَّانع، وإنَّما كفروا بالقول بتعدُّد الآلهة، متعلِّلين بأنَّ هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وإنَّهم ليقرِّبونا إلى الله زُلفى.

وخلاصة المسألة: أنَّ العاقل الذي لم تبلغه الدَّعوة هل يجب عليه الإيمان بالله تعالى أم لا؟ وإذا لم يؤمن هل يخلد في النَّار أم لا[٣]؟ وفيه خلاف بين مشايخ الحنفيَّة:

- فعن عامَّتهم نعم، وهو مرويٌّ عن الإمام أبي حنيفة، فقد روى الحاكم الشَّهيد[٤] في المنتقى عن أبي حنيفة أنَّه قال: لا عذر لأحد في الجهل بخالقه؛ لما

....

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين: (١/ ٤٦٥) برقم: (١٣١٩)، ومسلم في صحيحه كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٨/ ٥٢) برقم: (٦٩٢٦).

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(٣) صيغة السؤال بهذا الشكل تحتمل الخطأ في النحو والأصح أن يقال: «العاقل الذي لم تبلغه الدعوة أيجب عليه الإيمان بالله أم لا؟» وكذا: «أيخلد في النار أم لا».

(٤) أبو الفضل، محمد بن محمد بن أحمد، الشَّهير بالحاكم الشَّهيد، المروزيُّ البلخيُّ. ولي القضاء ببخارى، ثمَّ ولَّاه الأمير الحميد صاحب خراسان وزارته. سمع الحديث على أبي رجاء محمد بن حمدويه وروى عن أحمد بن حنبل. من تصانيفه: «المنتقى» و«الكافي» =

يرى من خَلْق السَّموات والأرض وخَلْقِ نفسه وسائرِ مخلوقات ربِّه. وعن أبي حنيفة أيضاً أنَّه قال: لو لم يبعث الله رسولاً لوجب على الخلق معرفتُه بعقولهم. وفي ظاهر الرِّواية عنه: أنَّه لو لم يعرف ربَّه ومات يخلد في النَّار.

ـ وقال أبو اليسر البزدوي[1] منهم: لا يجب عليه، ويُعذَر لو لم يؤمن. وبه قال الأشعريُّ، وهو رواية عن أبي حنيفة.

ـ ومنهم من قال بوجوبه عليه، إلَّا أنَّه لا يعذَّب به، كما هو رواية عن أبي حنيفة، فيكون عاصياً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: ١٥]، على أنَّ الجمهور حملوا نفي العذاب على عذاب الاستئصال في الدُّنيا، لا على العذاب في العقبى، وبعضُهم جعلوا الرَّسول ما يشمل العقلَ أيضاً.

وأجمعوا على أنَّه في أحكام الشَّرع معذور[2].

ثمَّ الصَّبيُّ العاقل إذا كان بحال يمكنه الاستدلال، هل يجب عليه معرفة الله أم لا؟

قال الشَّيخ أبو منصور وكثيرٌ من مشايخ العراق: تجب. وقال بعضهم: لا يجب عليه شيء قبل البلوغ، وأمَّا إذا أسلم قبل البلوغ يكون إيمانه صحيحاً، وارتدادُه يكون ارتداداً. وأمَّا الصَّبيُّ الذي لا يعقل لا يكون ارتدادُه ارتداداً وإسلامُه يكون إسلاماً.

....

= وهذان الكتابان أصلان من أصول المذهب بعد كتب الإمام محمد عند الحنفية. قُتل شهيداً سنة (٣٤٤) وقال الزركلي: (٣٣٤) الفوائد البهية: (٣٠٥)، الأعلام: (٧/ ١٩).

قال في كشف الظنون (٢/ ١٨٥١): المنتقى في فروع الحنفية، قال الحاكم: نظرت في ثلاثمائة جزء ـ أي: مؤلَّف ـ مثل الأمالي والنوادر، حتى انتقيتُ كتاب المنتقى.

(١) أبو اليسر، محمد بن محمد بن الحسين، البزدوي، صدر الإسلام، فقيه، ولي القضاء بسمرقند وانتهت إليه رئاسة الحنفية في ما وراء النهر، له كتب منها: «أصول الدين» توفي سنة (٤٩٣هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء: (١٩/ ٤٩).

(٢) أي: ما لم ينشأ في بلاد الإسلام، وإلا فلا يُعذر المرء بالجهل في بلاد الإسلام.

عدم قبول الإيمان عند الغرغرة

«حالَ بأس» بسكون الهمزة وإبداله وبالموحدة في أوَّله، ونُصِب «حالَ» على أنَّه ظرف.

ولم يقل «يأس» بالياء التَّحتيَّة لموافقة قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]. وأصلُ «البأس» الشِّدَّة والمَضَرَّة، والمراد به هنا: سكراتُ الموت ومعاينةُ العذاب، ويستوي فيه الإيمانُ والتَّوبة، كما هو ظاهر القرآن، حيث قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النِّساء: ١٨] وقد قال فيه البُغويُّ في تفسيره: إنَّه لا تُقبل توبةُ عاصٍ ولا إيمانُ كافرٍ إذا تيقَّن الموت[١]. ويؤيِّدُ ما قاله أنَّ من شرط التَّوبة عن الذَّنب العزمُ على أن لا يعود إليه، وذلك إنَّما يتحقَّق مع ظنِّ التَّائب التَّمكُّن من العود، وأيضاً فلا شبهة أنَّ كلَّ مؤمن عاص يندم عند اليأس، وقد ورد: «أنَّ التَّائب من الذَّنب كمن لا ذَنْب له»[٢] فيلزم منه أن لا يدخل أحد من المؤمنين النَّار، وقد ثبت أنَّ بعضهم يدخلونها، وأيضاً نحن مكلَّفون بالإيمان الغيبيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البَقَرَة: ٣] وذلك

وما إيمانُ شخصٍ حالَ بأسٍ بمقبولٍ لفقدِ الامتثالِ

واعلم أنَّ من بَلَغَ شاهق الجبل ولم تَبلُغه دعوة داعٍ، ولم يَعرِف الله تعالى حتى مات يخلّد في النار في أظهر الروايتين عند أبي حنيفة رحمة الله تعالى عليه، وإليه مال المشايخ العياضية[1] بسمرقند والله الموفق.

(١) معالم التنزيل: (٢/ ١٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد باب: ذكر التوبة: (٢/ ١٤١٩) برقم: (٤٢٥٠). والطبراني في الكبير: (١٠/ ١٥٠) برقم: (١٠٢٨١) والبيهقي في الكبرى: (١٠/ ١٥٤).

(1) كذا في الأصول.

الوقتُ لا يكون الإيمان الغيبي، فلا يصحُّ، وأمَّا ما أخرجه التِّرمذيُّ من حديث ابن عمر أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١) فيشمل توبةَ المؤمن والكافر، والمرادُ بالغرغرة هو حال اليأس ووقتُ البأس، وبعد تحقُّقِه لم يتصوَّر منهما الامتثال في الأفعال عقلاً ونقلاً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨](٢).

فقول الشَّارح القدسي: «وهذا بخلاف توبة العاصي للحديث المذكور» ليس في محلِّه، وكذا قولُ ابن جماعة وجزمُه في المسألة «بأنَّ إيمانَ الكافر إذا رأى موضعه من النَّار غير مقبول، وتوبة العاصي في تلك الحالة مقبولة» ثمَّ قال: فإن قلتَ: ما الفرقُ؟ قلتُ: انسحابُ حكم الإيمان. انتهى.

ولا يخفى أنَّ انسحاب حكم الإيمان لا يقتضي أنَّ حال اليأس تُقبل التَّوبة من العصيان، ومن القواعد أنَّ معارضة النَّصِّ بالدَّليل العقليِّ غيرُ مقبولة عند الأعيان.

وأمَّا قول الشَّارح: إنَّ عليه أئمَّة بخارى من الحنفيَّة وجمعاً من متأخِّري الشَّافعيَّة، كالسُّبكيِّ والبُلقيني، فعلى تقدير صحَّته يحتاج إلى ظهور حجَّته(٣).

....

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات باب: فضل التوبة والاستغفار: (٥/ ٥٤٧) برقم: (٣٥٣٧) عن عبد الله بن عمر، وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الزهد باب: ذكر التوبة (٢/ ١٤٢٠) برقم: (٤٢٥٣).

(٢) ومذهب الشيخ هنا هو مذهب الأشاعرة والشافعية والمالكية وهو أن توبة اليائس غير مقبولة كإيمانه.

(٣) ذهب بعض المتأخرين إلى أن العلماء اتفقوا أنه لا تقبل توبة العبد حين الغرغرة وهذا منقوض بما نقله الشيخ عن العلماء وبما هو ظاهر من كلام الأوشي رحمه الله بالكلام عن الإيمان فقط لا التوبة. وللمزيد ينظر: جامع اللآلي: (٢٢٥) وما بعدها، الدر المختار: (٢/ ٢٠٦).

أفعال الخير ليست من مسمى الإيمان

نصبه على الحال، والمعنى: ليست العبادات المفروضة محسوبةً من الإيمان، ولا داخلةً في أجزائه حالَ كونها مفروضاً وَصْلُها بالإيمان على وجه الاستحسان، فإنَّها وإن لم تكن من مفهوم الإيمان، إلا أنَّ الإيمان بها متحتِّم، والإتيان بها متَّصلةً فرض لازم؛ لأنَّها لا يعتدُّ بها بدونه باتِّفاق أهلِ الحقِّ.

وما قاله النَّاظم من أنَّ الأعمال غيرُ داخلةٍ في الإيمان هو ما عليه أكابر العلماء الأعيان، كأبي حنيفة وأصحابه، واختاره إمام الحرمين(١) وجمهورُ الأشاعرة لما مرَّ من أنَّ حقيقة الإيمان هو التَّصديق القلبي فقط، أو هو مع الإقرار باللسان. ومذهبُ مالك والشَّافعيِّ والأوزاعيِّ(٢)، وهو المنقول عن السَّلف وكثيرٍ من المتكلِّمين،

وما أفعال خير في حساب من الإيمان مفروض الوصال

واعلم أنَّ أفعال الخير ليست من جملة الإيمان، وإنَّما العبادات من أحكام الإيمان، والله تعالى فرَّق بين الإيمان والعبادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: 277] عطف العمل الصالح بالإيمان، والمَعطُوف غيرُ المَعطُوفِ عليه بإجماع النحاة، ولأنَّ النبي عليه السلام أمر بالحجِّ عن الميت ولم يأمر بالإيمان، حتى جاز إسقاط الصلاة والزكاة والصوم عن الميت المسلم، ولو

---

(١) أبو المعالي ركنُ الدِّين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجُوَيني، إمام الحرمين، الفقيه، رئيس الشافعية، أخذ عن والده وأبي القاسم الإسكاف له كتب منها: الإرشاد إلى قواطع الأدلَّة في أصول الاعتقاد. توفي رحمه الله بنيسابور سنة (٤٧٨)هـ، وفيات الأعيان: (٣/ ١٦٧)، طبقات الشافعية: (٣/ ١٨٤).

(٢) أبو عمرو، عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعيُّ إمام الدِّيار الشَّاميَّة في الفقه والزُّهد، وأحد الكتَّاب المترسِّلين. سكن بيروت ومات فيها سنة (١٥٧)هـ، له كتاب السنن في الفقه. شذرات الذهب (١/ ٢٤١)، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٩٨) رقم (٣٥٥).

ونقله في شرح المقاصد[1] عن جميع المحدِّثين، وشرحِ العقائد[2] عن جمهورهم، أنَّها داخلة في الإيمان، والظَّاهرُ كما قال بعض المحقِّقين أنَّ مرادهم أنَّها داخلة في الإيمان الكامل؛ لا أنَّه ينتفي الإيمانُ بانتفائها، كما هو مذهب المعتزلة والخوارج، فالنِّزاعُ في المسألة بين الفريقين من أهل السُّنَّة لفظيٌّ، وكذا ما تفرَّع عليه من زيادة الإيمان ونقصانه، مع الإجماع على أنَّ من آمن ومات قبل فَرْضِ عملٍ عليه أنَّه مات مؤمناً[3].

حكم من يقع بالمعاصي

العَهْر ـ بفتح العين المهملة ـ الزِّنا. و«الاختزال» الاقتطاع، والمراد: أخذُ مال الغير غصباً أو سرقةً، وفي معناه جميعُ مظالم العباد.

وهذا البيت بيان حكم الأفعال المحرَّمة، كما أنَّ البيت الأوَّل بيانُ حكم الأعمال الواجبة، فإيرادُ الواو في محلِّه، وليس هذا مبنيَّاً على ما قبله كما توهمَّه الشَّارح القدسيُّ وقال: «كان حقُّه التَّعبيرَ بالفاء بدل الواو»، نعم كان الأولى أن يُقدِّم القتل على العَهْر؛ ليكون التَّرتيب الذِّكريُّ على وفق التَّرتيب الرُّتبي.

مات الكافر وترك مِلءَ الأرض ذهباً وتُصدِّق عنه لَمَا نفع ذلك؛ لأنَّ الإيمان غير الطاعة ولو كانت مِن الإيمان لجاز قضاء الإيمان بعد الموت، لأنَّ الإيمان على الدوام والعمل ليس كذلك.

ولا يُقضى بكفر وارتداد   بِعهر أو بقتل واختزالِ

واعلم أنَّ العبد لا يكفر بفعل القبيح ما لم يَستحلّه.

---

(١) المقاصد في علم الكلام وشرحه كلاهما للعلامة سعد الدِّين مسعود بن عمر التفتازاني، (٢/ ٢٥٤).

(٢) شرح العقائد: (١٥٢).

(٣) ينظر: المسائل الخلافية: (١٠٦)، تحفة المريد: (١١٤) وما بعدها.

والمعنى: لا يُحكم بكفر أحد وارتدادِه بسبب ارتكاب زناً أو قتلِ نفس بغير حقٍّ أو سرقة ونحوها من الكبائر، وهذا مذهب أهل السُّنَّة، خلافاً للخوارج حيث يقولون بكفر مرتكب الكبيرة والصَّغيرة، وللمعتزلة فإنَّهم يقولون: لا يُقضى بكفرٍ ولا إيمانٍ، ويُثبتون المنزلة بين المنزلتين، ويسمُّونه فاسقاً، لا كافراً كالخوارج، مع أنَّهما قائلان بأنَّه مخلَّد في النَّار.

وقالت المرجئة والفلاسفة: إنَّ الذنوب لا تَضرُّ المؤمن بالإيمان، قياساً على أنَّ الحسنة لا تَنفع بالكفر، وقالت الخوارج: يَكفُر بفعل القبيح، وقالت المعتزلة: يَخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، فإن تاب يدخل في حيِّز الإيمان، وإن مات قبل التوبة دخل في حيِّز الكفر ويخلَّد في النار، واحتججنا بقوله: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النِّساء: 93] والخلود للكافر.

قلنا: صاحب الذنب مؤمن لا يَزول عنه إيمانه، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8] ولو كان المُذنِب كافراً لَمَا سمّاه الله تعالى مؤمناً، وقال عليه السلام[1]: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، وقال عليه السلام:[2] «التوبة تمحو الحَوبة»، وأقرَّ رجلٌ عند النبي عليه السلام بالزنا فلم يَأمُر بقَتلِه، فلو كان كافراً مرتدّاً لأَمر بقَتْلِهِ[3].

وجوابنا للمُرجئة: إنَّ الخوف والتوبة واجب؛ لأنَّ الله تعالى أمر عباده بالتقوى بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزُّمَر: 16] وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المائدة: 96] وقولهم: يوجب إسقاط العبودية وتعطيل الربوبية.

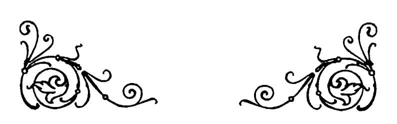
---

(1) أخرجه ابن ماجه كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، برقم: (4250) ورجاله ثقات. ينظر المقاصد الحسنة: (158)

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية: (1/ 270)، والحوبة: الإثم.

(3) عن ابن عباس: أن رجلاً من بكر بن ليث أتى النبي صلى الله عليه و سلم فأقر أنه زنى بامرأة أربع مرات، فجلده مائة. وكان بكراً. ثم سأله البينة على المرأة، فقالت: كذب والله يارسول الله! فجلده رسول الله صلى الله عليه و سلم حد الفرية ثمانين. أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب أقر الرجل بالزنا، برقم: (4467).
وعقوبة القتل على بعض المعاصي إنما هي حدود، ولا تنفي الإسلام عن مقترفها.

ونحن نقول: إنَّه عاصٍ تحت المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]، ولا نقول: إنَّ المعصية لا تضرُّ مع الإيمان، كما لا تنفع الطَّاعة مع الكفر، على ما ذهب إليه بعض أهل البدعة، وتبعهم الملاحدة والإباحيَّة والوجوديَّةُ[١].



وجوابنا عن الخوارج والمعتزلة: إنَّ الصحابة ومَن بعدهم من أهل التفسير أجمعوا أن المراد بالآية: استحلال القتل، وقال ابن عباس: لا نُسلِّم أن الخلود يُعبَّر به عن الأبد بل يُعبَّر به عن طول الزمان، وقد أجمع على هذا أرباب اللِّسان وأصحاب البيان، يقال: أخلد الأميرُ فلاناً في السجن: أي أطال حبسه قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 176] أي اطمأنَّ بها.

(١) ينظر: تحفة المريد: (٤٥١).

نية الكفر كفرٌ

«من» شرطيَّة، و«يصر» جوابها، و«الانسلال» الخروجُ بخفية.

والمعنى: إنَّ من ينوِ الارتدادَ بعد مدَّة، طالت أو قصرت، يخرج بذلك عن دين الحقِّ والإيمانِ المطلَق في الحال[1]، وإن قصد الاستقبال، لأنَّ استدامة الإيمان من واجبات الإيقان؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النِّساء: ١٣٦] أي: اثبتوا، فإذا أتى بما ينافيها ولو بالنِّيَّة فقد كفر اتِّفاقاً؛ ولأنَّ قصد الكفر ينافي التَّصديقَ ويُزيل التَّحقيق؛ ولأنَّه رضي بالكفر، والرِّضا بكفر نفسه كفرٌ إجماعاً، وإنَّما الخلاف في كفر غيره لقصد ضيره، لا لكونه استحساناً للكفر في نفسه، فقول الشَّارح القدسيِّ: الرِّضا بالكفر كفرٌ على المرجَّح ليس في محلِّه. وقد عُلم كفرُه بالأَوْلى فيما إذا نوى الارتدادَ في الحال أو بعد لحظة، كما لا يخفى.

ومـــن يـنـــوِ ارتـــداداً بـــعـــد دهـــر يَـصِـــرْ عـــن ديـــن حـــقٍّ ذا انـــســـلالِ

واعلم أنَّ مَن نوى الكفر يكفر في الحال؛ لأنَّ الهمَّ بالكفر يُزيل التَّصديق، وإذا زال التصديق صار منافقاً، والله تعالى عفا عمَّا دون الشرك لا عن الشرك، والهمُّ

(١) التُّروك تحصل بمجرَّد النِّيَّة، بخلاف الأفعال، كالإقامة والسَّفر، فإنَّ المسافر يصير مقيماً بمجرَّد نيَّة الإقامة، لأنَّها ترك السَّفر، والمقيم لا يصير مسافراً إلا بالخروج لأنَّه فِعْل، فكذا الإسلام والكفر، فالمسلم يصير كافراً بمجرَّد النِّيَّة، والكافرُ لا يصير مؤمناً بمجرَّد النيَّة، بل لا بدَّ من النُّطق، لأنَّ الإسلام فِعلٌ، وكذا لو خَطَر بباله أنَّه لو أكرهه العدوُّ على كلمة الكفر لأجراها على لسانه وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان كفر من ساعته؛ لأنَّه رضي بإجراء كلمة الكفر على لسانه من غير إكراه، فصار نظير ما لو نوى أن يكفر في المستقبل. ينظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم: (١٥) وما بعدها.

ثمَّ اعلم أنَّ قَصْد الكفر كفرٌ وهو غيرُ معفوٍّ بالإجماع؛ لأنَّ الله سبحانه يعفو عمَّا دون الشِّرك، لا عن الشِّرك، بلا نزاع، بخلاف قصد السَّيِّئة فإنَّه سيئة ولكنَّها معفوَّة بوعد الله سبحانه وتعالى، لقوله ﷺ: «من هَمَّ بسيِّئة فلم يعملها لم يُكتب عليه شيء، فإن عَمِلها كتبت عليه سيِّئة واحدة»[١] وهذا عند أهل السُّنَّة، وقالت المعتزلة والخوارج: ليست معفوَّةً كالـهَمِّ بالكفر.

ثمَّ الهَمُّ الذي لم يكتب عليه؛ ما خطر بباله ولم يعزم على ارتكابه، وإلَّا فالمحقِّقون على أنَّه يكتب عليه، لكنَّه مع هذا قابل أن يعفو الله عنه، وأنَّه تحت المشيئة، بخلاف قَصْد الكفر وعزمه، وأمَّا خطراتُه فلا تضرُّ كما يشير إليه الحديث: «وهذا صريح الإيمان»[٢] أو «محضه»[٣] «والحمدُ لله الذي ردَّ أمر الشَّيطان إلى الوسوسة»[٤].

بالكفر غير معفوٍّ بالإجماع، وأمّا الهمُّ بالسيئة فإنَّه مفعوٌّ عند أهل السُّنَّة؛ لقوله عليه السلام[1]: «مَن همَّ بالسيئة لم تُكْتَبْ، وإن عَمِلَها كُتبت له واحدة».

قالت المعتزلة: ليست بمعفوٍّ كالهمِّ بالكفر، بناءً على أنَّ المعصية كفر عندهم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (١/ ٤٥١) برقم: (١٦٢) ضمن حديث طويل، إلا أنَّه قال: «لم تُكتب شيئاً» وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب: ما جاء في الطاعات: (٢/ ١٠٧) برقم: (٣٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان (١/ ١١٩) برقم: (١٣٢) ولفظه: عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبيِّ ﷺ فسألوه إنَّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلَّم به قال: «وقد وجدتموه»؟، قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان».

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: بيان الوسوسة في الإيمان، (١/ ١١٩) برقم: (١٣٣) عن عبد الله قال: سئل النبيُّ ﷺ عن الوسوسة فقال: «تلك محض الإيمان».

(٤) أخرجه غير واحد بألفاظ متغايرة، منهم من قال: «الحمد لله الذي ردَّ أمره إلى الوسوسة» ومنهم من قال: «ردَّ كيده». أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: التكليف (١/ ٣٦٠) (١٤٧)، وأبو داود في سننه كتاب الأدب باب: رد الوسوسة: (٢/ ٧٥١) برقم: (٥١١٠)، وأحمد: (١/ ٢٣٥) برقم: (٢٠٩٧).

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب إذا هم العبد بالحسنة، برقم: (354).

حكم
التلفظ بألفاظ الكفر

الباء في بـ «طوع» للمعيَّة، وفي بـ «اغتفال» للسَّببيَّة، و«رَدُّ» مرفوع على أنَّه خَبَر لـ «لفظ»، والمعنى: أنَّ إجراء لفظ الكفر ومبناه على اللِّسان، من غير اعتقاد اللَّفظ بمعناه، مع طواعيةٍ وعدم كراهيَّته النَّاشئة عن موجِب إكراه ذلك الكلام، حالَ كونه متلبِّساً بالغفلة عن ذلك المرام، رَدٌّ لدين الإسلام، وخروجٌ عن دائرة الأحكام، وهذا ما عليه أئمَّةُ الحنفيَّة، لما سبق من أنَّ المختار عند بعضهم أنَّ الإيمان هو التَّصديقُ والإقرارُ، فبإجراء الكفر على اللِّسان يتبدَّل الإقرارُ بالإنكار، وذلك كفرٌ عند العلماء الأبرار.

وقال الشَّارح الحنفيُّ: يكفر عند عامَّة العلماء، ولا يُعذر بالجهل، وقال بعضهم: لا يكفر ويعذر بالجهل، ثمَّ قال: والأصحُّ أنَّه لا يكفر، وعليه الفتوى انتهى.

والظَّاهر أنَّ هذا إذا تكلَّم بكلمة عالماً أنَّها كلمة كفر، غيرَ معتقد لمعناها، أمَّا من تكلَّم بكلمة كفر، ولم يَدْرِ أنَّها كلمة كفر، ففي فتاوى قاضيخان[1] حكايةُ

ولـفـظ الـكـفـر مـن غـيـر اعـتـقـاد بـطـوع ردُّ ديـنٍ بـاغـتـفـالِ

واعلم أنَّ من تلفَّظ بلفظ الكفر عَمداً يكفر وإن لم يعتقد الكفر، ويُحبِط الله عمله، وتقع الفرقة بين الزوجين، ويُجدَّد النكاح برضاء الزوجة إن كان الكفر مِن الزَّوج، وإن كان من الزوجة تُجبر على النكاح، وهذا بعد تجديد الإيمان والتَّبرِّي

(١) الحسن بن منصور بن محمود الأوزجندي الفرغاني الحنفي، المعروف بـ «قاضيخان»، فقيه مجتهد في المسائل، من كتبه: الفتاوى، وشرح الجامع الصغير. توفي سنة (٥٩٢)هـ. ينظر: الطبقات السنية: (٢٤٣).

خلاف من غير ترجيح، حيث قال: قيل: لا يكفر لعذره بالجهل، وقيل: يكفر ولا يعذر بالجهل.

وقال العزُّ بن جماعة: اختلف في التَّلفُّظ بالكفر من غير اعتقاد ولا إكراه، فقيل: يكفر بذلك، وقيل: لا، فلو كان عن إكراه فلا يكفر اتِّفاقاً انتهى. ومفهومُ كلامه أنَّه إذا كان عن اعتقادٍ كَفَر اتِّفاقاً، كما ذكرهما الشَّارح القدسيُّ عنه بالمعنى دون المبنى، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: ١٠٦].

من لفظ الكفر، حتّى مَن أتى بكلمة الشهادة عادةً دون التَّبرِّي عنه لا يرتفع الكفر عنه، ويكون وطئه زنا، وولدُهُ ولد الزنا. وقال الشافعي:[1] إن مات بالكفر حبط عمله، وإن نَدِمَ وجدَّد الإيمان لم يحبط، ولا يلزمُه تجديدُ النكاح.

وبيانه في إحباط العمل: إذا ارتدَّ الرجل ـ والعياذ بالله تعالى ـ بعدما صلَّى صلاة الوقت، ثُمَّ أسْلَم في الوقت يقضيها عندنا، وعنده لا يقضي.[2] وقيل: لولا قول الشافعي لحُكم العَوام كلّهم أولاد زنا؛ لأنَّ ألفاظ الكفر لا تخلُ مِن ألسنتهم، ومَن جَرَى على لسانه كلمة الكفر عن غير قصد لا يكفُر، نصَّ على ذلك النبي عليه السلام، وقد بيَّن العلماء ألفاظ الكفر في ثلاثة فصول:

في فصل: يكفر بالإجماع، وفي فصل: بخلافٍ بينهم، وفي فصل: يُخشى عليه الكفر، وبيَّنوا الخطأ في فصل، والكلام القبيح في فصل.

الفصل الأول:

مَن تكلَّم كلمة الكفر فضحك غيره ورضي بكفره، أو وَصَفَ الله بما لا يليق، أو سَخِرَ باسمه أو أمره، أو أنكر وعده أو وعيده، أو فلان في عيني كيهوديٍّ في عين الله، أو قال: يدُ الله وأراد به اليد المعروفة، قال: الله في سماء العالَم، أو

(1) ينظر الأم: (1/ 297).

(2) ينظر الأم: (1/ 89).

ثمَّ في إطلاقه الإكراه نَظَرٌ لا يخفى، ففي فتاوى قاضيخان تفصيلٌ حسن، وهو أنَّه إن أُكره بقيد أو حَبْس فتلفَّظ بذلك كَفَر، أو بقَتْلٍ أو إتلافِ عضوٍ أو ضرب مؤلم، فتلفَّظ بذلك وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان لا يكفر استحساناً، يعني: وكان القياس أن يكون كفراً؛ لأنَّه إنكارٌ مبطل لما سبق منه من إقرار.

على العرش وأراد به المكان، أو قال: يَنظُر إلينا ويُبصرنا من السماء، أو قال: هو في السماء أو على الأرض ولا يَخلُ منه المكان، أو قال: هو فوقك وأنت تحته، أو قال: أنصفِ الله يُنصِفك يوم القيامة، أو قال: هو قائم أو نازل أو جالس للإنصاف، أو قال: افعل هذا بلا «إن شاء الله»، أو قال: هو في نسيان الله، أو قال: يا ربّ اكفِنا رأساً برأس، أو قال: أنا كافر أو بريء من الله تعالى، أو مِن النبي صلى الله عليه وسلم، أو مِن القرآن أو مِن حدود الله أو مِن الإسلام أو من الشرائع ولم يعلِّق بشيء، أو قال: يمينك والضراط سواء، أو قال له الخصم: أحاكمك بحُكم الله: فقال لا أعرف الحُكم أو لا يجري الحُكم ها هنا، أو دبّوس إيش يعمل الحكم، أو قال: أنت أحبُّ إليّ من الله، أو مِن النبي، أو مِن الدِّين، أو قال لو كنتُ إلهاً لأخذتُ ظُلمي منك، أو قال: الله ظَلَمَني أو هو ظالم، أو قال: الله فعل الإحسان في جميع الخلق والسّوء في حقِّي، أو قال: هو كالإله، أو قال: هو في ستِّ جهات، أو هو يوجد في كلِّ مكان، أو أنكر أو شكَّ في الله أو في آياته أو سخرها، أو قرأ القرآن على ضرب دُفٍّ أو مزمارٍ وغيره، أو قال ذهبت بجلد قل هو الله أحد، أو قال: هذا أقصر من إنا أعطيناك الكوثر، أو قال من قرأ عند مريض ﴿يس﴾ لم يصحَّ، أو قال: افعل كلَّ يوم مثلك من الطين، أو قال: إنِّي أحبُّ الخمر ولا أصبرُ عنها، يكفر في هذه المسائل كلِّها.

وينبغي أن يَتعوَّذ المسلم بهذا الدعاء صباحاً ومساءاً فإنَّه سبب النجاة من الكفر بوعد النبي ﷺ:[1] «اللهم إني أعوذ بك مِن أن أُشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم».

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الدعاء، برقم: (738)

ما يتفرع عن الردة

ثمَّ من فروع الارتداد: أنَّه يُبطل أعماله الصَّالحة، وتقع الفُرقة بينه وبين امرأته ولو جدَّد الإيمان[1]، بخلاف مذهب الشَّافعيِّ فإنَّه لا يُبطلها إلَّا بالموت على الكفر، ففي مذهبِنا يجب عليه إعادة حَجَّة الإسلام؛ لأنَّ وقت الحجِّ ممتدٌّ إلى آخر

الفصل الثاني:

من قال: أنا بريء مِن الله أن أفعل كذا، ثُمَّ فَعَلَ حَنَثَ ولا يكفر، ولو قال إن فعلتُ كذا وقد فعله، قيل: إن كان عالِماً لا يكفر، وإنْ كان جاهلاً يكفر، وأمّا مَن رَضِي بكفر غيره أو قال: الله ظلمك كما ظلمني، أو قال: الله يعلم أنِّي لم أفعل كذا وهو قد فعل، أو قال لخصمه لا أريدُ يمينك بالله بل أريد الطلاق والعتاق، وقيل له: أحسِن كما أحسن الله إليك، فقال الخصم: الله لماذا أعطاني لأنْ أُعطيَك؟ أو قال المعوذتان ليستا من القرآن، أو قال لشَعرِ النبي عليه السلام: شُعَيرة، أو قال: لو لم يأكل آدم الحِنطة لَمَا وقعنا في هذا البلاء، أو ردَّ حديث النبي صلى الله عليه وسلم، أو قال بعد أكل الحرام: الحمد لله، أو قيل له: قل لا إله إلا الله فقال: لا أقول، أو قيل له: صلِّ فقال: لا أصلي أو أصلي بغير طهارة، أو قيل له: زكِّ فقال: لا أُؤدِّي، أو قالت امرأة لزوجها: يا كافر قال إن كنت كذلك لا تسكُنِي مَعي، أو لمَ تصحبيني؟ أو وضع على رأسه قُلُنسُوة المجوس بلا ضرورة، أو قال: المجوسي خيرٌ من النصراني أو على العكس وغيره. . ، أو قال: آخُذُ حقِّي يوم الحشر، فقال: إيش شغلك مع الحشر؟ أو قال: أين تجدني في ذلك الجمع؟ أو قال: أعطني عشراً أو خذ عشرين، أو قال: الكفر خيرٌ ممَّا تفعل، أو قال أطيب الحال أن لا أصلّي، أو أسجد لفلان، أو قبَّل الأرض وهو قريب من السجود، أو قال: ما دام هذا الذهب معي لا يَنقُص مِن رزقي. ففي هذه المسائل قال بعضهم: يكفر، وقال بعضهم: لا يكفر.

---

(١) ينظر: المبسوط: (٤/ ٦٠)، الاختيار: (١/ ٣٣)، بدائع الصنائع: (٦/ ١٨٧).

العمر، وكذا إذا أسلم في آخر الوقت وقد ارتدَّ في أوَّله بعد أداء صلاته، فإنَّه يجب عليه إعادة تلك الصَّلاة. وأمَّا قضاءُ الصَّلوات ونحوها الواقعةِ في أيَّام الارتداد، فلا يجب اتِّفاقاً.

الفصل الثالث:

إذا شَتَمَ الرجل واسمه من أسماء النبي عليه السلام فقال: يا ابن الزانية وهو ذاكرٌ النبي عليه السلام، أو قال له: الفقيه وجهاً شرعياً فقال: هذا عمل الفقهاء وَيعمَل معي عَمَلَ السفهاء، أو من أبغض عالماً من غير سبب ظاهر، أو سمع الأذان والقرآن فتكلَّم كلام الدنيا، أو قال لعالم هو آكل الربا، أو قال له: وجهه كوجه الخنزير، أو قال: أريد المال سواء كان حلالاً أم حراماً، أو قال: أحبُّهما إليَّ أيُّهما أسرعُ وصولاً، أو قال: ما نقص من عمر فلان إلا زاد الله في عمرك، أو قال: من ليس له درهم لا يساوي درهماً. ففي هذه المسائل يُخشى عليه الكفر.

فصل في الخطأ:

لو قال: يد الله طويل وعنى به القدرة، أو قال: إنَّ الله يطلع في السماء أو مِن العرش، أو قال: بين يَدَي الله، أو قال: يا رب لا تَرضَ هذا الظلم، أو قال: وصل فلاناً قضاءُ سوءٍ، أو قال: لا تخف مِن الله حالة الظلم، أو قال في التعزية: مصيبةٌ كبيرةٌ، أو قال: يا رب أعطيتَ واحداً وأخذته، أو قال: تأخذ ممَّن له واحد ولا تأخذ ممَّن له عشرة، أو قال: أَعملُ عمل العبد وآكل أكل الحرّ، أو قال: الفقر شقاوة. فهذه المسائل خطأ لا يكفر.

فصل في الكلام القبيح:

[إن قال] ها الله أو ها أنت يا رب، أو قال: أرى هذا من الله ومنك؛ هذا كلام قبيح بخلاف ما لو قال: أرى من الله، والسبب منك فهو حَسَن، وتقبيل يد العالم والزاهد يجوز برجاء الثواب عند أبي يوسف وعند محمد يكره[1]، وتقبيل يد صاحب الدنيا والأحباء في حالة التحية يكره، وكذلك تقبيل يد نفسه؛ لأنه من رسوم الجاهلية.

---

(1) في (ب) (وعندهما يكره)

حكم ما يجري على لسان السكران من ألفاظ الكفر

«لا» ناهية، و«يحكم» بصيغة المجهول، وقيل: بالمثنَّاة الفوقيَّة خِطاباً، وفي نسخة بصيغة المتكلِّم، ونصب «حال» على الظَّرف، و«ما» مصدريَّة و«يهذي» بفتح المضارعة وكسر الذَّال المعجمة من الهذيان؛ وهو الكلام السَّاقط الاعتبارِ في ميدان البيان، وفي معناه اللَّغو، فإنَّه الكلام الباطل. و«الارتجال» بالجيم هو القول بديهةً، من غير أن يكون له من قَبْله تهيئةٌ ورَوِيَّة، وباؤه متعلِّق بـ «يهذي» أو «يلغو»، وفاعلُهما السَّكران، فإنَّ المذكور معنى كالمذكور مبنى، والمعنى: أنَّه لا يحكم بكفر إنسان بسبب ما يجري على لسانه من كلمة الكفر حالَ سكره، دونَ تأمُّل في أمره.

والنَّاظم أطلقه، وفي فتاوى قاضيخان تفصيلُه حيث قال: فإن كان يَعرِف الخير من الشَّرِّ، والسَّماءَ من الأرض، فيحكم بكفره، وإلا فلا. وذهب ابن جماعة وشارحٌ من الحنفيَّة إلى إطلاقه وعدم تكفيره، من غير نظر إلى اختلاف حاله، قيل: وهو المشهور عن الحنفيَّة، بدليل أنَّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، على ما ورد في الصَّحيح ويؤيِّدُه: أنَّه قرأ بعض الصَّحابة وهو سكران «أعبد ما تعبدون»[1] وصار سبباً لتحريم السُّكر حالَ الصَّلاة.

ولا يحكم بكفر حال سكر بما يهذي ويلغو بارتجال

واعلم أنَّ السُّكر بمنزلة الجنون إلا في الطلاق والعتاق عندنا، وإذا تكلم بلفظ الكفر لا يُحكَم بالكفر؛ لأنَّ الله تعالى سماه مؤمناً لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النِّسَاء: 43] فإن تاب، تاب الله تعالى عليه، وإن مات سكراناً أو مفيقاً مات عاصياً نرجو له ونخاف عليه. والله الموفق.

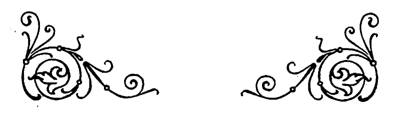
---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٤/ ١٥٩) (٧٢٢٢)، والترمذي في سننه كتاب التفسير، باب: ومن سورة النساء (٣٠٢٦)، والبزار في مسنده (٢/ ٢١١) (٥٩٨)، والطبراني في الصغير =

ونقل الشَّارح أيضاً عن أبي حنيفة: أنَّ ردَّة السَّكران لإتيانه بحقيقة الرِّدَّة، قال القدسيُّ: وهذا مذهب الشافعي، ونقل الشَّارح أيضاً أنَّ السَّكران هو الذي لا يعرف الرَّجلَ من المرأة عند أبي حنيفة، ثمَّ قال: واعلمْ أنَّ السُّكر على نوعين:

ـ سُكرٌ بطريق مباح، كشُرب الدَّواء والسُّكر بالبنج وبما يُتَّخذ من الحبوب والعسل، فلا يقع طلاقه ولا عِتاقه، ولا ينفذ جميع تصرُّفاته؛ لأنَّه ليس من جنس اللَّهو فصار من أقسام المرض.

ـ وسكرٌ بطريق محظور، كشرب الخمر والنَّبيذ، فتلزمُه أحكامُ الشَّرع وتنفذ تصرُّفاتُه كلُّها، إلا الرِّدَّة استحساناً.



= (٢/ ٤٤) (٧٥١)، والحديث بتمامه كما ذكره الحاكم: أنَّ عبد الرحمن صنع طعاماً فدعا ناساً من أصحاب النبيِّ ﷺ فيهم علي بن أبي طالب، فقرأ «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن عابدون ما عبدتم» فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النِّساء: ٤٣].

إطلاق لفظ الشيء على الموجود

«ما» بمعنى ليس، والمراد بالفقه هنا الفهم، ويصحُّ أن يراد به الدَّليل، واللام فيه للتَّعليل، وهو متعلِّق بمقدَّر نحو: قلت، و«لاح» بمعنى ظهر، و«اليمن» ـ بضمِّ الياء ـ البركة.

والمعنى: ليس المعدومُ مرئيًّاً لله تعالى ولا شيئاً، بمعنى: أنَّه لا يُطلَق عليه أنَّه شيء مطلَقاً، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مَريَم: ٩] وهو لا ينافي كونَه مقيَّداً، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسَان: ١] وقلت ذلك جازماً بما هنالك؛ لأجل فَهْم ظهر لي ظهوراً بيِّناً كما في الهلال المبارك الحال.

وفي المسألة خلاف المعتزلة[1]، مستدلِّين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحَج: ١] على خلاف أنَّها يوم القيامة كما قال الحسن[2]

وما المعدوم مرئياً وشيئاً لفقه لاح من ضوء الهلال

واعلم أنَّ المعدوم ليس بمرئي ولا شيء، ولا يجوز أن يقال للمعدوم شيء.

---

(١) المعدوم عند المعتزلة شيء؛ وهو جوهر وعَرَض إلا أنَّه غير موجود، فالأشياءُ عندهم قبل وجودها ثابتة في نفسها، إلا أنَّها مستترة كاستتار الثَّوب في الصَّندوق، ولذلك يقولون: إنَّ الحقائق ليست بجَعْل جاعل، ولم تتعلَّق القدرة إلا بظهورها؛ لاستتارها قبل ذلك.
وعندنا أهلَ السُّنَّة: أنَّها بجعل جاعل، تعلَّقت القدرة بوجودها لعدم ثبوتها قبل ذلك. ينظر: شرح الصاوي: (٤١٤) وتحفة المريد: (١٢١).

(٢) أبو سعيد، الحسن بن يسار البصري كان إمام أهل البصرة وحبر الأمَّة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشُّجعان النُّسَّاك. شبَّ في كنف علي بن أبي طالب، وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الله لومة لائم. توفي سنة (١١٠)هـ. الأعلام: (٢/٢٢٦).

والسُّدِّي[١]، أو قبل يوم القيامة وهي من أشراطها، كما قال علقمة والشَّعبيُّ[٢] وابنُ جريح. وقال مقاتل: تكون قبل النَّفخة الأولى.

وأجيب عنه: بأنَّ معنى الآية ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجّ: ١] تكون شيئاً عظيماً عند وجودها، وبأنَّها لمَّا كانت أمراً متحقِّق الوقوع في علمه سبحانه صارت كأنَّها موجودة في الحال. والله أعلم بالأحوال.

قيل: والتَّحقيق في هذه المسألة ما ذهب إليه المحقِّقون من أنَّ الشَّيئيَّة تُرادف الوجودَ، والعدَمَ يرادف النَّفي، فالحكمُ بكون المعدوم ليس بشيء ضروريٌّ، ويؤيِّدُه ما حكى شارح المواقف من أنَّ أهل اللُّغة في كلِّ عصر يُطلقون لفظ الشَّيء على الموجود، حتَّى لو قيل لهم: الموجودُ شيءٌ تلقَّوه بالقبول، ولو قيل: ليس بشيء قابلوه بالإنكار. انتهى.

وقيل: النَّزاع لفظيٌّ، فإنَّ مرادهم بالمعدوم الشَّيءُ الثَّابتُ المتحقِّق نفيُه.

وقالت المعتزلة: هو شيءٌ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجّ: 1] والزلزلة معدومة فسمى الله المعدوم شيئاً.

ونقول: معناه تكون الزلزلة شيئاً عظيماً وقت وجودها، فإن قيل: المعدوم يسمى معلوماً عند الله تعالى فلمَ لا يسمى شيئاً؟.

قلنا: لو لم نسمِّه معلوماً لوصِفَ الله بالجهل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

---

(١) أبو محمد، إسماعيل بن عبد الرحمن ابن أبي ذؤيب السدي الكبير الحجازي ثم الكوفي الإمام المفسر، راوي قريش، روى عن أنس بن مالك وابن عباس وغيرهما، توفي سنة (١٢٧هـ).
ينظر: الوافي بالوفيات: (٣/ ٢١٩)، مشاهير علماء الأمصار: (١٧٨)..

(٢) أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشَّعبي الحميري تابعي جليل القدر وافر العلم، يضرب المثل بحفظه. سئل عمَّا بلغ إليه حفظه فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدَّثني رجل بحديث إلا حفظته. استقضاه عمر بن عبد العزيز، وكان فقيهاً شاعراً توفي رحمه الله في الكوفة سنة (١٠٣)هـ. تهذيب التهذيب: (٣/ ٤٦)، حلية الأولياء: (٤/ ٣١٠).

ثمَّ اعلم أنَّ هذه المسألة من أشهر مسائل الخلاف بين أهل السُّنَّة والمعتزلة، إلَّا أنَّ محلَّ الخلاف المعدومُ البسيطُ الممكنُ الوجود، وأمَّا المعدوم الممتنعُ الوجودِ لذاته، كاجتماع الضِّدَّين، فليس شيئاً ولا يُرى بلا خلاف.

وقال العزُّ ابن جماعة: اشتمل هذا البيت على قاعدتين:

الأولى: أنَّ الله هل يَرَى المعدومَ أم لا، فمذهب الحنفيَّةِ الثاني، ومذهبُ المعتزلة الأوَّل.

والثانية: أنَّ المعدوم هل هو شيءٌ أم لا، فمذهبُ أهل السُّنَّة الثاني، ومذهبُ المعتزلة الأوَّل(١). والله أعلم.

«غيران» بكسر النُّون تثنيةُ «غير»، و«التَّكوينُ» الإيجاد، و«المكوَّن» بفتح الواو الموجود، وهما متغايران؛ لأنَّ المسبَّب غيرُ المسبِّب، والفعلَ غيرُ المفعول، قال ابن جماعة: وهذا عند أهل السُّنَّة، خلافاً للمعتزلة، فإنَّهما شيء واحد عندهم. ثمَّ الضَّمير في «خذه» راجع إلى ما قاله من المكوَّن والتَّكوين متغايران، وأكَّد ذلك بقوله: «لا كشيء» أي: لا متَّحدان، وجعل هذا القول بمنزلة الكُحل لتنويره عينَ البصيرة من عمى الجهل بهذه المسألة.

وغيرَانِ المُكَوَّنُ لا كَشيءٍ مع التَّكوِينِ خُذهُ لاكتِحَال

واعلم أنَّ التَّكوين غيرُ المُكوَّن عندنا وهو إيجاد الشيء من العدم، وهو أزلي؛ لأنه صفة الخالق، والمكوَّن حادث صفة المخلوق.

---

(١) ويمكن القول بأن المعدوم ظاهراً والذي سيوجد بعلم الله سبحانه وقدرته ـ سواء أعلمناه وأدركناه أم لا ـ يصح أن يقال عنه «شيء» لأنه متحقق الوقوع وهذا يتعلق بالممكنات.
أما المعدوم الذي لم يوجد ولن يوجد فلا يصح أن يطلق عليه أنه شيء ويؤيده ما قاله في شرح العقائد من أن المعدوم ليس شيئاً إن أريد بالشيء الثابت المتحقق وبالمعدوم خلافه، شرح العقائد بتصرف: (١٩٧).

فاعلم أنَّ التَّكوين أثبته علماؤنا الحنفيَّة صفةً لله تعالى زائدةً على القدرة والإرادة، وقالوا بقِدَمه، وفسَّروه بإخراج المعدوم من العدم إلى الوجودُ، والمراد مبدأ الإخراج لا نفسه؛ لأنَّ نفس الإخراج وصفٌ إضافيٌّ في حادث وقديم.

ونسب قول المعتزلة إلى الأشعريِّ أيضاً، لكن العلَّامة التَّفتازاني ردَّ نسبة ذلك على ظاهره إليه، وحمل كلامه على محمل صحيح لديه، فقال: من قال: «إنَّ التَّكوين عينُ المكوَّن»، أراد أنَّ الفاعل إذا فعل شيئاً فليس ههنا إلَّا الفاعلُ والمفعول، وأمَّا المعنى المعبَّر عنه بالتَّكوين، فهو أمر اعتباريٌّ يحصل في العقل من نسبة الفاعل إلى المفعول، وليس أمراً محقَّقاً مغايراً للمفعول في الخارج، ولم يُرِد أنَّ مفهوم التَّكوين هو بعينه مفهوم المكوَّن. وهذا خلاصة ما في كلامه من شرح المقاصد والعقائد[1]، وقد سبق شرح قوله: «وفي الأذهان حق» البيت المذكور ههنا على ما في بعض النسخ.




وقال أهل الأهواء: إنَّ التكوين عين المكوَّن، والفعل عين المفعول، والضرب عين المضروب، والقتل عين المقتول، وهذا ظاهر البطلان والفساد.

---

(١) شرح العقائد: (٩٥) وما بعدها.

إطلاق لفظ «الرزق» على الكسب الحلال والحرام

«السُّحت» بضمِّ السِّين وسكون الحاء ويضمُّ، هو الحرام بل أشدُّه. و«الحِلّ» بكسر الحاء الحلال. و«المقال» مصدر ميمي بمعنى القول أو المقول. و«القالي» المبغض، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٣].

والمعنى: الحرامُ مرزوق مثل الحلال؛ لأنَّ الرِّزق ما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان لينتفع به، حراماً كان أو حلالاً.

وفي المسألة خلاف المعتزلة مستدلِّين بأنَّه مستند إليه سبحانه في الجملة، والمستندُ إليه يَقبحُ أن يكون حراماً يُعاقبون عليه.

وأجيب بأنَّه لا قبيح بالنِّسبة إلى الله تعالى؛ لأنَّه يفعل ما يشاء في ملكه، ويحكم ما يريد في ملكه، وعقابهم على الحرام لِسُوء مباشرتهم أسباب الأحكام،

وإنَّ السُّحتَ رزقٌ مثلُ حِلٍّ وإن يكره مقالي كلُّ قالِ

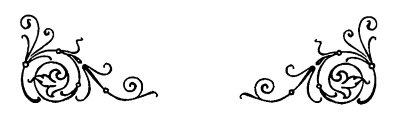
قال أهل السنة: كلُّ ما يأكله الإنسان فهو رِزقه حلالاً كان أو حراماً.

وقالت المعتزلة: الحرام ليس برزق، وهذا الاختلاف بناءً على أنَّ اسم الرزق عندنا يطلق على ما يَتغذَّى به الحيّ، وعندهم للمِلكِ خاصة وهو فاسد، لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: 6] والدواب لا يتصور لها الملك، فإن قيل: إذا كان الحرام رِزقَ الله تعالى فلمَ يُعاقَبُ آكلَهُ؟.

قلنا: يعاقب بسبب طَلَبِه مِن غير وَجْه حلِّه؛ لأنَّه تعالى أمر بأكل الحلال، لقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البَقَرَة: 168] فبطلبه من الحرام يعاقب. والله الموفّق.

مع أنَّه يلزم المعتزلةَ أنَّ المنتفع بالحرام طُولَ الأيَّام في عمره لم يرزقه الله أصلاً، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦][١].

ثمَّ اعلم أنَّ هذا البيت في بعض النُّسخ موجود دون غيره.



ورزق العبد يطلبه حثيثاً كما الأجل المسمّى ذو اغتفال

قال بعض المتكلمين: كلُّ أحدٍ يطلب رزقه فلا يَحصل دون الطَّلب.

وقال أهل السنة: الرِّزق يَطلب صاحبه كما يَطلبه أجله، لقوله عليه السلام[1]: «إن الرزق ليطلب الرجل كما يطلبه أجله».

---

(١) وهذا مبني على أصلهم في التحسين والتقبيح. ينظر: الهادي في أصول الدين: (١٩٠)، البداية: (٧٥).

---

(1) أخرجه ابن حبان كتاب الزكاة، باب ما جاء في الحرص، برقم: (3238)

عالم البرزخ
فصل في سؤال القبر

«الأجداث» ـ بالجيم والمثلَّثة ـ القبور، جمع جَدَث بفتحتين. و«سيُبلى» صيغة مجهول من البلاء ـ بفتح ومدٍّ ـ بمعنى يُمتحن، وهو متعلَّق المجرورات كلِّها. قال ابن جماعة: يشير إلى أنَّ سؤال مُنكَر ونكير حقٌّ يجب الإيمان به، وقد أجمع عليه أهلُ السُّنَّة، خلافاً للجهمية وبعض المعتزلة. انتهى.

ومعنى البيت: إنَّه سيختبر كلُّ شخص في قبره أو مقرِّه[١] بالسُّؤال عن ربِّه ودينه ونبيِّه، كما ورد في الحديث الصَّحيح: «فيقول المؤمن: ربِّي الله، وديني الإسلام،

وفـي الأجـداث عـن تـوحـيـد ربـي سـيـبـلـى كـل شـخـص بـالـسـؤال

واعلم أنَّ سؤال منكر ونكير للميت حقٌّ في القبر عن ربه ودينه ونبيه؛ لقوله عليه السلام أنه قال:[1] «إذا دخل الميت في قبره أتاه ملكان أسودان أزرقان مهيبان معهما مرزبتان[2]، يُقعدان العبد في قبره سوياً، فيسألاه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وقبلتك؟ وإمامك وإخوانك؟ فإذا أجابهما وسِّع قبره سبعين ذراعاً عن يمينه وسبعين ذراعاً عن شماله، ويقولان: ثبَّتك الله، وإن كان كافراً يقول: لا أدري فيقولان: لا دريتَ فيضربانه بمرزبتيه يسمعونها ما بين السماء والأرض إلا الجن

(١) وفيه إشارة إلى أن الميت يُسأل سواء قبر أم لا.

(1) أخرجه الترمذي كتاب الجنائز، باب عذاب القبر، برقم: (1071) وقال: حديث حسن غريب.

(2) المرزبة: المطرقة الكبيرة التي تكون للحداد. النهاية: (2/ 527) مادة: رزب.

ونبيِّي محمد عليه السَّلام، ويقول الكافر والفاجر: هاه هاه لا أدري»[١]. وفي الخلاصة وفتاوى البزَّازيَّة[٢] من أئمَّة الحنفيَّة: أنَّ من جُعل في تابوت أياماً لينقل، ما لم يدفن لم يسئل، وهو ظاهر الأحاديث، فتأمل.

ومن أكله السَّبُع فالسُّؤالُ في بطنه كما صرَّحوا به. وأمَّا سؤال الصَّغير فمنقول عن السَّيِّد أبي شجاع من الحنفيَّة، واعتمده صاحب الخلاصة[٣] والبزَّازيُّ في

والإنس»، وقال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله تعالى عنه[1]: «كيف أنت لو جاءك في القبر منكر ونكير ملكان أسودان أزرقان يحفران الأرض بأنيابهما، ويُطاف في شعورهما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالرعد الخاطف، قال عمر رضي الله عنه: أمعي عقلي وأنا ما عليه اليوم، قال: نعم. قال: إذاً كفيتهما بإذن

---

(١) أصل الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب في الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر: (١/ ٤٦٢) برقم: (١٣٠٨) ولفظه عنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبد إذا وُضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابه، وإنَّه لَيسمع قرع نِعالهم، أتاه ملكان، فَيُقعدانه فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل ـ بمحمد ﷺ ـ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنَّه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً. وأما المنافقُ والكافرُ فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريتَ ولا تليتَ، ويُضرب بمطارق من حديد ضربةً، فيصيح صيحة، يسمعها من يليه غير الثقلين».

(٢) البزازيَّة في الفتاوى، للشيخ الإمام حافظ الدين محمد بن محمد بن شهاب، المعروف بابن البزاز، المتوفى سنة (٨٢٧)، وهو كتاب جامع، لخَّص فيه زبدة مسائل الفتاوى والواقعات من الكتب المختلفة، وسمَّاه «الجامع الوجيز». كشف الظنون: (١/ ٢٤٢).

(٣) طاهر بن عبد الرشيد بن الحسين، افتخار الدين البخاري، فقيه من كبار الحنفية أخذ عن أبيه وجده وأبي بكر الإسكاف وغيرهم. من كتبه: «خلاصة الفتاوى»، و«خزانة الواقعات» توفي سنة: (٥٤٢هـ). ينظر: الفوائد البهية: (١٤٦)، الأعلام: (٣/ ٢٢٠).

---

(1) أخرجه البيهقي في كتابه "إثبات عذاب القبر" باب ماجاء في الكتاب والسنة، برقم: (103). وقد ذكره بروايات مرسلة وأخرى موصولة، وأخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً في كتاب القبور ورجاله ثقات، ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس، وأخرجه أحمد وابن حبان بلفظ آخر. ينظر المغني للعراقي: (5/ 328).

فتاويه، وجرى عليه النَّسفيُّ في العمدة، لكن جزم صاحب البحر[1] بخلافه وهو مقتضى قول النَّوويِّ في الرَّوضة والفتاوى، وتوقَّف التَّاج الفاكهاني[2] في سؤال المجنون ونحوه.

وأمَّا الأنبياء عليهم السَّلام فالأصحُّ أنَّهم لا يسألون، كما جزم به النَّسفيُّ في بحره، وما ورد في الصَّحيحين من استعاذة النَّبيِّ ﷺ من فتنة القبر وعذابه[3]، أجاب عنه القاضي عياض في شرح مسلم بأنَّ ذلك التزامٌ لحقِّ الله تعالى وإعظامه والافتقار إليه، ولتقتدي به أمَّتُه، وليبيِّن لهم صفة الدُّعاء والمهمَّ منه.

وأمَّا الجِنُّ فمال بعض المتأخِّرين إلى أنَّهم يسألون لعموم الأدِلَّة الشَّاملة لهم ولغيرهم.

وأمَّا الملائكة فقال الفاكهاني: الظَّاهر أنَّهم لا يسألون، وميل القرطبي إلى خلافه، والأظهر الأوَّل لما سبق من أنَّ الأنبياء لا يسألون على الأصحِّ. ثمَّ قال ابن عبد البَرِّ: لا يسأل الكافر الصَّريح، بل يُعذَّب من غير سؤال، وإنَّما السُّؤال للمنافق. وخالفه القرطبيُّ وابنُ القيِّم فقالا بسؤال كلٍّ منهما[4].

الله جل جلاله، قال عليه السلام: إن عمر لموفق». وعلى هذا دلائل كثيرة خلافاً للمعتزلة والقدرية والجهمية والنجارية عليهم اللعنة.

---

(١) بحر الكلام كتاب في العقائد، للشيخ الإمام أبي المعين ميمون بن محمد النسفي الحنفي المتوفى سنة (٥٠٨). كشف الظنون (١/ ٢٢٥).

(٢) أبو حفص، تاج الدِّين عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللَّخمي الاسكندراني الفاكهاني فقيه، مشارك في الحديث والأصول والعربية والأدب، من كتبه: شرح الأربعين النووية وسمَّاه المنهج المبين في شرح الأربعين. توفي سنة (٧٣١)هـ، معجم المؤلفين (٧/ ٢٩٩).

(٣) ومنه أخرج البخاري في صحيحه كتاب الدعوات، باب: الاستعاذة من فتنة الغنى (٥/ ٢٣٤٤) برقم: (٦٠١٥) عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتعوَّذ «اللَّهمَّ إني أعوذ بك من فتنة النَّار ومن عذاب النَّار، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجَّال».

(٤) الأحاديث تصرح بسؤال الكافر والمنافق.

هذا وقد وردت أحاديث باستثناء عدَّة فلا يسألون، منهم الشَّهيد، والمرابط يوماً وليلة في سبيل الله[1]، ومن مات في يوم الجمعة أو ليلتها[2]، ومن قرأ سورة الملك في كلِّ ليلة[3]، والمبطون[4]، والمراد بالبطن: الاستسقاء أو الإسهال، قولان للعلماء، كما ذكره القرطبي.

أمَّا ما ذكره البُلقيني من أنَّ سؤال القبر يكون بالسِّرياني فغيرُ معروف بين المتكلِّمين ولا بين المحدِّثين.

وذكر التِّرمذي وابنُ عبد البَرِّ أنَّ سؤال القبر من خصائص هذه الأُمَّة، ولعلَّ الحكمة في ذلك أن يُعجَّل عذابهم في البرزخ، فيوافون القيامة والذُّنوبُ ممحَّصة.

....

(١) لم أجد حديثاً ينصُّ على أنَّ من رابط يوماً وليلة وُقِيَ فتنة القبر، ولكن الذي وجدته أنَّ مطلق المرابط هو الذي يُوقى فتنة القبر، أخرج أحمد (٦/ ٢٠) (٢٤٠٠٠)، والبزار في مسنده: (٩/ ٢٠٧) برقم: (٣٧٥٣)، والترمذي في باب: ما جاء في فضل من مات مرابطاً برقم: (١٦٢١) عن فضالة بن عبيد عن رسول اللهصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أنَّه قال: «كل ميِّت يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنَّه يُنمَّى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر» قال أبو عيسى: حديث فضالة حسن صحيح. واللفظ للترمذي، ورواه غيرهم كثير.

(٢) أخرج الترمذي في الجنائز، باب: ما جاء فيمن مات يوم الجمعة برقم: (١٠٧٤) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر». قال الترمذي: حديث غريب وإسناده ليس بمتَّصل.

(٣) أخرج الترمذي في فضائل القرآن، باب: ما جاء في سورة الملك (٣٠٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب النَّبيِّ ﷺ خِباءَه على قبر وهو لا يحتسب أنَّه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتَّى ختمها، فأتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ضربتُ خبائي وأنا لا أحسب أنَّه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتَّى ختمها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»، وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه، ينظر: صحيح ابن حبان (٧٨٧، ٧٨٨).

(٤) أخرج الترمذي في الجنائز، باب: ما جاء في الشُّهداء من هم برقم (١٠٦٤) عن أبي إسحاق السبيعي قال: قال سليمان بن صرد لخالد بن عرفة: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتله بطنه لم يعذَّب في قبره» فقال أحدهما لصاحبه: نعم. قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب.

عذاب القبر

«يُقضى» بصيغة المجهول، من القضاء، وفي نسخة صحيحة «بغضاً» بالغين المعجمة، على أنَّه منصوب بالحاليَّة، أي: مبغوضين، أو بالعلِّيَّة أي: بغضاً من الله لهم. وفي بعض النُّسخ: «بعض» بالعين المهملة مخفوضاً على أنَّه بدل من الفُسَّاق بدل بعض.

«عذاب» مرفوع على أنَّه نائب الفاعل، بناءً على نسخة الأصل، أو على أنَّه مبتدأ خبره الجار والمجرور السَّابق عليه، للإشارة إلى حصر العذاب المذكور في الكفَّار وبعض الفجَّار. و«الفِعال» بكسر الفاء جمع فعل، وأمَّا بالفتح فمصدر كذهب ذَهاباً، وقيل: يستعمل بالكسر للشَّرِّ، وبالفتح للخير.

وللكفار والفساق يقضى عذاب القبر من سوء الفعال

واعلم أنَّ عذاب القبر للكفار والفساق من المؤمنين حقٌّ، والإنعام واللذات موصلة لأهل الطاعة، يعني لأرواحهم مع أبدانهم عند أهل السنة، يخلق الله في القبر في الميت ضرب حياة بقدر ما يتألم به إن كافراً، ويتلذَّذ به إن كان مؤمناً، لقوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: 11] وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124] أراد به عذاب القبر، وقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: 101] جاء في التفسير مرة في القبر، ومرة في القيامة، وقوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: 47] وهو عذاب القبر، وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السَّجدَة: 21] جاء في التفسير: الأدنى عذاب القبر والأكبر عذاب القيامة، وقوله: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46] أثبت عَرضَ آل فرعون على النار قبل القيامة غدواً وعشياً، وليس ذلك إلا عذاب القبر، وقوله في قوم نوح: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: 25] والفاء للتعقيب، دخلوا في النار

والحاصل: أنَّه يجب اعتقاد أنَّ عذاب القبر حَقٌّ واقعٌ للكفَّار، وثابتٌ لبعض الفجَّار ممَّن أراد الله تعذيبه في تلك الدَّار لسوء أفعالهم وقُبْح حالهم، وقد أجمع أهل السُّنَّة على ذلك، ففي الصَّحيحين «عذابُ القبر حَقٌّ»(١) ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦](٢) الآية.

وفي المسألة خلاف المعتزلة والجهمية والرَّافضة.

بعد الغرق وذلك في الدنيا، وقال عليه السلام:(1) «إنَّ الميت ليُعذَّب في قبره ببكاء أهله عليه»، وقال عليه السلام:(2) «مَن قرأ سورة الملك كلَّ ليلة لا يكون له عذاب القبر»، ومرَّ رسول الله عليه السلام بقبرين جديدين فقال(3): «إنهما يعذبان أما أحدهما فإنه كان لا يتنزه من البول، والآخر كان يمشي بالنميمة»، وقال(4): «القبر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر (١/ ٤٦٢) برقم: (١٣٠٦) عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ يهوديَّة دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذكِ الله من عذاب القبر، فسألتْ عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «نعم، عذابُ القبر حقٌّ». قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلَّى صلاةً إلَّا تعوَّذ من عذاب القبر.

(٢) هذه الآية نزلت في فرعون وآله، وتمامها قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: ٤٥-٤٦] والدليل في الآية أن الله تحدث أنهم يعرضون على النار غدواً وعشياً، وعند قيام الساعة يذوقون أشد العذاب، فدل هذا على أنهم إنما يعرضون على النار في القبر فثبت بذلك عذاب القبر.

---

(1) أخرجه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي يعذب الميت...، برقم: (1286)، ومسلم في كتاب الجنائز، باب الميت يعذب...، برقم: (2191).

(2) أخرجه الحاكم: (3839) (2/ 540) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(3) أخرجه البخاري كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، برقم: (218)، ومسلم في كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، برقم: (703).

(4) أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة، برقم: (2460) وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

دخول الجنة بفضل الله تعالى

وزيد هنا بيت في بعض الشُّروح وهو قوله:

دُخُولُ النَّاسِ في الجَنَّاتِ فَضْلٌ مِنَ الرَّحمَنِ يا أَهْلَ الآمَالِ

«الآمال» جمع أمل، ولو قال: «يا أهل المعالي» لَخَلَص من سَوْرة الإيطاء ولو لم يقع على التَّوالي(١).

والمعنى: إنَّ دخول المؤمن في الجنَّة ليس بمجرَّد أعماله الصَّالحة، بل بفضل الله تعالى وكرمه؛ لقوله عليه السَّلام: «لن يدخل أحدُكم الجَنَّةَ بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغمَّدني الله برحمته»(٢) وهو لا ينافي

روضة من رياض الجنان أو حفرة من حفر النيران». والدعاء متوارث مِن غير نكير "وقنا عذاب القبر وعذاب النار".

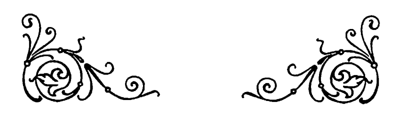
وأنكرت الجهميَّة والقدريَّة والنجاريَّة والمعتزلة ذلك، وتعليلهم: إنَّ التعذيب والسؤال والجواب ممَّن لا حياة له مستحيل، ويقولون: نرى الميت لا يتألم بإيلامنا في الشاهد، وكذلك في الغيب، ومِن هذا أنكروا تسبيح الجمادات، ويقولون: لو كان لها تسبيحٌ لسمعنا، والدليل على ثبوت تسبيحها قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44] فيمكن أن يعيد الله تعالى إليه نوع حياة بقدر ما يتألم ويتلذذ كما مرَّ. والله تعالى الموفق.

(١) الحقيقة أن هذه اللفظة ليست «الآمال» لأن الوزن بها ينكسر، وإنما يصح الوزن بـ«الأمالي»، ولو قال: «المعالي» لوقع في الإيطاء الذي حذره منه الشارح ولو لم يقع على التوالي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المرضى باب: نهي تمني المريض الموت (٥/ ٢١٤٧) برقم: (٥٣٤٩) بلفظ: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُدخل أحداً منكم =

قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] سواء قيل: إنَّ الباء للسَّببيَّة، أو البدليَّة[1]، خلافاً للمعتزلة في هذه المسألة، حيث يقولون بإيجاب إثابة المطيع وعقاب العاصي.

ونحن نقول: لا يجب على الله سبحانه شيء، وإنَّما أدخلهم الـجَنَّة بفضله، كما أنَّ الكفَّار أدخلهم النَّار بعدله. نعم الدَّرَجات والدَّرَكات بحسب اختلاف الحسنات، وتفاوُتِ السَّيِّئات، والخلودُ فيهما بواسطة النِّيَّات، ولذا قيل: النِّيَّاتُ بمنزلة الأرواح، والأعمالُ في مرتبة الأشباح.



= الجنَّةَ عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة».

(١) ولو قال: «سواء قيل: إن الباء للسببية أم البدلية» لكان أفضل؛ لأن: «سواء» يأتي معها «أم» وليس «أو».

البعث والحساب

«الوَبال» بالفتح الإثمُ الذي كان من قِبَل العبد، كالقتل والظُّلم ونحوهما.

والمعنى: إذا كان حساب جميع النَّاس حقًّا ثابتاً، فكونوا متحرِّزين احترازاً شديداً عن حقوق العباد خصوصاً؛ لأنَّ ما كان بينه سبحانه وبين عباده يُرجى منه العفو، كذا قال بعض الشُّرَّاح.

والأظهر أنّ المراد بالوبال شِدَّة الأثقال من ذنوب الأعمال، أعمُّ من أن تكون من حقوق الله أو حقوق العباد؛ لما في الصَّحيحين أنَّه عليه السَّلام مرَّ بقبرين فقال: «إنَّهما ليعذَّبان» الحديث(١).

وأشار النَّاظم إلى حقِّيَّة بعث الخلق من القبور في يوم الحشر والنُّشور، ثمَّ من الأدلَّة على ثبوت الحساب قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] إلى غير ذلك من الآيات والأخبار.

حساب الناس بعد البعث حق فكونوا بالتحرز عن وبال

واعلم أنَّ الحساب حقٌّ، والله تعالى يُحاسب عباده على أفعالهم وأقوالهم قليلاً كان أو كثيراً في عَرَصَات القيامة(1) بلا ترجُمان بينه وبين عباده، والناس متفاوتون

(١) وجه الاستدلال بالحديث تعظيم العذاب الذي يتلقيانه وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «ليعذبان في كبير» أي أمر يشق عليهما الاحتراز عنه لعظم العذاب، وهذا مع الإشارة إلى أن أحدهما يُعذب لحق الله وهو تقصيره في الطهارة، والآخر يعذب لحق العباد وهو المشي بالنميمة.

(1) العرَصة: كل موضع واسع لا بناء فيه. النهاية: (3/ 438) مادة: عرص.

ومقتضى ما نقل ابن عبد البرّ والرَّازي(١) من تكليف الجِنّ اتِّفاقاً، وأنَّ لهم ثواباً وعقاباً، أنَّهم يحاسبون كالإنس.

فكأنَّ النَّاظم ذهب إلى أنَّ الجِنَّ في الأحكام تابعون للإنس.

أو مال إلى توقُّف أبي حنيفة في أمر ثوابهم المترتِّب على حسابهم(٢)، مع الإجماع على تحقُّق عقاب الكفرة منهم.

أو تبع بعض اللُّغويِّين في أنَّ الجِنَّ داخلون في مسمَّى النَّاس أو الملائكة، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عطاء بن السَّائب أنَّه قال: «أوَّل من يحاسب جبرائيل؛ لأنَّه كان أمين الله في وحيه إلى رسوله»، لكن أخرج أبو الشَّيخ ابن حيان عن أبي سنان قال: «اللَّوح المحفوظ معلَّق بالعرش، فإذا أراد الله أن يوحي بشيء كتب في اللَّوح، فيجيء اللَّوح حتَّى يقرع جبهة إسرافيل، فينظر فيه، فإن كان إلى أهل السَّماء دفعه إلى ميكائيل، وإن كان إلى أهل الأرض دفعه إلى جبرائيل، فأوَّلُ ما يحاسب

في تلك المناقشة في الحساب، لقوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 92] بعضهم يدخل الجنة بحساب يسير، لقوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: 8] وبعضهم يدخل النار بغير حساب، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البَقَرَة: 119] وقال عليه السلام(1): «حلالها حساب وحرامها عذاب».

---

(١) أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين فخر الدِّين الرَّازي، الشافعي المفسِّر المتكلِّم. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، من كتبه: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن الكريم، معالم أصول الدين توفي سنة (٦٠٦)هـ، الأعلام: (٦/ ٣١٣)، شذرات الذهب: (٥/ ٢١).

(٢) قال الشَّارح في شرحه على الفقه الأكبر: توقَّف أبو حنيفة في كيفيَّة ثوابهم، لقوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] من غير أن يقرن به قوله: «ويثبكم بثواب قيم». (٣٧٨).

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب موقوفاً على علي بلفظ: «وحرامها النار» وسنده منقطع، فصل فيما يقول العاطس في جواب التشميت، برقم: (10622)، والديلمي مرفوعاً: (8192) (5/ 283) ينظر المقاصد الحسنة: (201)

يوم القيامة اللَّوح، يُدعى به ترعد فرائصه، فيقال له: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم، فيقال: مَنْ يشهد لك؟ فيقول: إسرافيل، فيُدعى إسرافيل ترعد فرائصه، فيقال: هل بلَّغكَ اللَّوح؟ فإذا قال: نعم قال اللَّوح: الحمد لله الذي نجَّاني من سوء الحساب، ثمَّ كذلك»[1].

وأخرج أيضاً عن وهيب بن الورد قال: إذا كان يوم القيامة دُعِي إسرافيل ترعد فرائصه، فيقال: ما صنعتَ فيما أدَّى إليك اللَّوح؟ فيقول: بلَّغتُ جبرائيل، فَيُدعى جبرائيل ترعد فرائصه، فيقال: ما صنعتَ فيما بلَّغك إسرافيل؟ فيقول: بلَّغتُ الرُّسلَ، فيؤتى بالرُّسُل فيقال: ما صنعتم فيما أدَّى إليكم جبرائيل؟ فيقولون: بلَّغنا النَّاس، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦][2].

هذا وروى مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَتُؤدُّونَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتَّى يُقاد للشَّاة الجمَّاء من الشَّاة القرناء»[3] وروى الإمام أحمد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يُقتصُّ للخلق بعضهم من بعض، حتَّى للجمَّاء من القرناء، وحتَّى للذَّرَّة من الذَّرَّة»[4]، وقال: «لَيَخْتَصِمَنَّ كلُّ شيء يوم القيامة، حتَّى الشَّاتان فيما انتطحتا»[5].

وأنكرت الفلاسفة والجهمية ذلك. والله الموفق.

---

(١) ينظر: العظمة: (١/ ٢٩٩).

(٢) ينظر العظمة: (١/ ٣٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم (٨/ ١٨) برقم: (٢٥٨٢) عن أبي هريرة، إلا أنَّه قال «للشاة الجلحاء» عوضاً من «الجماء» ورواية غيره، كالإمام أحمد (٢/ ٢٣٥) برقم: (٧٢٠٣) بلفظ «الجماء».

(٤) مسند أحمد (٢/ ٣٦٣) (٨٧٤١) عن أبي هريرة.

(٥) مسند أحمد (٢/ ٣٩٠) (٩٠٦٠) عن أبي هريرة، بلفظ «والذي نفسي بيده. . .» الحديث.

قال المنذري[1] في الحديث الأوَّل: رواتُه رواة الصَّحيح، وفي الثاني: إسناده حسن، وقال الجلال المحلِّي[2]: قضيَّةُ هذه الأحاديث أن لا يتوقَّف القصاص يوم القيامة على التَّكليف والتَّمييز، فَيُقتصُّ من الطِّفل للطِّفل وغيره. قلت: وكذا المجنون، والله أعلم.

وقد حكى الإمام بدر الدِّين الشِّبلي[3] الحنفي في كتابه آكام المرجان في أحكام الجانِّ أنَّه اختلف في دخول الـجِنِّ الجنَّة على أربعة أقوال: أحدها: نعم، الثاني: لا، بل يكونون في ربضها. الثالث: أنَّهم على الأعراف. الرَّابع: الوقف. وحكي القول بدخولهم عن أكثر العلماء، وعن مجاهد أنَّهم إذا دخلوا الـجَنَّة لا يأكلون فيها ولا يشربون، ويلهمون من التَّسبيح والتَّقديس ما يجده أهل الـجَنَّة من لَذَّة الطَّعام والشَّراب، والله أعلم بالصَّواب. وذهب الحارث المحاسبي[4] إلى أنَّا نراهم وهم لا يروننا، عَكسَ ما كانوا عليه في الدُّنيا[5].

....

(١) أبو محمد، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري الشامي الأصل، الشافعي. محدث، حافظ، فقيه، مشارك في القراءات واللُّغة والتاريخ. من كتبه: شرح التنبيه للشيرازي في فروع الفقه الشافعي، الترغيب والترهيب. توفي رحمه الله سنة (٦٥٦) هـ، معجم المؤلفين (٥/ ٢٦٤).

(٢) جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلِّي الشافعي. برع في الفنون فقهاً وكلاماً وأصولاً ونحواً ومنطقاً وغيرها. كان آية في الذكاء والفهم، من كتبه: شرح جمع الجوامع في الأصول. توفي رحمه الله سنة (٨٦٤)، شذرات الذهب (٧/ ٣٠٣).

(٣) محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي، الحنفي، بدر الدين، كان أبوه قيم الشبلية بدمشق، سمع على أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم وعيسى المطعم وأبي حيان من كتبه: «محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل» و«تثقيف الألسنة بتعريف الأزمنة» و«آكام المرجان» توفي سنة: (٧٦٩). ينظر: «الدرر الكامنة»: (٣/ ٤٨٧) الأعلام: (٦/ ٢٣٤).

(٤) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري. صوفي، متكلم، فقيه، محدث. توفي ببغداد سنة (٢٤٣)هـ، من كتبه: الرعاية في الأخلاق والزهد. معجم المؤلفين: (٣/ ١٧٤).

(٥) ويميل القلب ـ والله تعالى أعلم ـ إلى دخول الجن الجنة وحسابهم كحساب البشر، وذلك أن الله تعالى إنما أرسل رسول الله ﷺ للثقلين، ولم يرسله للإنس وحدهم، وعليه فلهم حساب ولهم جنة أو نار.

فصل
في أخذ الكتب

«الكُتُب» بضمَّتين جمع كتاب، وخُفِّف هنا للضَّرورة، والمراد بها صحائف الأعمال التي كتبها الحفظة في أيَّام حياتهم. وهو مرفوع على نيابة الفاعل. و«بعضاً» نصب على أنَه مفعول ثان، وكان الأظهر أن يرفع «بعض» وينصب «الكتب»؛ لأنَّ ذوي العقول أولى بأن يكونوا المفعول الأوَّل[١]، وليوافق قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقَّة: ٢٥]، والجمعُ بينهما بأنَّه يُعطى بشماله ومن وراء ظهره.

واختلف في كيفيَّته، فقيل: تُلوى يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره، ثمَّ يُعطى كتابه. وقيل: تنزع يده اليسرى من صدره إلى خلف ظهره، ثمَّ يعطى كتابه. وقيل غير ذلك والله أعلم بما هنالك.

وقد أغرب الشَّارح القدسي فيما أغرب حيث قال: إنَّ «بعضاً» حال، والمفعول الثاني مقدَّر، أي: النَّاس أو المكلَّفين أو نحو ذلك.

ويعطى الكتب بعضاً نحو يمنى وبـعـضـاً نـحـو ظـهـر والـشـمـال

واعلم أنَّ قراءة الكتب يوم القيامة حقٌّ، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسرَاء: 13] الآية، يُؤتَى كتاب المؤمن بيمينه كالهلال مكتوبٌ في عنوانه: بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(١) ولو كانت «وتعطى» بالتاء لكان أوفق للمعنى، ولم يعد هناك داع للتأويل، وهو الأظهر.

هـــذا كـــتـــاب الـــجـــلـــيـــل إلـــى الـــصـــالـــح الـــخـــلـــيـــل

ادخـــلـــوهـــا فـــي جـــنـــة عـــالـــيـــة قـــطـــوفـــهـــا دانـــيـــة

ثُمَّ يستقبل إليه الملائكة والولدان والغلمان والحور فيفتح له أبواب الجنان، ينادي المنادي: سَعِدَ فلان بن فلان، لا شقاوة بعدها أبداً، لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقَّة: 19-20] ويُعطى كتاب الكافر والمنافق بشماله أو من وراء ظهره مسوداً وجهه مردوداً إلى قفاه، ويَدخُل شماله مِن صدره ويخرج من بين كتفيه، ثُمَّ قرأ كتابه السوء، فوجد ما عَمِلَ فيَضربُه الملائكة بمقامعَ(1) مِن حديد، ويصبون عليه من الحميم والصديد، ويلبسونه لباس القطران(2)، ويوثقونه بالأغلال والسَّلاسل، ويسحبونه على وجهه في عَرَصَات القيامة بين الخلائق، وهو ينادي: واحسرتاه واندامتاه، فيدخلونه النيران بين العقارب والحيات، ثُمَّ ينادي المنادي: شَقِيَ فلان بن فلان، لا سعادة بعدها أبداً، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقَّة: 25-26]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق: 10] الآية، نعوذ بالله تعالى من ذلك الخُذلان بفضله ورحمته، خلافاً للفلاسفة وغيرهم.

(1) المقامع: سياط من حديد رؤوسها معوجة. النهاية: (4/ 175) مادة: قمع.
(2) القطران: نحاس مذاب حار. ينظر مفردات ألفاظ القرآن: مادة: قطر.

فصل
في وزن الأعمال

أي: وزن الأعمال حَقٌّ، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

والميزانُ: عبارة عمَّا يعرف به مقادير الأعمال، وما يترتَّب عليه من العدل والفضل بحسب تفاوت الأحوال. والعقلُ قاصر عن إدراك كيفيَّته وتصوُّر ماهيَّته؛ لأنَّ الأعمال أعراض يستحيل بقاؤها، فلا توصف بالخِفَّة والثِّقَل أجزاؤها، لكن لمَّا ورد الدَّليل على ثُبوته وجب اعتقادُ حقِّيَّته من غير اشتغال بكيفيَّته، فإنَّه سبحانه قادر على أن يعرِّف عباده مقادير أعمالهم بأيِّ طريق أراد.

وحـــق وزن أعـــمـــال وجـــري		عـلـى مـتـن الـصـراط بـلا اهـتـبـال

واعلم أنَّ الصراط والميزان حقٌّ خلافاً للجهمية والقدرية والمعتزلة، وللميزان كفتان كلُّ كَفَّة عَظَمَتُها مثل أطباق السماوات والأرض، فيوزن أعمال المؤمنين عليه، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47] وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ﴾ [الرحمن: 9] وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [القارعة: 6-7] الآية.

والصراط: جسرٌ ممدودٌ على جهنم، فتزل أقدام الكافرين والمنافقين فيقعون منكبين على مَنَاخِرهم في النار، وتثبُتُ أقدام المؤمنين فيعبُرون عليها ويَصِلُون إلى دار القرار، لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71]، وقال عليه السلام[1]: «إنَّ

---

(1) معنى جزء من حديث أخرجه البخاري كتاب الصلاة، باب فضل السجود، برقم: (2948) (2/ 190).

وقد ورد أنَّ الموزون صحائف الأعمال، كما يدلُّ عليه حديث البطاقة التي فيها كلمة التَّوحيد أو البسملة(١).

وذهب بعضهم إلى أنَّ الأعمال تُجَسَّد وتُجسَّم بحسب تفاوت الأعمال، ثمَّ توزن ليعرف الخلق ما لهم من الثَّواب والوبال(٢).

وذهب كثير من المفسِّرين إلى أنَّه ميزان حقيقيٌّ، له لسان وكِفَّتان، وأسنده اللالكائي(٣) في كتاب شرح السُّنَّة له إلى كلٍّ من سلمان الفارسيِّ والحسن البَصريِّ،

الله تعالى خَلَقَ للناس جسراً وهو الصراط»، وهو سبع قناطر، أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف، وأظلمُ مِن الليل، كلُّ قَنطَرَة منها مسيرة ثلاثة آلاف سنة، ألف صعود وألف هبوط وألف استواء، فيحاسب العبد في أولها عن الإيمان، وفي الثاني عن الصلاة، وفي الثالث عن الزكاة، وفي الرابع عن صوم شهر رمضان، وفي الخامس

---

(١) حديث البطاقة هو عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمكَ كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلكَ عذر، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء».
ومن ذهب إلى أن ما يوزن هو صحائف أعمال العباد سيدنا ابن عمر رضي الله عنه.
أخرجه: ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب: ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٢/ ١٤٣٧) برقم: (٤٣٠٠). والترمذي في سننه: كتاب الإيمان، باب: فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، (٥/ ٢٤) برقم: (٢٦٣٩).

(٢) ممن قال بذلك سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ينظر: تفسير القرطبي: (٧/ ١٦٤).

(٣) أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي الطبري الرازي. الشافعي، فقيه، محدِّث، حافظ، متكلِّم أخذ عن جعفر بن فناكي والشيخ أبي حامد. من كتبه: مذاهب أهل السُّنَّة، شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة. توفي سنة (٤١٨) هـ بالدينور. اهـ معجم المؤلفين (١٣/ ١٣٦)، الوافي بالوفيات: (٧/ ٣٨٦).

وروى ابن جرير واللالكائي عن حذيفة موقوفاً: أنَّ صاحب الميزان يوم القيامة جبرائيل عليه السَّلام(١).

وأشار النَّاظم بقوله: «وزن أعمال» إلى أنَّ الوزن مختصٌّ بالأعمال الظَّاهرة، كما نقله القرطبيُّ في تذكرته عن الحكيم التِّرمذي(٢)، وأنَّ الإيمان لا يُوازَن، إذ لا مُوازِن له فإنَّه لا ضِدَّ له إلا الكفر، ومحال وزنه(٣).

الصراط حق

ثمَّ الصِّراط جسرٌ ممدود على متن جهنَّم، ـ وفي رواية: على ظهر جهنَّم ـ أدقُّ من الشَّعر، وأحدُّ من السَّيف، يمرُّ عليه جميع الخلق، فيجوزه أهل الجَنَّة، وتَزِلُّ فيه أقدام أهل النَّار، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا

عن الحج، وفي السادس عن الوضوء والغسل من الجنابة، وفي السابع عن الوالدين وصلة الرَّحم والإصلاح بين الإخوان، فإن أجاب في جميع ذلك يَمُرُ عليها كالبرق الخاطف ولا يتردَّد في النار، وعائشة سألت النبي عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 48] قالت: فإذا بُدِّلت الأرض فأين تكون الخلائق؟ قال عليه السلام(1): «على الصراط». والله الموفق.

---

(١) ينظر: الدر المنثور: (٣/ ٤٢٤)، زاد المسير: (٣/ ١٧١).

(٢) أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن، الحكيم الترمذي. باحث صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين. توفي رحمه الله نحو سنة (٣٢٠) هـ، من تصانيفه: نوادر الأصول في أحاديث الرسول. الأعلام (٦/ ٢٧٢).

(٣) أورد القرطبي كلام الحكيم الترمذي عقب تعليقه على حديث البطاقة فقال: ليست هذه ـ أي الشهادة الموجودة في البطاقة ـ شهادة التوحيد لأن من شأن الميزان أن يوضع في كفة وفي أخرى ضده، ويستحيل أني يأتي الكفر والإيمان جميعاً عند واحد، فلذلك استحال أن توضع شهادة التوحيد في الميزان، وأما بعد إيمان العبد فإن النطق منه بـ «لا إله إلا الله» حسنة توضع مع الحسنات. ينظر: التذكرة: (٣٢٤).

---

(1) أخرجه مسلم كتاب المنافقين، باب البعث والنشور، برقم: (7234).

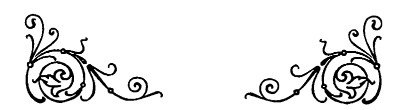
﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ٧١﴾ [مريم: ٧١-٧٢] وفي الصَّحيحين: «إنَّ المؤمنين يمرُّون عليه سِراعاً كطرف العين والبرق والرِّيح، وكأجاويد الخيل والرِّكاب»[1] وإلى هذا أشار النَّاظم بقوله: «وجري»، إلَّا أنَّ هذا الجري لا يحصل لكلِّهم، فكان الأنسب أن يقول: «ومرٌّ» بمعنى «مرور».

وقوله: «بلا اهتبال» أي: بلا كذب وافتراء، أو بلا اعتماد على شيء، ففي القاموس: اهتبل كذب كثيراً، وعلى ولده اتَّكل[2].

وأمَّا ما ذكره القدسيُّ من أنَّ المراد به ثِقَل البدن، وما قاله غيره من أَنَّه بمعنى النَّقص، فغير ظاهر في المعنى كما لا يخفى[3].

ثمَّ هو متعلِّق بـ«جري»، أي: بخبره، وهو «حقّ» المقدَّر، أو بحق مطلقاً، ولا يبعد أن يكون هو خبر «جري».

وفي الجملة رَدٌّ على المعتزلة في إنكارهم كلَّاً من الميزان والصِّراط مستدلِّين بأدلَّة واهية يستحقُّون بها أن يعذَّبوا في نار حامية.



....

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾ [القيامة: ٢٢] (٦/ ٢٧٠٦) برقم: (٧٠٠١) وأخرجه مسلم في الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري ضمن حديث طويل.

(٢) قوله: «وعلى ولده» أي: اهتبل على ولده. و«اتكل» خطأ، وإنما هي «أَثْكَل».
ينظر تاج العروس، فصل الهاء مع اللام، القاموس المحيط: (١٣٨٢) فصل الهاء.

(٣) هي معان صحيحة لغة ويحتملها النص وإن كان هنالك معنى آخر قد يكون هو المراد وهو أن «الاهتبال» «الاغتنام» أو «الاحتيال» وعليه قوله: «بلا اهتبال» أي بلا بحث عن حيلة أو وسيلة للنجاة. والله أعلم.
ينظر: جامع اللآلي: (٢٨١)، لسان العرب: (١١/ ٦٨٥).

في الشفاعة

صفة للكبائر، أي: الذُّنوب الثِّقال أمثالَ الجبال.

والخيرُ كلُّه مجموع في أربعة: النَّظر والحركة والنُّطق والصَّمت، فكلُّ نظر لا يكون في عِبْرة فهو غفلة، وكلُّ حركة لا تكون في عبادة فهي فترة، وكلُّ نطق لا يكون في ذكر فهو لغوٌ، وكلُّ صمت لا يكون في فكر فهو سهو.

ومـرجـوٌّ شـفـاعـةُ أهـلِ خـيـرٍ لأصـحـابِ الـكـبـائـرِ كـالـجـبـالِ

واعلم أنَّ نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام وجميع الأنبياء والأولياء والعلماء والشهداء والصلحاء يشفعون لأهل الكبائر، لقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5] وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79] يعني مقام الشفاعة، وقوله عليه السلام: «شفاعتي لأهل الكبائر مِن أمَّتي»، و[1]«أنا أول شافِع وأول مُشفَّع»، وقال:[2] «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مُجابة، وإنِّي اختبأتُ دعوتي لشفاعة أمتي»، ولمَّا نزلت هذه الآية: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: 44] قال عليه السلام لجبرائيل عليه السلام[3]: «لِمَن هذا الباب؟ قال لأصحاب الكبائر مِن أمَّتِك فيُعذِّبهم الله بقدر ذنوبهم، فبكى النبي صلى الله عليه وسلم ودخل مَنزِله ولم يَخرج إلا إلى الصلاة، ولم يُكلم أحداً ثلاثة أيام حتى أعطاه الله الشفاعة»، ومَن أنكر الشفاعة كان معتزليّاً.

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا عليه السلام، برقم: (6079)

(2) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة برقم: (515).

(3) لم أعثر عليه.

والمعنى: شفاعة أهل الخير منَ الأنبياء والأولياء لأهل الذُّنوب الكبائر، فضلاً عن الصَّغائر، مرجوٌّ.

والمراد بالكبائر هنا ما عدا الشِّرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] أي: بالشَّفاعة وغيرها، فروى الترمذي وغيره أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي»[١] وفيه ردٌّ على المعتزلة حيث لم يقولوا بالشَّفاعة إلا في علُوِّ الدَّرجة، مع قولهم: «إنَّ أهل الكبائر مخلَّدون في النَّار»[٢] وفي سنن ابن ماجه عن عثمان بن عفان مرفوعاً: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثمَّ العلماء، ثمَّ الشُّهداء»[٣].

ويَشفع الحيوان والحشرات لمَن يَرحمُهم أو أطعمهم أو سقاهم، وكذا الصدقات في الطاعة حتى الخان والرباط والسبيل والمساجد وبِساطها وسراجها وتُرابها المَكنُوس، فينبغي للمؤمن أن يرجو الشفاعة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: 254] وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: 255] وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28] وقال: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٨٧﴾ [مريم: 87] وقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ۝١٠٩﴾ [طه: 109] ولا يقنط مِن رحمته وإن أتى بالكبائر كقتل النفس والزنا والسرقة، ولم يصلِّ ولم يزكِّ ولم يَصم ولم يحج ولم يغتسل من الجنابة؛ لأن القنوط كفر[1]،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب: في الشفاعة، (٤/ ٦٢٥) برقم: (٢٤٣٥). وأبو داود في كتاب السنة، باب الشفاعة، برقم: (٤٧٣٥).

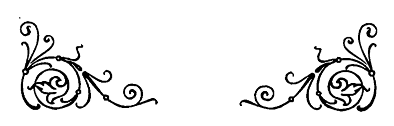
(٢) ينظر: تبصرة الأدلة: (٢/ ٣٩٧) وما بعدها.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٢/ ١٤٤٣) (٤٣١٣).

---

(1) وكذا الأمن من عقوبته كفر، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99]. ينظر شرح الفقه الأكبر: (249).

واعلم أنَّ قوله «مَرجوٌّ» يوهم أنَّ الشَّفاعة ظنِّيَّة، وليس كذلك، بل هي قطعيَّة لورود أحاديث مشهورةٍ كادت أن تكون متواترةً، وقال ابن جماعة: النَّاسُ على قسمين: مؤمن وكافر، فالكافر في النَّار إجماعاً، والمؤمنُ على قسمين: طائع وعاص، فالطَّائعُ في الجنَّة إجماعاً، والعاصي على قسمين: تائب وغيره، فالتَّائبُ في الجنَّة إجماعاً، وغيرُ التَّائب في مشيئة الله تعالى(١).



لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: 53] وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجر: 56] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: 48].

(١) وليس موضوع الشفاعة محل بحث أهو ثابت أم لا، لأن النصوص تواردت في إثباته، فنسأل الله تعالى أن يلهم من حاد عن الطريق ـ وأنكر حصول الشفاعة أصلاً ـ الرجعة إلى الحق والصواب حتى لا يحرم هذا الأجر الكبير يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وللاستزادة في موضوع الشفاعة ينظر: تحفة المريد: (٤٤٧)، تبصرة الأدلة: (٢/ ٣٩٧).

الدعاء ينفع العباد

«الدَّعوات» بفتحتين جمع الدَّعوة بمعنى الدُّعاء.

والمعنى: إنَّ لدعوات المطيعين لله تأثيراً بليغاً في صرف القضاء المعلَّق دونَ المُبرَم، لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولقوله عليه السَّلام: «لا يَرُدُّ القضاءَ إلا الدُّعاء» رواه الترمذي وقال: حسن غريب(١)، ورواه ابن حبان والحاكم ولفظهما: «لا يَرُدُّ القَدَرَ إلا الدُّعاء»(٢)، ولقوله عليه السَّلام: «الدُّعاء ينفع ممَّا نزل وممَّا لم ينزل» رواه البزار والطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد(٣).

وللـدعـوات تـأثـيـر بـلـيـغ وقـد يـنـفـيـه أصـحـاب الـضـلال(1)

واعلم أن للدعوات تأثيراً بليغاً، يعني في صرف أثر القضاء المعلق دون المبرم، وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب: لا يرد القضاء إلا الدعاء: (٤/ ٤٤٨) برقم: (٢١٣٩)، وتمامه: «ولا يزيد العمر إلا البرُّ».

(٢) المستدرك (١/ ٦٧٠) برقم: (١٨١٤) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان (٣/ ١٥٣) (٨٧٢). وتمامه عند الحاكم: «ولا يزيد في العمر إلا البِرُّ، وإنَّ الرَّجل لَيُحرم الرِّزقَ بالذَّنب يصيبه».

(٣) المستدرك (١/ ٦٧٠) برقم: (١٨١٥) عن ابن عمر، وتتمته «فعليكم عبادَ الله بالدعاء». والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٠) برقم: (٢٠١) عن معاذ بن جبل، ولفظه بتمامه عنده «لن ينفع حَذَر من قدر، ولكن الدُّعاء ينفع ممَّا نزل وممَّا لم ينزل، فعليكم بالدعاء عبادَ الله». والبزار (٦/ ٥٠٢) برقم: (٢٥٤٠) عن سلمان.

---

(1) ولدعاء الصلحاء والزهاد وعامة المؤمنين لأحيائهم وأمواتهم تأثير بليغ، ومنفعة عظيمة لإيصال الثواب إلى أرواحهم ولدفع العذاب والعقوبة عنهم، وقد ينفيه أصحاب الضلال والشقاوة وهم أهل الاعتزال: فإنهم قالوا ما قدَّر الله يكون وما لم يقدِّر لا يكون، فلا فائدة في الدعاء. وهو باطل بالاتفاق وإخبار النبي عليه السلام قال الله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

وكذا دعاء الأحياء للأموت له تأثير في تخفيف الذُّنوب، ودَفْع العذاب، ورفع الدَّرجات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمَّد: ١٩]؛ فإنَّه سبحانه قاضي الحاجات ودافعُ البليَّات.

وأراد النَّاظم بقوله: «أصحاب الضَّلال» المعتزلةَ، حيث خالفوا في هذه المسألة أهلَ الهداية من أهل السُّنَّة والجماعة[١].

وأمَّا إجابة دعوة الكافر ففيها خلاف بين مشايخ الحنفيَّة، ونقله الرُّوياني في كتابه بحر المذهب عن الشَّافعية[٢]، ونفى الاستجابة فيه، وهو المنقول عن الجمهور على ما ذكره في شرح العقائد[٣]، وكان مستدلّهم ما نقله البُغويُّ في معالم التَّنزيل عن الضَّحاك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرّعد:

وقالت المعتزلة: ليس في الدعاء منفعة، قد كان ما هو كائن وقد جفّ القلم.

ونردُّ ـ عليهم اللعنة ـ بقول النبي عليه السلام[1]: «اهدوا موتاكم قالوا: وما الهدية يا رسول الله؟ قال: الدعاء والصدقة» ألا ترى أنَّ مَن مات وعليه حجَّة أو دين فيُحجُّ عنه أو يُقضى، فيجوز وينفع، وكذلك الدعاء والصدقة، وقال عليه السلام لعلي رضي الله تعالى عنه[2]: «تصدقوا عن موتاكم فإن الله تعالى وكل ملائكة يذهبون بصدقات الأحياء إليهم فيفرحون بها، ثُمَّ يُحدثون إخواناً، ويندمون

---

(١) وتمسك المعتزلة بأن القضاء لا يتبدل، سواء سبق بالنعيم أم العذاب ينظر: النبراس: (٧٣٢).

(٢) أبو المحاسن، عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد الروياني الطبري، الشافعي، فخر الإسلام سمع أبا الحسين عبد الغافر الفارسي وأبا عبد الله محمد بن بيان الكازروني وغيرهم، له كتب منها: «بحر المذهب» وهو من أطول كتب الشافعية و«مناصيص الإمام الشافعي» توفي سنة: (٥٠٢)هـ. ينظر: وفيات الأعيان: (٣/ ١٩٨)، الأعلام: (٤/ ١٧٥).

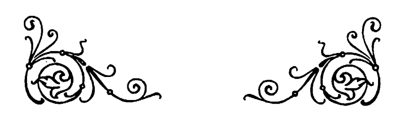
(٣) شرح العقائد: (١٩٩).

---

(1) لم أعثر عليه.
(2) لم أعثر عليه. كان الأولى بالمصنف ألا يأتي بهذه الأحاديث الغريبة، ففي الصحاح ما هو أوضح وأقوى في هذا الباب، منها:

=

[إبراهيم: ١٤](١)، وأمَّا المحقِّقون فعلى أنَّ هذا في العُقبى، وأمَّا في الدُّنيا فقد يَقبل الله دعاء الكافرين؛ لأنَّه تعالى حين قال إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحِجر: ٣٦] قال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحِجر: ٣٧-٣٨] فأجاب دعائه في الجملة؛ ولقوله عليه السَّلام: «اتَّقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنَّه ليس دونها حجاب» رواه أحمد وغيره عن أنس مرفوعاً(٢).



على ما خلَّفوا، ويقولون: اللهم اغفر لمَن نوَّر قبورنا وبشّره بالجنة كما بشَّرنا، ويَجعل الله قبورهم روضة من رياض الجنة، ويلبثون في روح وريحان ويجلسون على حرير[1] الألوان». هذا اعتقاد أهل السنة والجماعة خلافاً للدهرية والفلاسفة.

(١) معالم التنزيل: (٤/ ٣٠٦).

(٢) المسند (٣/ ١٥٣) برقم: (١٢٥٧١)، وكذا أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٩٦٠)، والديلمي في مسند الفردوس (١٥٣٢).

= قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». أخرجه مسلم كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته، برقم: (4310).

وعن عائشة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إن أمي افتلتت ـ أي ماتت فجأة ـ ولم توصِ، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر أن تصدقت عنها؟ قال: نعم». أخرجه البخاري كتاب الجنائز، باب موت الفجأة، برقم: (1388)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة، برقم: (2373).

(1) في (ب) (خير)

العالم حادث

«الـهَيُولى» ـ بفتح الهاء وضمِّ الياء المشدَّدة، وقد تخفَّف كما هنا ـ القُطْنُ، وشبَّه الأوائلُ طينةَ العالم به، أو هو في اصطلاحهم: موصوف بما يصف به أهلُ التَّوحيد الله سبحانه، أنَّه موجودٌ بلا كمِّيَّة وكيفيَّة، ولم يقترن به شيء من سِمات الحدوث، ثمَّ حلَّت به الصِّفة، واعترضت به الأعراض، فحدث منه العالم، كذا في القاموس[1]، وقيل: الهيولى عند الفلاسفة اسمٌ لما يُتَّخذ منه الأشياء، كالخشب يُتَّخذ منه الباب، والحنطة يُتَّخذ منها الدَّقيق، والتُّراب يتَّخذ منه العمارة.

ودنـيـــانـــا حـديـــث والـهـيـــولـــي   عـديـم الـكـون فـاسـمـع بـاجـتـذال

واعلم أن الله تعالى أحدث العالم بعد أن كان معدوماً، وخَلَقَه لا من شيء.

وقالت المعتزلة والأفلاكية والفلاسفة والدهرية والزنادقة: العالم الهيولى وهي: طينة قديمة، خلق الأشياء مِن تلك الطينة، وقالت القدرية: بعض العالم مخلوق الله تعالى وبعضه مخلوق العبد، فهذا هو الشركة، وهو معنى قول النبي عليه السلام:[1] «القدرية مجوس هذه الأمة». وقالوا: إنَّ الطينة لم توصف بالحركة والسكون والعَرَض والجوهر والجسم، كما لا يوصف الله بهذه الصفات ـ لعنهم الله ـ

---

(١) القاموس المحيط: (١٣٨٦)، باب الهاء.

---

(1) جزء من حديث أخرجه الطبراني في الأوسط: (2494) (3/ 65)، اختلف في الحكم على هذا الحديث، ولكن بمجموع طرقه يصل إلى درجة الحسن. ينظر: تنزيه الشريعة: (1/ 316)

و«الاجتذال» بالذَّال المعجمة بمعنى الفرح. و«الحديث» فعيل بمعنى الفاعل. و«عديم» بمعنى المفعول، والمراد من الدُّنيا هنا المخلوقات بأسرها، من جواهرها وعَرَضها.

والمعنى: أنَّ العوالم ـ وهو كلُّ ما سوى الله ـ بظاهرها وباطنها حادثٌ بإحداث الله سبحانه إيَّاها وإيجادها وبإبقائها بإمدادها، وإنَّ القول بكون الهيولى ـ وهو أصل العالم ومادَّة بني آدم، من العناصر الأربعة وغيرها ـ قديماً عديمٌ في الكون، أي: غير موجود، فإنَّ الأشياء كلَّها مخلوقة لله سبحانه، وكان الله ولم يكن معه شيء.

وهذا هو المذهب الحقُّ الذي عليه جميع أهل الملل، من أهل الإسلام واليهود والنَّصارى وغيرِهم من أتباع الأنبياء عليهم السَّلام. وإنَّما خالفهم الفلاسفة

قلنا: هذا القول كَذِبٌ، بل أخرج الله الأشياء كلَّها بكمال قدرته مِن كتم العدم إلى حيِّز الوجود، واختلفوا في الطينة، قال بعضهم: هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فأصل هذا العالم من هذه الأشياء، فإذا اختلط صار جسماً. وقال بعضهم مستقصاة: وهي الماء والتراب والنار والهواء فإذا امتزج صار جسماً. وقال بعضهم: هي العناصر وهي مادة العالم وهذه المركبات تحدث عنها؛ لأنه لا نطفة إلا من إنسان، ولا إنسان إلا من نطفة، ولا بيض إلا من طائر، ولا طائر إلا من بيض إلى غير ذلك.

وكلُّ ذلك باطل محالٌ هذيانٌ خرافاتٌ، لقوله تعالى وتقدس: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرّعد: 16] وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] الآية،

واعلم أنَّ مَن ناظر مع أهل البدعة لزم عليه الحجَّة حتى يهدي المبتدع، ولا يضحك على كلامه؛ لأنَّ مَن تكلَّم بالكفر فضحك كَفَرَ المتكلم والضاحك والمستحسن، وقيل: من تبسم في وَجهِ المبتدع فقد أعان على هدم الإسلام.

والحكماء المتقدِّمون القائلون بقِدَم العالم، وقد أجمعوا على كفرهم وكُفْر من تبعهم من الأنام، فاسمع حال كونك متلبساً بالسُّرور الذي يُوجِب النُّور على ظُهور النُّور، فإنَّه يفيد أنَّ الله قادر على إيجاد المعدوم وإعدامِ الموجود.




الجنة والنار
حق موجودتان

ضميره راجع إلى مجموع الـجَنَّات والنِّيران. و«مَرٌّ» مصدر «مرَّ» وهو مرفوع بالابتداء، مضاف إلى أحوال جمع حال، أو حول وهو السَّنة، والخبرُ «عليها» مقدَّم. و«خوالي» جمع خالٍ أو خالية بمعنى ماض أو ماضية.

ومعنى البيت: إنَّ للجنَّات بطبقاتها ودرجاتها، والنِّيرانِ بطبقاتها ودركاتها وجوداً الآن، وثُبوتاً فيما قبلَ ذلك من الأزمان، كما يستفاد من القرآن، نحو قوله تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣]، وفي النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] بصيغة الماضي، وهذا الذي عليه أهل السُّنَّة خلافاً لأكثر المعتزلة(١).

ولِـلـجَـنَّـاتِ والـنِّـيـرانِ كَـونٌ عـلـيـهـا مَـرٌّ أحـوالٍ خـوالـي

واعلم أنَّ الجنة والنار مخلوقتان عندنا.

وقالت النَّجَّاريَّة والجهميَّة والمعتزلة: هما غير مخلوقتين ولا تسميان شيئاً، قالوا: إنَّ الله قادر على خلقهما فيخلُقهما بعد افتراق الفريقين، وهو قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشّورىٰ: 7] ولنا: قوله تعالى في شأن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عِمرَان: 133] وفي شأن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البَقَرَة: 24] وقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البَقَرَة: 35] وقولهم يؤدّي إلى تكذيب الله تعالى في إخباره، ولأنَّ الترغيب والترهيب بالمعدوم لغو وعبث، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (٤/ ٢٠٣)، مفاتيح الغيب: (١/ ٤٠٢). المواقف: (٣/ ٤٨٥).

هذا وفي بعض الشُّروح ذكروا هنا قوله: «ولا يفنى الجحيم»: . . البيت وفي شرحنا قد تقدَّم، والله أعلم.




المؤمن العاصي لا يخلد في النار

حاصل البيت: أنَّ مذهب أهل السُّنَّة أنَّ صاحب الكبيرةِ ولو مات من غير توبة لا يُخلَّد في النَّارِ، خلافاً للمعتزلة والخوارج، بناءً على ما ذهبوا إليه من خروج العبد بالمعصية عن الإيمان[١].

وذو الإيـمـان لا يـبـقـى مـقـيـمـاً   بـشـؤم الـذنـب فـي دار اشـتـعـال

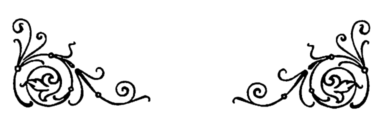
واعلم أنَّ المؤمن بارتكاب الكبائر لا يُخلَّد في النار، والناس على ثلاثة أوجه: بعضهم ماتوا كفاراً وهم في النار خالدين مخلَّدين بألوان العذاب، وبعضهم ماتوا بلا ذنب أو تائبين مِن كلِّ عيب فهم في الجنة خالدين مخلدين بألوان النِّعَم، وبعضهم ماتوا مع الكبائر فهم في مشيئة الله تعالى إن شاء غَفَرَ لهم بفَضلِه، وإن شاء عذَّبهم في النار على قَدرِ ذُنوبِهم بعَدلِه، ولا يُخلِّدهم فيها، ثُمَّ يُخرِجهم منها بعدما صاروا برحمته أو بشفاعة الشافعين، ثُمَّ يَبعثُهم إلى الجنة بمغفرته بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مَريَم: 71] قيل: الورود الدخول ثم ﴿نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مَريَم: 72] أي من الشرك ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مَريَم: 72] أي نترك الكافرين فيها جثياً[1]، وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحَجّ: 22]

(١) وقد كفر الخوارج مرتكب الكبيرة، أما المعتزلة فقالوا: إنه ليس بمؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين وهو أصل من أصولهم. ينظر: المواقف: (٣/٥٤٨)، معارج القبول: (٣/١٠٣٣).

(1) أي جالسين على الركب. قاموس: (1638) مادة: جثو

ولنا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء: ٤٨]، وقوله عليه السَّلام في الصَّحيحين لأبي ذر: «ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثمَّ مات على ذلك إلا دخل الجنَّة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» الحديث(١)، ولا يمكن دخول الجنَّة قبلَ دخول النَّار، ثمَّ دخولُ النَّار؛ لأنَّه باطل بالإجماع، فتعيَّن خروجُ مَن شاء الله تعذيبَه من النار في عاقبة الأمر. وقد سبق أنَّ أعمال الأركان غيرُ داخلة في حقيقة الإيمان، فلو فعل جميع السَّيِّئات ما عدا الشِّرك، فهو مؤمن، كما أنَّ الكافر لو أتى بجميع الطَّاعات، ولم يُصدِّق الله ورسولَه فهو كافر.

ثمَّ «الاشتعال» بالعين المهملة هو الصَّواب، والمراد به اشتعالُ لهب الجحيم وتَعَب الحميم. وقد تصحَّف على الشَّارح القدسيِّ فضبطه بالغين المعجمة، ثمَّ تكلَّف فقال: وقيل لها ذلك لاشتغال أهلها بالتَّضرُّع والدُّعاء والنَّدامة، أو لاشتغالها هي وما فيها من الحيات والعقارب بأبدان أهلها. وفيه: أنَّ الاشتغال أمرٌ مشترك بين أصحاب الجحيم وأرباب النَّعيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥-٥٦].



ثُمَّ النار تكون بُستاناً تحت أقدام المؤمنين، فلمَّا خَرَجُوا ووَصَلُوا إلى الجنة ينادي المنادي: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر: 46] فلمَّا دخلوها يقولون: ربنا قد وعدتنا العبور على الصراط والدخول في النار، ونحن ما عَبَرنا ودَخَلنا، قيل لهم: قد عَبَرتم ودَخَلتم فلا تشعرون، لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢﴾ [الأنبياء: 102] وقالت المعتزلة: أهل الكبائر يخلدون في النار، وقد مرّ جوابه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب اللباس، باب: الثياب البيض (٥/ ٢١٩٣) برقم: (٥٤٨٩)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة (١/ ٩٤) برقم: (٩٤).

«لام» للتَّوحيد للتَّوكيد لكونها زائدةً داخلةً بين الفعل المتعدِّي ومفعوله. و«نظماً» مفعول به، وفي نسخة «وَشْياً» والمراد به المنظوم، وهو: الكلام المُقفَّى الموزون على سبيل القَصْد. وشَبَّه النَّظم بالإلباس والمنظومَ بالملبوس مجازاً، وسمَّاه وَشْياً؛ لأنَّه زينة الكلام كما أنَّ اللِّباس زينة اللابس على وجه حسن النِّظام. و«بديع الشكل» صفةٌ لـ: «نظماً» أو «وَشْياً»، أي: غريباً شكلُه، وهيئتُه مثل السِّحر يحلُّ محلَّه ويشاركه في صفته.

تعريف السحر:

والسِّحرُ عند الحكماء: قوَّةٌ في النَّفس تتأثَّر عنها الأشياء من غير استعانة بعزيمة ولا غيرها، قاله ابن جماعة.

وقال الرازي في تفسيره: هو في عرف الشَّرع مختَصٌّ بكلِّ أمر يَخفى سببُه، ويتخيَّل على غير حقيقتة، ويجري مجرى التَّمويه والخِداع، فإذا أُطلق ذُمَّ فاعله، وقد يستعمل مقيَّداً فيما يُمدَح ويُحمد(١)، كقوله عليه السَّلام: «إنَّ من البيان

وأنَّ حقائق الأشياء حقٌّ لدى أهلِ الجماعة والجمال

اعلم أنَّ حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقِّق؛ لأنَّ من نفاها كان نفيه إياها تحقيقاً منه المنفي، فكان في نفيها ثبوتُها(1)، فكانت ثابتةً ضرورة.

وقالت السُّوفُسطائيَّة: كلُّ أعيانٍ ليست بثابتة إنما هي خيالات. ولا مناظرة مع هؤلاء إلا بالضرب المؤلم والإحراق بالنار ليضطروا إلى الإقرار.

---

(١) مفاتيح الغيب: (٢/ ٢٤٢).

---

(1) لأن قولهم: لا شيء من الأشياء بثابت، صَدَقَ نقيضه، وهو بعض الأشياء ثابت؛ لاستحالة ارتفاع النقيضين. وإن تحقق النفي فقد ثبتت حقيقة من الحقائق؛ لأن الحكم إما إثبات أو نفي. شرح العقائد النسفية وشرحها النبراس: (77).

لَسِحراً»[1] أي: بعض البيان سحر؛ لأنَّ صاحبه يوضِّح الشَّيء المُشكِل، ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه، فيستميل القلوب إليه كما تُستمال بالسِّحر. فوجهُ تشبيه النَّظم بالسِّحر: استجلابُ كلٍّ منهما القلوبَ بالمحبَّة.

وفي هذا البيت من صنع البديع الاحتراسُ، حيث وصف السِّحرَ بالحلال، فإنَّ الاحتراس عندهم: هو أن يأتي المتكلِّم بمعنى يتوجَّه عليه فيه دخل، فيتفطَّن له فيأتي بما يُخلِّصه من ذلك؛ لئلا يقع لأحد عليه اعتراض هنالك[2].

حــواسٌ خــمــســةٌ خــبــرٌ وفــكــرٌ   وهــي أســبــابُ عــلــمٍ لــلــرِّجــالِ

واعلم أن العلم الحادث نوعان:

ضروري: وهو لا يسعُ إنكاره، كالعلم بأنَّ النار محرقة، والشمس مشرقة، ويشترك فيه جميع الحيوانات.

واكتسابيّ: وهو ما يُحدِثه الله في العالم بسبب كسب العبد، وأسبابه ثلاثة: الحواس الخمس، والخبر الصادق، ونظر العاقل.

أما الأول: فهي السمع والبصر والشمُّ والذوق واللمس، ويُعلم بكلِّ حاسة ما يختصُّ بها إذا سلمت فيه.

وأما الخبر الصادق فنوعان: أحدهما: الخبر المتواتر: وهو ما يُسمع من أشخاص مختلفة بحيث لا يُتوهَّم تواطؤهم على الكذب، وهو كالعلم الضروري، كالعلم بالملوك الماضية والبلدان القاضية، والثاني: الخبر المؤَيد بالمعجزة: وهو سبب للعلم القطعي إلا أنَّ هذا النوع يَحتاج إلى الاستدلال؛ ليُعرف أنَّه رسولٌ صادقٌ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النكاح، باب: الخطبة (٥/ ١٩٧٦) برقم: (٤٨٥١) عن سيدنا ابن عمر.

(٢) ومثال الاحتراس في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [القَصَص: ٣٢] فاحترس بقوله سبحانه: «من غير سوء» عن إمكان أن تدخل في البرص والبهق وغير ذلك.

ينظر: خزانة الأدب: (٢/ ٤٨٦).

«القلب» المراد هنا بالقلب الشَّكل الصَّنوبري، لا اللَّطيفة القائمة به، وهي البصيرة، على ما قاله ابن جماعة، ولا يخفى بُعده في هذا المحلِّ؛ فإنَّ تسليته تفريجُه عن هَمٍّ نزل به، والبُشرى البشارة بالخبر السَّارِّ؛ لأنَّه تتغيَّر البَشَرة به. و«الرَّوحُ» ـ بفتح الرَّاء ـ الرَّاحة، وهو مرتبط بـ «يُسلِّي».

والمعنى: لا ينال القلبَ مشقَّة وتعب، بل يحصل له راحة وطرب؛ لكون مبناه نظماً باهراً، ومعناه تامّاً ظاهراً.

و«الرُّوح» بالضَّمِّ جوهر نُورانيٌّ له سَرَيانٌ في البدن كسريان ماء الورد في الورد، قاله ابن جماعة وجماعة آخرون. و«الزُّلال» ـ بضمِّ الزَّاي ـ الماءُ العذب الصَّافي، الذي لا يخالطه شيء.

والمعنى: ويكون هذا النَّظمُ سبباً لحياة الرُّوح، وهو العلم عن موت الجهل، كما أنَّ الزُّلال سببٌ لبقاء من بقي به رَمَق في الحال بحكم الملك المتعال.

وأمّا نظر العقل: فهو سبب للعلم أيضاً، وهو نوعان: ضروريٌّ يسمّى بديهية: وهو ما يَحصل بأول النظر بلا تفكّر كما مرّ، واستدلاليٌّ: وهو ما يحتاج إلى نوع تَفكُّرٍ، كالعلم بوجود النار عند رؤية الدخان.

وحصول العلم بهذه الأسباب ظاهرٌ لمَن أنصف ولم يعاند.

وأنكرت [السوفسطائية ذلك كلَّه، وأنكرت البراهمة كون الخبر من أسباب العلم وهو قريب من][1] السوفسطائية، وأنكرت الملاحدة والروافض والمشبّهة كون العقل من أسباب العلم، قالوا: لأنَّ قضايا العقل متناقضة؛ لاختلاف العقلاء فيما بينهم.

قلنا: فبمَ علمتُم؟ فإن قلتُم: بالعقل، فقد ناقضتم. فإن قلتُم: بالخبر، قلنا: فبمَ علمتُم أنَّه صِدْقٌ أو كَذِبٌ؟ فإن قلتُم: بالعقل، فقد ناقضتم. وإن قلتُم: بالحسّ، فقد عاندتم.

---

(1) سقط من (ب).

الاعتقادُ: جزم القلب وربطُهُ على الشَّيء. و«المنال» العطاء.

أي: اشْرعوا في هذا النَّظم من جهة حِفْظ المبنى واعتقادِ المعنى، غيرَ مقتصرين على مجرَّد المطالعة والاكتفاءِ بالمقابلةِ، تَبلُغوا أصناف العطايا من الله تعالى في الدُّنيا والعقبى.

وكُونوا عَونَ هَذا العبدِ دَهرًا بِذكرِ الخيرِ في حالِ ابتِهَالِ

«العون» المعين، والمراد بالعبد نفسه، وهذا يُشار به إلى الحاضر ومَنْ في حكم الحاضر. والمراد بالدَّهر الزَّمانِ والعصر، وقد يطلق على قطعة منه، ويشير إليه تَنكُّره هنا ونصبُه على الظَّرفيَّة و«بذكر» متعلَّق «بعون» و«في حال» بذكر. والمعنى: أعينوا هذا العبد الضَّعيف، وساعدوا هذا الفقير المصنِّفَ، بذكر الخير له والدُّعاء والاستغفار في حقِّه حالَ تضرُّعِكم إلى الله سبحانه، ما تيسَّر من الدَّهر كلِّه أو بعضه، فإنَّ دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة.

لعلَّ الله يعفوه بفضل ويعطيه السعادة في المآلِ

يُقرأ: «ويعفوه» بالإشباع كما هو قراءة ابن كثير من السَّبعة. و«لعلَّ» للتَّرجِّي. و«العفو» تركُ المؤاخذة، والمعروفُ تعديته بـ «عَنْ» فيكون من باب الحذف والإيصال[1]، كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فالجواب: لا تتناقض قضايا العقل، وإنما الاختلاف فيما بينهم إما لقصور عقلهم عن بلوغ درجة النظر، أو لتقصيرهم في شرائط النظر فيَحكُم بعضهم بالهوى والظَّن.

---

(١) أي: يعفو عنه، فحذف الجارَّ فاتَّصل الضَّميرُ بالفعل، فصار يعفوه، كما في قوله تعالى ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه، فحذف الجار فصار قومه. وهو من قبيل نزع الخافض.

وإنـي الـدهـر أدعـو كـنـه وسـعـي لـمـن بـالـخـيـر يـومـاً قـد دعـالـي

و«المآل» بالهمزة قبلَ الألف المرجع والعاقبة، والمرادُ به الآخرة إذ لا سعادة إلا سعادةَ العاقبة وسلامةَ الخاتمة، كما ورد «اللَّهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة»[1].

أي: وإنِّي في جميع عمري، خصوصاً في آخر أمري، أدعو ربِّي وهو حسبي، غايةَ وُسعي وطاقتي ونهايةَ جُهدي وطاعتي، لكلِّ من دعا لي من الأنام بالخير يوماً من الأيَّام، فنسأل الله سبحانه أن يرحم النَّاظم وجميعَ مشايخنا الكرام، وآبائنا وأسلافنا الفخام، وأن يختم لنا ولأحبابنا بالحسنى، وأن يرزقنا المقام الأسنى مع النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تمت، قد وقع الإتمام من تحرير هذه الحروف في يوم الأربعاء، في وقت الضحى، كتبه الحقير ذو الاحتياج الكثير إلى ربِّه الغنيِّ ذي الرَّحمة والعطا، مصطفى بن كريم بن مصطفى، غفر الله له ولوالديه ولمن أحسن إليهما وإليه، سنة (١١٧٤)هـ.

قال الشَّارح رحمه الله تعالى: فرغ على يد مؤلِّفه بتوفيق ربِّه ولطفه، لنصف شهر شوال، ختم بالخير والإقبال في سلك شهور عام عشرٍ بعد الألف من الهجرة

عـلـومُ الـمـرءِ أفـضـلُ مـن عـقـولٍ وعــقــل آلــة مــثــل الــعــقــال

واعلم أنَّ العلم أفضل من العقل عندنا؛ لأنَّ العلم مقصودٌ، والعقل آلة يحصُل بها العلم؛ لأنَّ معرفة الله تعالى ومعرفةَ الانقيادِ لأوامره والاجتنابِ عن نواهيه لا تحصُل إلا بالعلم، لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد، باب: البيعة في الحرب أن لا يفروا (٣/ ١٠٨١) برقم: (٢٨٠١)، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد، باب: غزوة الأحزاب (٣/ ١٤٣١) برقم: (١٨٠٤) عن أنس رضي الله عنه قال: كانت الأنصار يوم الخندق تقول: نحن الذين بايعوا محمَّدا على الجهاد ما حَيينا أبدا فأجابهم النبيُّ ﷺ فقال: «اللَّهمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة» واللفظ للبخاري.

إلى المدينة المكرمة، وكان ذلك بمكة المعظمة زادهما البرَّ والمهابة. كذا في أواخر بعض الشروح على سِّيدنا محمد أفضلُ الصَّلاة والتَّحيَّة[١].

وقالت المعتزلة: العقل أفضل من العلم، ويتوجَّه الخِطاب بنفس العقل، وقالوا: لا عذر لمَن عَقَلَ صغيراً كان أو كبيراً في الوقف عن ترك الإيمان وإن لم تبلغه الدعوة.

قلنا: العلم أفضل لِمَا في العقل نوع قصور، فلا يصلح حجة بنفسه بخلاف العلم الشرعي، ولأنَّ العلم من صفات المعبود والعقل من صفات المخلوق. والله تعالى أعلم.

وحتم أمر معروفٍ بنصّ ... ونهي عن نكير كلّ حَال

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب في زماننا، فذلك فرض بدليل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: 110] أي أخرجكم الله تعالى لأجل الناس، تأمرون بالطاعة وتَنهَون عن المعصية، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التّوبَة: 71] وقال عليه الصلاة السلام[1]: «مُروا بالمعروف وإن لم تعملوا به، وانهُوا عن المنكر وإن لم تَنتهوا عنه». وقال عليه

---

(١) قلت:

ولـلأوشي أدعو كل حين ... بغفران في يوم المآل

وأرجو الله يوماً بعد يوم ... سلاماً منه من سوء المقال

فقد آتاه ربي كل فضل ... بما أولاه في «بدء الأمالي»

ويا رباه إني قد أتيت ... مقراً بالذنوب من فعالي

فجد واصفح بعفو منك يمحو ... ذنوب العبد وارفع من مقامي

---

(1) أخرجه الطبراني في الصغير: (981) قال الهيثمي: فيه عبد السلام بن عبد القدوس عن أبيه وهما ضعيفان. مجمع الزوائد: (7/ 218).

الصلاة السلام[1]: «إذا رأى أحدٌ منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبِقَلبه». قيل: باليد للإمام وباللسان للعلماء وبالقلب للعامّة.

وإن لم يرَ الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر كان جبريًّاً منافقاً قال الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: 67] فعُلِم أنَّ تركها علامة المنافقين، وقالت الجبرية والفلاسفة: ليس بواجب لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: 105].

قلنا: قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه:[2] «ليس هذا عنكم في زماننا» ولكن إذا كثُرت أهواءهم وفشا فيهم حبُّ الدنيا فعند ذلك على كلِّ امرئ نفسه، هذا تأويلها، وقال عليه السّلام:[3] «إذا فشا فيكم حُبُّ الدنيا ولم يَنفع الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر فالقائمون يومئذ بكتاب الله تعالى سراً وعلانية كالسابقين من المهاجرين والأنصار». الخبر بتمامه، صدق رسول الله ﷺ.

ويمحو الله ربي وصف عبدٍ شقياً أو سعيداً ختم خال

واعلم أنَّ الله تعالى يُبدِّل السعادة المكتوبة في اللوح المحفوظ شقاوةً بأفعال الأشقياء، ويُبدِّل الشقاوة المكتوبة سعادة بأفعال السعداء؛ لأنه قادرٌ على أن يُصيِّر السعيد شقياً بعدلِهِ، والشقيَّ سعيداً بفضلِه، ولقوله عليه السلام[4]: «إن رجلاً يكون بينه وبين الجَنَّة شبرٌ فيجري على يده ذَنبٌ فيُختَم عليه بالشقاوة، وإنَّ رجلاً يكون

(1) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر، برقم: (186).
(2) أخرجه الطبراني في الكبير: (9072) (9/ 221) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، إلا أن الحسن لم يسمع من ابن مسعود والله أعلم. مجمع الزوائد: (6/ 382).
(3) جزء من حديث أخرجه البزار في مسنده: (2631) (4/ 246) قال الهيثمي: فيه الحسن بن بشر وثقه أبو حاتم وغيره وفيه ضعف. مجمع الزوائد: (7/ 211).
(4) أخرجه البخاري كتاب الإيمان، باب لا يقول فلان شهيد، برقم: (2898)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، برقم: (320).

بينه وبين النار شِبرٌ فيجري على يده خيرٌ فيُختَم عليه بالسعادة، وإنَّ الأعمال بالخواتيم»، ولقوله عليه السلام[1]: «اللهم إنْ كتبتَني من أهل السعادة فثبِّتني عليها، وإن كتبتني من أهل الشقاوة فامحُني عنها، فإنَّك تَمحو ما تشاء وتُثبت وعندك أمُّ الكتاب».

وقالت الأشعريَّة والقدريَّة[2]: قد كان ما هو كائن وقد جفّ القلم فلا تَتبدَّل السعادة والشقاوة، وعن هذا قالوا: إنَّ أبا بكر وعمر كانا مؤمنين في حال سجودهما للصنم، وسحرة فرعون كانوا مؤمنين في حال قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشُّعَرَاء: 44] وإقرارهم بألوهيته، وإبليس كان كافراً في حال عبادته لله تعالى.

قلنا: هذا مردود عليكم فإن الله تعالى قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38] أثبت الغفران بما سلف قبل الإسلام بالإسلام، فلو كان الكافر مؤمناً قبل الإيمان لفاتت فائدة الغفران وتعطَّل كلام الرحمن، وهذا من أقبح القبائح، وآدم عليه السلام هل كان عاصياً بعد أن أكل من الشجرة أم حين خَلَقَهُ؟ فإن قلتم: خلقه الله عاصياً فلا يكون مُطيعاً بقوله، فصحَّ كلامنا[3].

---

(1) اللالكائي (كنز العمال: 5045)

(2) لكن الخلاف لفظي، لأنه على كلا القولين العبرة بالخاتمة. ينظر شرح الخريدة البهية: (98)

(3) قال في (ب):

لَقَدْ أَلْبَسْتُ لِلتَّوحِيدِ نَظمَاً بَديعَ الشَّكلِ كالسِّحر الحلالِ
يُسلِّي القَلبَ كالبُشرى بِروح ويُحيي الرُّوحَ كالماءِ الزُّلالِ
فخُوضُوا فيهِ حِفظَاً واعتِقَاداً تَنالُوا جِنسَ أصنَافِ المَنالِ
وكُونوا عَونَ هَذا العَبْدِ دهراً بِذكرِ الخيرِ في حالِ ابتِهَالِ
لعلَّ الله يَعفوهُ بِفضلٍ ويُعطِيه السَّعادة في المآلِ

=

....

= وإنِّـي الـحـقَّ أدعـو كـلَّ يـوم ... لِمَن بـالـخيرِ يـوماً قَـد دعـا لِـي
سَـرد قَـصـيـدةٍ مِـن أصـلِ ديـنٍ ... مِـن الـتَّـوحـيـدِ خـيـرٍ مِـن مِـثـالِ
إلـه مـالـك مـولـى الـمـوالـي ... لـه وصـف الـتـكـبـر والـتـعـالـي
إلـه لا يـنـازعـه شـريـك ... ويـخـلـق مـا يـشـاء بـلا مـثـال
جـلـيـلٌ جـلَّ عـن عـو ونـصـرٍ ... عـزيـز عـن عـمٍ وخـالِ

تَمَّ بعون الله الملك المعين هو الحقُّ المستعان المبين، تاريخ سنة1175في شهر رجب في يوم الاثنين، حرَّره الفقير الحقير كثير القصور سليمان بن محمد، غفر الله له ولوالديه وأحسن إليهما وإليه. تمت
قال في (م):
تَمَّ الكتاب بعون الله الملك الوهاب.
وارحم لكاتبه العبد المذنب الفراق مصطفى بن حسين بن محمد، غفر الله له ولوالديه وأحسن إليهما وإليه، في شهر ذي الحجة، القعدة الشريفة اليوم السابع عشر في وقت الصباح الكاذب سنة أربعة وسبعين ومئة وألف.

فهرس الموضوعات








ARAPÇA YAYINLAR

Büyük Raşitpaşa Cad Yümni iş merkezi
NO : 22\22 Veznecıler Beyazıt İstanbul

TEL : 00905356502249

Email : beyruti.kitab@gmail.com